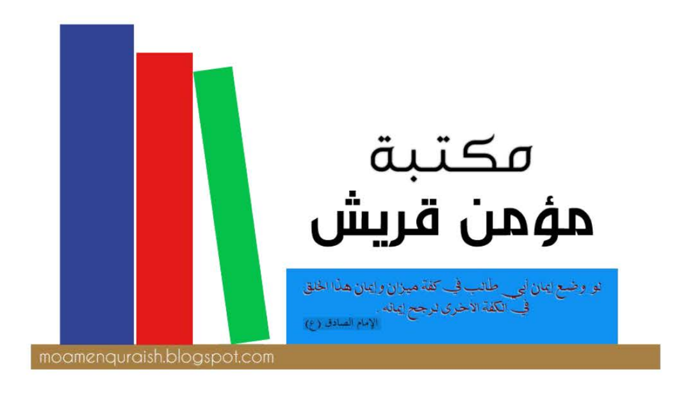
جوزيف وكارولين ميسينجر

كلمات
نقتل بها أولادنا

لا تقولوها أبداً!

Flammarion


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

جوزيف وكارولين مسينجر

كلمات
نقتل بها أولادنا

ترجمة

ألفيرا عون

Flammarion



ISBN 978-9953-15-355-1

العنوان الأصلي لهذا الكتاب باللغة الفرنسية

Ne leur dites JAMAIS...



شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
طريق المطار ـ سنتر زعرور ـ ص.ب: 11 /8254
هاتف/ فاكس: 450950 ـ 1 ـ 961 00 ـ بيروت ـ لبنان
Email: info@darelfarasha.com
http: www.darelfarasha.com

تمهيـد

الكلام المبطّن هو من الطرق الأكثر اعتماداً في تربية الأطفال. يطلب الراشدون الحقيقة من الأولاد لكنّهم لا يتردّدون في استخدام الكذب بإسراف ليفرضوا الطاعة: «إن لم تسمع الكلمة سيخطفك «البعبع»، ولن تحصل على أي هدية في العيد، الخ». نبدأ بتهديدات لا أساس لها وننتهي بفقدان مصداقيتنا في أعين أولادنا.

يكتشف الطفل مرجعياته في الحياة اليومية، وفي الملاحظات التي يوجّهها له والداه، ويشكّل بذلك تدريجياً فكرة عن هويته الشخصية. في معظم الأوقات، يضطرّ الولد إلى التعايش مع الصورة التي يكوّنها عنه والداه. وقد تعرّضنا جميعنا لمثل هذه «الكلمات القاسية: «لستَ سوى أناني»؛ «لن تنفع في الحساب». إن هذه الأحكام المبرمة التي تُردَّد بانتظام تقيّد الأولاد في الحكم الصادر بحقّهم وتتخذ الجملة الصغيرة المسمومة صفة «النبوءة». فمن باب الولاء للأهل، يفضّل الولد طاعة أبويه واستخدام طاقته في تحقيق مشروع حياة لا يخصّه. لا نجد بالطبع الكثير من الآباء أو الأمهات الذين يقولون مباشرة لولدهم: «لولاك، لكانت حياتي أفضل»، لكنّ بعضهم قد يقول: «لو لم تولد لكنتُ تركت أمك»، أو «لقد رفضت العديد من الوظائف المثيرة للاهتمام لأنه كان علي أن أربّيكم».. إن التقاط الولد لهذه الرسائل قد يولّد لديه شعوراً بالذنب يقوده إلى التقيّد بمثال الوالد أو الوالدة، حتى وإن اضطر إلى الابتعاد عن حقيقته العميقة ليحقق ذلك.

هل اختيار كلماتنا عائد إلينا؟

كتب جان ـ ديديه فانسان Jean-Didier Vincent في كتابه «قلب الآخرين»: «منذ تمتماته الأولى وحتى ألفاظه الأخيرة يتفوّه الإنسان بملايين الكلمات: (184800000) كلمة كمعدل وسطي خلال سبعين سنة». كلمات عادية، كلمات ذكية، كلمات مرّة، كلمات يائسة، كلمات قاسية، كلمات مضحكة، كلمات لاذعة، كلمات قاتلة... كلمة واحدة قد تختصر كل شيء: الانفعال، الألم، المأساة، الشِّعر، الحب، تجربة الحياة. إنها عالم بأسره، إنها فلسفة متكاملة. فالكلمات ليست مجرّد أصوات تحمل معنى، إنها تحمل أيضاً انفعالاً يُوجَّه إلى المستمع كمخرز أو ينساب في أذنيه كإكسير شافٍ».

ولكن عندما يتعلّق الأمر بالتربية، تصبح الكلمات أحياناً بذور مرض غريب يجب استئصاله هو الخداع أو الغشّ الكلامي. ولكن بمَ نستبدله؟ أنلجأ إلى المنطق؟ هذا غير مجدٍ! فالأولاد هم كتل من الطاقة الانفعالية، وترتكز تصرّفاتهم بشكل أساسي على انطباعاتهم أو أحاسيسهم: أحب أو لا أحب! فإذا كان ولدكم لا يحب المدرسة وضغوطاتها اليومية مثلاً، ما من مكافأة مغرية بما يكفي لتمنحه الرغبة بالانكباب على واجباته الدراسية. وإذا كانت ابنتكم المراهقة تفضّل تمضية الوقت في التحدّث مع رفيقاتها على الهاتف أو مشاهدة شريط مغنيتها المفضلة، للمرّة الألف، وهي ترقص أمام المرآة بدلاً من مراجعة درس الرياضيات، فما العمل؟ إنّ وضع شريط الفيديو في الدرج وإقفاله بالمفتاح أو قطع شريط الهاتف هما حلاّن متطرّفان

سيسبّبان لها «نوبة عصبية» لن تحتملها آذانكم وتعكّر جوّ الانسجام داخل العائلة.

يقترح بعض المتخصّصين في علم التربية التحقّق من الجوّ الذي يعيش فيه الولد. فلكي يرغب في الدرس، يجب أن يتوفّر له جوّ مشجّع على العمل: ضوء ملائم، طاولة، مكتبة، خزائن لحفظ الكتب وترتيبها، الخ. علماً أن هذه العوامل ليست بالضرورة الأكثر تشجيعاً والأكثر قدرة على حثّه على الدرس. صحيح أنها تساعده لكننا نعتقد أن الحلّ في مكان آخر. إذا كان ولدكم يحصل على علامات سيئة مرّة تلو المرّة ويكره المدرسة، فالأمر لا يحتمل التأويل: إنه يعاقبكم على انشغالكم الذي يبعدكم عنه والذي يؤدّي إلى انعدام الحوار بينكم وبينه. إنه يخدش أنانيتكم الأبوية ويطالبكم بالتكلّم معه بشكل مختلف عن الجُمَل الجاهزة التي لا نهاية لها، والتي تقدّمونها له كما تُقدَّم القهوة الجاهزة خلال استراحات العمل.

تتوقّف النتائج المدرسية بشكل أساسي على مدى تواجد الأهل قرب أولادهم والوقت الذي يكرّسونه لهم وانفتاحهم على حوار حقيقي معهم فالأحكام المسبقة ليست كفيلة بتحفيزهم. يجب ألاّ نفرض على الولد موضوع الدرس ولكن أن نتناوله في إطار حوار عائلي يهدف إلى تحفيز الولد أكثر مما يهدف إلى محاولة تحميله مسؤولية مستقبل مهني ليس بالنسبة إليه سوى أمر افتراضي كألعاب الفيديو التي يلهو بها. إن قوّة الكلمات تتخطى بأشواط قوّة الوعود أو النوايا. فبدلاً من إجباره على درس الرياضيات لأنكم كنتم دائماً فاشلين تماماً في هذه المادة، اطلبوا منه أن يشرح لكم درسه. سيشعر، بهذه الطريقة، أنه موكل بمهمة تتعلّق بالأمن القومي!

عندما يهنّئكم رئيسكم في العمل على مبادراتكم تشعرون

بالكثير من الرضا الذاتي، حتى أنكم قد تفكّرون في تقبيل يديه. وجميعنا نفكر بالطريقة نفسها. وإذا حاولتم تحقيق ذاتكم (أو كبريائكم) من خلال طفلكم فلن يحصد سوى الفشل أو أنصاف النجاحات، وهذا الفشل سيكون فشلكم أنتم وليس فشله هو. سيعاقبكم لغيابكم وعدم مساعدتكم له عندما كان معرّضاً لخطر الفشل. وهكذا، سيعاقبكم بدلاً من أن يترككم تتذوّقون فرحة نجاحاته المدرسية.

«تبيّن لدى الإنسان أن نوعية العلاقة بين الآباء والأبناء، التي تحدِّدها قدرة الوالدين على تفهّم ولدهما واستجابتهما لاحتياجاته العاطفية، تحدّد مع الوقت قوّة ونشاط جهازه العصبي الباراسمبتاوي الذي يساعد على انتظام دقات القلب، الأمر الذي سيسمح له بمقاومة الضغط النفسي والاكتئاب وغيرهما بفعالية أكبر. وما يصح بالنسبة للأطفال الصغار الذين يعتمد توازنهم الجسدي على العاطفة التي نغمرهم بها، يصح أيضاً بالنسبة للكبار». تعرض هذه الأسطر القليلة لمبدأ أساسي في تربية الطفل، وقد أُخذت من أحد كتب دافيد سرفان ـ شرايبر(*) David servan-Schreiber. واحتياجات الولد التي يجب أن يشعر بها الوالدان هي احتياجات يتم التعبير عنها في المقام الأول بالكلام.

عندما تصبحون أمّاً أو أباً لا تتملّككم الرغبة في أن تصبحوا آباء مثاليين، إنما مربّين «مقبولين»، قادرين على تربية أولادكم من دون أضرار جسيمة. لكنكم تلجأون للأسف، باسم هذه التربية، إلى طُرُق جاهزة للاستهلاك بقيت حيّة عبر أجيال من الآباء من دون أن

(*) كتاب **أسرار الشفاء في قلبك**، الصادر عن دار الفراشة.

تظهر عليها علامات الزمن. إلاّ أن هذه الكلمات لا تمرّ مرور الكرام، بل تترك آثاراً بليغة تضرّ بسلوكيات أولادكم عندما يصبحون في سن الرشد.

كلمات بعيدة المدى

الابتزاز والأكاذيب الصغيرة، والتعابير التي تجرّد الولد من قيمته وقدرته، والأحكام المسبقة، والطُرُق المتحجّرة الناجمة عن مبادىء وتعاليم عتيقة عفا عليها الزمن، كلها أسلحة لإظهار القسوة والصرامة من أجل فرض الطاعة وتلبية متطلّباتنا كأهل. وهذه الرسائل غير المؤذية في ظاهرها هي التي تشكلّ أساس الحوار بين الأهل وأولادهم. إنها لازمات كلامية قاسية يردّدها الوالدان عن عدم تفكّر أو تبصّر، مستغلّين بذلك ذهناً غير قادر على حماية نفسه. فيبتلع الولد من دون أي تمييز تلك الجمل الملوَّثة التي ينطق بها الوالدان ـ الإلهان، وتلك الكلمات «المنزَلة» التي تجتاح الأنا لديه.

هذه العبارات والرسائل التي يطلقها الوالدان من دون تمييز تؤثر في سلوك الولد عندما يصبح راشداً وتغيّر وجهة مستقبله وتُضعف شخصيّته وتُنقص استعداداته الوراثية. إلاّ أن الوالدين يجهلان تأثير الكلمات التي يستخدمانها على المدى البعيد، فيتّهمان أولادهما بالفشل في حين أن مسؤولية هذا الفشل تقع عليهما وحدهما. إن الكلام المعلّب الذي يستخدمه الأهل هو أشبه بالجرثومة التي تنخر قدرات الأولاد وتضعفها، ولتفاديها يتعيّن على الأهل التدقيق في كلامهم قبل التفوّه به. يكفي أن يصغوا إلى ما يقولونه بدلاً من أن يسمعوه فحسب.

كيف تزيلون السموم من كلامكم؟

إن النهج الذي نقترحه عليكم في هذا الدليل يقضي بأن

تتعلّموا كيف تتكلّمون وتقيمون حواراً مع أولادكم منذ نعومة أظفارهم. فالتنبّه لتلك الجمل الجاهزة، التي ورثناها عن آبائنا، والتصرّفات التي نصّبنا أنفسنا مدافعين عنها، لا يتطلّب شهادة جامعية في علم النفس. فمعظم اللازمات الكلامية السامة التي نستخدمها في تربية أولادنا تشكّل جزءاً من مشهد الحياة الاجتماعية.

كما أنها تجد أيضاً مصادرها في ذكريات طفولتنا. لذا لا تُعيدوا إخراج المسرحية العائلية الرديئة التي لعبتم فيها دوراً رئيسياً رغماً عنكم. فإلى جانب الطاعة، هنالك أيضاً مساحة مخصّصة للحوار الذي يجب أن تدعوا إليه ولدكم بين الحين والآخر لتمتين العلاقة المقدّسة التي تربطكم به.

يدعوكم هذا الكتاب إلى إعادة النظر في العبارات التي تتوجهون بها إلى أولادكم. فهؤلاء يلتقطون الكلمات التي تقومون بإخراجها، كما يفعل الممثّلون. لذا ندعوكم هنا إلى ملاقاتنا وراء ستارة المسرح، في الممرّات الضيّقة للفكر لاكتشاف الوجه الآخر لخطابكم، أو أسلوب خطابكم. وما ستتعلّمونه في صفحات هذا الكتاب سيساعدكم لكي تصبحوا أكثر نضجاً وأكثر وعياً للدور الحاسم الذي يلعبه كلامكم في نجاح العملية التربوية التي تتحمّلون مسؤولياتها.

يمكنكم أن تكونوا مصدر طاقة بالنسبة إلى أولادكم، فهذه المسألة قائمة على الكلمات التي تتبادلونها معهم والمواقف التي يمكنهم أن يتشرّبوها منكم. كما يمكنكم أن تكونوا مصدر تسمّم فكري لهم. أنتم تختارون!

لا تستطيع الكلمات كل شيء ولكنها تستطيع الكثير. . .

هَجَر، الهجر

لو أحبّا بعضهما حقاً، لما كرها بعضهما إلى هذا الحد.

«عندما تركنا بابا، أنا وماما...».
«عندما هجرنا زوجي، أنا وابنتي».

الأولاد الذين يطلِّقون والديهم

عندما يطلّق أب أمَّ طفله، فإنه يطلّق طفله أيضاً، لنقل من الناحية الجسدية. فيشعر الولد بغياب والده كتمزّق، كهرب، كهجر للبيت، ولا يستطيع حياله شيئاً. إن انفصال الزوجين يترك الأولاد على قارعة الطريق، مهما كان عمرهم. في أغلب الأحيان، لا ينجح الزوجان المطلّقان في قول كلمة «أولادنا» إلاّ بعد مرور سنوات طويلة، عند ولادة الأحفاد، وكأن الطلاق قد امحّى من الذاكرة.

رهينة

كثيراً ما يصبح ابن الزوجين المنفصلين (أو ابنتهما) رهينة ابتزاز مالي أو «ملكية حصرية» للشخص (الأب أو الأم) الذي حاز على حضانته. فيختفي الولد «الشخص» ليحلّ مكانه الولد «الشيء». وتأتي عادةً أشرس الهجمات من أسرة الزوجة، وعلى رأسها الجدّان اللذان يحتضنان من جديد ابنتهما وثمرة حبّها لذلك الفظّ عديم الأخلاق الذي لم يحترم شروط الزواج، فيحرصان على تأمين الأفضل لابنتهما المعبودة من أجل تجنيبها الأسوأ. والجدّان هما اللذان يزيدان هذا الشرخ بين الولد وأبيه (أو أمه)، المُبعد (ة) عن العائلة. فتتحوّل أسرة الوالدة إلى قلعة منيعة يُقصى عنها الطرف

«الهاجر» إلى الأبد. ولولا العدالة والمحاكم، لما سُمح له حتى بالاقتراب من أولاده. وتغذّي الأم فكرة الهجر أكثر عندما تكون غير راضية عن العقاب المفروض على زوجها «المذنب» (أي عن مقدار النفقة). وقد تستخدم الولد لمعاقبة أبيه ولكن من دون أن تعي أنها تحفر بذلك قبرها بيدها (انظر أيضاً وَعَد: «يطلق أبوك الوعود لكنّه لا يفي بها أبداً!»، ص256). في سن المراهقة، تنتقل الفتاة إلى المقلب الآخر، وترفض فجأة هذه الأمَّ التي تملّكت ابنتها وأجبرتها على طلاق أبيها.

اختيار الكلمات

من الضروري أن يتفادى الوالدان حدوث الانفصال بين الولد وأبيه أو أمّه. فإذا قررتم الانفصال عن شريككم، هذا شأنكم، لكنّ ولدكم ليس مضطراً لتحمّل عواقب انهيار زواجكم. فالخلل العاطفي الذي يتعرّض له الولد ناجم بشكل رئيسي عن النميمة داخل العائلة. ذلك أن التعبير عن رفض الطرف الآخر بالكلام يخلق جرحاً عاطفياً عند الولد. فإذا كنتم غير قادرين على كتم مشاعر البغض التي تعتريكم، فهذا يعني أنكم تتصرّفون تصرّف الثمِل وراء مقود السيارة. كل كلمة تخرج منكم هي لعنة وكل جملة هي ندبة لا تزول. بالمقابل، كلما أعطى خطابكم قيمة للطرف الآخر في غيابه، تَقبّل ولدكم بسرعة فكرة انفصال الوالدين لعدم توافقهما، وأدرك أن الأمر يخصّهما وحدهما، ولا علاقة له هو! وما قد يكون رأي الجدّين بهذا الخصوص أو ما قد يقولانه ضد الأب لا أهمية له على الإطلاق، إذا نجحتم في إقامة علاقات «حسن جوار» مع شريككم السابق بوجوده وفي غيابه.

انظر أيضاً في «أب»: «أبوك نذل»، ص235.

حتماً، من كل بدّ

من دون إرادة الوصول، ليس النجاح سوى حلم غير مسؤول.

«يُفترض أن تنجح من كل بد...».

مارين تلميذة بلا مشاكل، رصينة ومجتهدة. هي في الصف الثالث ثانوي الفرع الأدبي وحلمها أن تصبح مدرِّسة فلسفة. بانتظار ذلك، يقترب شهر حزيران (يونيه) بخطى سريعة ويجرّ وراءه امتحانات شهادة البكالوريا الرسمية. تراجع مارين دروسها منذ أسابيع عدة من دون أي قلق. فقد كانت سنتها مُرضية جداً، بشهادة ملفٍّها المدرسي.

– إذن يا حبيبتي، أين أصبحت في مراجعتك؟ لا تنسي أنه لم يبقَ أمامك سوى عشرة أيام قبل بداية الامتحانات.

– أتقدّم بشكل جيّد، وسأنتهي في نهاية الأسبوع. سيكون لديّ يومان لأرتاح قليلاً!.

– ولكن لا تتعجّلي واتقني عملك، إذا احتجت إلى هذين اليومين لتنهي عملك فلا تتردّدي في استعمالهما. لديك شهران من العطلة لترتاحي. يُفترض بك أن تنجحي «من كل بد» في امتحان البكالوريا!

– أعلم ماما، لقد قلت لي ذلك أكثر من مليون مرّة! لا تقتصر الحياة على شهادة البكالوريا!

– كلا، لكنّ النجاح في الامتحان يحدّد نجاحك في الحياة.

– وكأنك تتكلّمين عن مفتاح السعادة! هل رأيت عدد العاطلين عن العمل من حملة شهادة البكالوريا؟ إذن، أرجوك، توقّفي عن إغداق نصائحك علي.

من قرّر؟

لأجل مَن يُفترض بمارين أن تنجح «من كل بد»، في امتحان البكالوريا؟ من أجلها هي أو من أجل والدتها؟ هنالك نقطتان هامتان في مطالبة هذه الأم القلقة على مستقبل ابنتها.

مَن الذي فرض ذلك؟ لا أحد! إنها سلطة مجهولة. واستخدام صيغة المجهول أمر عمليّ جداً بالنسبة للذي يستخدمها، لأنه ما من سبيل للاعتراض على شخص غير موجود، ولأن هذه الصيغة تحلّ مَن يستخدمها من أي مسؤولية. إنها الورقة التي نستعملها لعدم الالتزام (انظر الصيغ المرافقة لفعل وجب، ص152). لماذا لا تتكلّم والدة مارين بصيغة مباشرة فتحدّد رغباتها الشخصية؟ «أريدك أن تنجحي من كل بد في امتحان البكالوريا!» إنها تستعمل هذه العبارة كمن يضع على عينيه نظارتين سوداوين ليتخفّى ولا يعرفه أحد! إنها لا تتحمّل مسؤولية ما تطالب به ابنتها، بل تفوّض ذلك الفاعل المجهول ليتحمّل المسؤولية عنها. وبالاختباء وراء ذلك المجهول، تتفادى الأم أي نزاع محتمل مع ابنتها.

الأم الكاملة

بالنسبة إلى والدة مارين، النجاح في امتحانات البكالوريا هو غايةٌ بحدّ ذاته. وما يهمّها ليس ما تتعلّمه ابنتها أو المتعة التي تستمدّها من ذلك، بل الورقة التي ستنالها في النهاية. ما يهمّها هو رؤية كلمة «ناجحة» على شهادة ابنتها. والنجاح الذي تطالب به، من خلال عبارة «من كل بد» لا يقبل أي استثناء. يجب أن تنجح مارين بشكل قاطع وحتمي. وحقيقة الأمر هو أن هذه الأم تسحق ابنتها تحت شعورها بالدونية، إنها تصدر إليها أمراً بأن تكون كاملة،

فتحظّر عليها الحق بارتكاب الأخطاء. نجاح الابنة يجب أن يكون فقط في خدمة محو تفاهة الأم وقلّة أهميتها! إنه نجاح بالوكالة يجعل الأم بدورها أكثر من كاملة في أعين العالم أجمع.

إن استخدام كلمات مثل «من كل بد» و«قطعاً» و«حتماً» بشكل دائم يمكن أن يؤدّي إلى عواقب وخيمة مسيئة للصورة التي تكوّنها المراهِقة عن نفسها، لا سيّما عندما تواجه فشلاً معيّناً. فهي لن تعرف كيف تتعامل مع هذا الفشل أو تتقبّله أو تستوعبه فكيف لها بالحريّ أن تحوّله إلى نجاح؟ فتصبح عندئذٍ معرّضة لخطر فقدان احترامها لذاتها، ولن تكون أبداً الفتاة الكاملة التي تحلم بها أمّها.

لماذا تقلق والدة مارين لنجاح ابنتها؟ نتائج ابنتها لا تُنبىء بالفشل، لكنّها تتصرّف كما لو أنها كذلك... ما الذي يقلقها إلى هذا الحد؟ إنها تسعى بشكل لا واعٍ إلى الحلول مكان ابنتها لتستفيد من المكافأة التي سيمنحها إياها نجاح مارين في البكالوريا.

النجاح المطلق

ما هو النجاح المطلق؟ أهو نجاح لا تشوبه شائبة؟ قطعاً لا! فالفشل هو في جوهر النجاح. لقد مارست رياضة ركوب الخيل لسنوات عديدة. وعندما كنت صغيرة، كان مدرّبي يعيد عليّ في كل مرّة أن: «الفارس يجب أن يقع مئة مرة قبل أن يتعلّم ركوب الخيل!» لا أعرف كم مرّة سقطتُ، فقد ضعت في الحسابات ولكن الأمر المؤكد هو أن تلك الجملة دفعتني للمثابرة والتقدّم، وليس فقط في رياضة ركوب الخيل! لطالما انزعجت من فكرة الاستسلام، حتى في مواقف فشل يصعب تحمّلها.

البحث عن الكنز المفقود

هذا السعي إلى المطلَق، إلى الكمال، ليس سوى قناع كاذب، إنه الأمل في العثور على الكنز المفقود الذي لا يمكن لأحد أن يجده لأنه ببساطة كنز وهمي. إن فرض هذا على أولادكم يعطيهم علامة سيّئة حتى قبل أن يدخلوا اللعبة. سوف يصبحون عاجزين عن إرضاء أنفسهم، ويظلّون غير مكتفين بما يحققونه. برغبتكم في أن ينجحوا «من كل بد»، تعلّمونهم قياس المسافة قبل أن يبدأوا حتى باجتيازها. إنكم تعرّضونهم للإحباط والحرمان وعدم القدرة على تقدير ما لديهم.

اختيار الكلمات

هل نجاح أولادكم هو ما يهمّكم إلى هذا الحد؟ ستجيبون بالطبع: ما هذا السؤال! فإذا كانت تلك هي الحال، ألغوا كليّاً عبارات «من كل بد» و«حتماً» و«قطعاً» من قاموسكم وشجّعوا أولادكم على العمل بغض النظر عن النتيجة. فما يميّز المستقبل عن الماضي هو نوعية عملهم الآن وهنا. ما نفع الشهادة إن كانوا لا يعرفون كيف يبذلون أقصى ما لديهم في عملهم، أو إذا كانت لديهم صورة سيّئة عن أنفسهم أو إذا بدّدوا وقتهم في التفكير في مستقبل افتراضي بدلاً من بذل الجهد اللازم في الحاضر؟

كيف تتخلصون من سعيكم وراء الكمال؟ كونوا أنفسكم، احصلوا على عمل يشبهكم ولا تسعوا إلى الحصول على راتب أو مركز اجتماعي تفوح منه رائحة الزيف والخداع. «أن نعمل بما هو من طبيعتنا» هي الوسيلة المثالية للنجاح في الحياة المهنية. امنحوا أولادكم الحق في ارتكاب الخطأ وفي البدء من جديد، مرّة تلو مرّة،

قدر اللازم، وعلمّوهم قبل كل شيء أن يظلّوا متنبّهين للإشارات التي تظهر في طريقهم. فالقدر ينادينا بطرق مختلفة. والمشروع الذي يجد صعوبة كبيرة في أن يتحقق هو مشروع يحتاج ربما لأن تشيب له بعض الشعرات البيضاء ليبلغ هدفه.

الإشارة الخضراء هي باب يُفتح بالجهد أو بالتحدّي. الإشارة الحمراء هي قفل يستحيل فتحه، مهما تكن الجهود المبذولة..

«يبدو لي أن معظم أحزاننا ناجم عن توافر كلمات لوصفها»

أندريه موروا - غريزة السعادة

سَلِّم جدلًا، قَبِل، أَقَرَّ بـ

ما تسلّم به جدلاً تسمح به ولو على مضض. وما تسمح به على مضض تعجز عن احتماله.

«سأسلّم جدلاً أنه لم يكن لديك الوقت الكافي لدرس كل شيء»

من فوق قوس المحكمة، أصدر رئيس القضاة حكمه. هذا الأب قد نصّب نفسه قاضياً ومدّعياً عاماً وكذلك لجنة محلّفين تقرّر العقاب الذي يستحقّه التلميذ «الراسب». لقد نال جان علامة لاغية في امتحانه. لم يفهم شيئاً من تمرين الرياضيات الذي كان عليه أن يحلّه، والحقيقة تُقال إنه ليس مغرماً بالرياضيات. والد جان كاتب عدل «ضرب الغرور رأسه». هذا رأي الابن بوالده لكنّه لا يعبّر عنه بصوت عال. في الواقع إنه يحتقر الكاتب العدل هذا الذي يعتقد نفسه شخصية مهمّة والذي يمضي وقته بإعطاء الدروس للآخرين والتسليم بآرائهم أو برفضها. إن التسليم بالشيء أو القبول به على مضض أمر لا يمكن القبول به. إنه فعل يضع حدوداً، فعل يقيّد؛ فعلٌ يضع رقابة على العواطف، فعلٌ لا يتناغم مع كلمة حب. ستتقدّم في السن، وفي أحد الأيام، لن يقبل ابنك، الذي أصبح راشداً، أن تعكّر راحته بعد ذلك بنزواتك، أنت العجوز «الضعيف السقيم». سيجد لك مكاناً جيداً في أحد دور الراحة الفخمة، التي يُترك فيها الأعيان ليموتوا.

الحب استثمار على المدى البعيد، لا يقبل بأي تقييد أو حدود.

وذات يوم سيقول لك ابنك: «سأسلّم جدلاً بأنك ربّيتني لكنني أستنتج أيضاً أنك نسيت أن تحبني».

التعلّق

التعلّق حبّ مزيف واصطناعي

•

«هذا الطفل رائع، أنا متعلّقة جداً به!».

الولد الطفيلي

في سن الثالثة تقول الأم لزائرتها وهي تنظر إلى صغيرها بحب: «أنا متعلّقة جداً بهذا الصغير. إنه لطيف جداً، ثم إنه مطيع أيضاً».
في سن السابعة: «ضع وشاحك وإلاّ أتيتني من جديد مصاباً بالزكام!».
في سن الثامنة عشرة: «استمتع بوقتك يا حبيبي، خذ وقتك ولكن لا ترجع في وقت متأخر. أنت تعلم جيداً أنني لا أستطيع النوم طالما أنت خارج البيت!».
في سن الحادية والثلاثين، يحتجّ الوالد قائلاً: «لا أفهم لما يبقى ابننا قابعاً في غرفته. لقد تجاوز الحادية والثلاثين من عمره، أتعرفين معنى ذلك؟ أنا، في سنّه...» من دون تعليق!

الوالد (أو الوالدة) الذي يذيب شخصية ابنه في شخصيته، يتسبّب بتكوين شخصية طفيلية لدى ولده في سن الرشد، فتكون طريقة تفكير الابن وتصرّفه نتيجة الحماية التي تحيطه بها أمّه والفخر الذي يشعر به والده لنجاحه في الدراسة أو في الرياضة، فيبقى ملتصقاً بالمنزل الوالدي ويتلاعب بمشاعر والديه. ويصبح شعورهما بالذنب ملعبه المفضَّل. لقد ربّيا جوهرة نادرة تعلّقا بها تعلّقاً شديداً فكيف يمكنهما أن يفكّرا في الانفصال عنه؟ يتشبث الولد الطفيلي بهذا الحب الحصري من قِبَل والديه ويصبح الولد الوحيد والأمير الصغير لدى والدين طفوليين يعيشان طفولتهما الدائمة من خلاله.

وهما أشبه ما يكونان بدميتين تلعبان لعبة الأم والأب اللطيفين الحاضرين دائماً بكامل جهوزيتهما لتلبية رغبات ولد يتلاعب بهما بلطف ويحظى بحبّهما دون سواه.

الولد الطفيلي هو نتاج والدين يذيبان شخصية ولدهما بشخصيتهما و/أو والدين يحيطان ولدهما بحماية مفرطة. وكثيراً ما يكون هذا الولد ضحية ضغطين أو واجبين: «استمتع بوقتك يا حبيبي، خذ وقتك ولكن لا ترجع في وقت متأخّر. تعلم جيداً أنني لا أستطيع أن أنام طالما أنت خارج البيت!» هذا الضغط المزدوج يجعله يضيع في الكسل والخمول. ومع الوقت يتعلّم شيئاً فشيئاً أن يتظاهر بما ليس فيه. يتظاهر بالطاعة، بالحب، وبالسعادة لوجوده مع أبيه وأمه.

اختيار الكلمات

إن الطفل الذي يتعلّق به أهله حتى العبادة ليس سوى مشروع طاغية. فالطفل الطفيلي هو طفل ملك يقوم دورُه الرئيسي على إرضاء الصورة المثالية التي يشكّلها والداه عنه. فإذا حدث وقلتم لطفلكم إنكم متعلقون جداً به لدرجة العبادة، لأنه رائع، أصلحوا الضرر بسرعة وأضيفوا قائلين: «هو رائع عندما يريد ذلك!» لأن الطفل الرائع يحب أن يُقال له إنه رائع. وكلّما تكرّر ذلك ازدادت سلطته على والديه، فكيف يمكن لهما أن يعاقبا طفلاً مثالياً؟

العبادة، العشق

تقول إحدى العجائز العوانس بابتسامةٍ ساحرةٍ لئيمة:
«أعبد الأطفال»

اطمئنوا، فليس لجميع النساء اللواتي يعبدن الأطفال هذه الابتسامة الغريبة! ولكنهنّ أشبه بأكلة لحوم البشر، فلا تعهدوا إليهن أبداً برعاية ابنكم أو ابنتكم!

العبادة تعني الحب بشغف. والشغف أو الوله أو الولع لا يمكن التعويل عليه كثيراً. فهو غالباً ما يولّد كرهاً عنيداً لا يستطيع ولدكم أن يحمي نفسه منه. العبّاد أشخاص مجانين وهستيريّون يتعبّدون لذواتهم وليس للشخص الذي يخصّونه بالعبادة. والمرأة التي تعبد الأطفال هي في داخلها غول شره.

إنها تقتات وتغتذي من اتصالها بملاككم الصغير، لكنّها ستعذّبه أشد العذاب إن أبدى أقل نزوة.. هي تتمتع بمواهب جلّاد معذِّب لا يمكنكم تصوّرها. إذا كنتم تبحثون عن مربية لطفلكم الصغير، انتبهوا جيداً لما تقوله. فإذا أكّدت لكم أنها «تعبد الأطفال»، ستعلمون أنكم أمام غول شره.

تابعوا طريقكم من دون أن تلتفتوا إلى الوراء!

العمر، السنّ

«أنا، في سنِّك...!».

يكتب طوم (7 سنوات) فروض العطلة على طاولة الحديقة في ظلّ شجرة صنوبر. وعلى مسافة قريبة منه، يعمل والده في الحديقة، وتشذّب والدته شجيرات الورد، فيما يقرأ جدّه وجدّته كتابيهما باهتمام شديد، ممدَّدين في كرسيهما الطويلين. ينكب طوم على تمارين الخَط تحت نظر جدّه الذي يلقي عليه بين الحين والآخر نظرة حنونة من فوق نظّارتيه. تتدخّل أمه قائلة: «طوم، أين أصبحت؟

– كدت أنتهي، مام!

– أنا، في سنّك، لم أكن أستغرق كل هذا الوقت لكتابة صفحة واحدة! وكان خطّي أوضح من خطّك.

تقول كل ذلك بنبرة استخفاف وازدراء، وهي تلقي بنظرة استياء على عمل ابنها.

فتتدخل الجدة عندئذٍ قائلة:

– أنت فتاة يا حبيبتي، والفتيات يكبرن قبل الصبيان.

– بعد أن تنتهي من فروضك، اقرأ قليلاً يا طوم.

– حسناً ماما، يجيب الصبي الصغير وقد خاب ظنه.

– هل تريد أن نقوم بذلك معاً، طوم؟ سأله جدّه.

– آه، قال الولد كما لو أنه أُنقذ من الغرق، أجل يا جدّي!»

جلس طوم قرب جدّه وراح يقرأ قصّته بصوت عال.

– هذا جيّد يا طوم، إنك تتدبّر أمرك بشكل جيد. ولكن هل تحب القراءة على الأقل؟

– أجل، جدّي، أحب القراءة!

– أتعلم يا بنيّ أني عندما كنت في سنّك كنت أحب كثيراً القراءة وتأليف القصّص بنفسي؟ كانت الأفكار تخطر لي من دون أي

جهد! وعندما أصبحت أجيد الكتابة، كتبت الكثير من القصص! كانت الأوراق تنتشر في جميع أنحاء غرفتي. وكانت أمي توبّخني كثيراً بسبب هذه الفوضى. كان يمكن أن أصبح كاتباً، لو أردت!

- ولماذا لست كاتباً إذن؟

- أنت تعلم يا طوم، في الحياة، لا نفعل دائماً ما نريده!

هذا التصرّف الكلاسيكي يكشف عن أنانية عنيدة، فعبارة «أنا، في سنّك» تعبّر عن وضع الشخص الذي يلعب بذكريات الآخرين فيقفز فوقها ويستبدلها بذكرياته الخاصة. إنه أمر منطقي: فهنا على الأقل يحسّ بأن الأمر يخصّه ويهمّه ويعنيه. يعنيه لدرجة أنه يصبح غير قادر على الإصغاء للآخرين. الأب (أو الأم) الذي يتلذّذ باستخدام هذه العبارة يسعى إلى إبراز نفسه، لكي ينسى أحلام المجد التي لم يحقّقها فالذكريات تكون أجمل عندما نعود إليها بعد حين. وعلى كل حال، لا يستطيع أحد التأكّد من صحّتها. هذه الفوقية مختلقة ومتصنّعة، تهدف إلى تخليص الأب (أو الأم) من المرارة التي يشعر بها حيال حياة كان يتمنى أن تكون مختلفة عمّا هي عليه.

المقارنة لا تثبت شيئاً

هذه المقارنة بين الولد ووالده (أو والدته) تضعف ثقة الطفل بنفسه وتحطّ من قدره وتولّد في نفسه شعوراً بعدم الكفاءة. فعندما يغرس الأهل في ذهن ولدهم هذه الآلية القائمة على المقارنة: «إنه أفضل مني»، تصبح هذه الآلية في ما بعد الوقود المحرّك لعقدة الدونية عند الولد.

إن تكرار عبارة «أنا، في سنّك. .» على مسمع الولد يُلبِسه صفة الخاسر. كما أن مقارنة مؤهلاته ومعرفته ومهارته وذكائه. . . باستمرار، يعني أننا نحدّد وجوده، بشكل رئيسي، بالمقارنة مع الآخرين حتى وإن كانت النبرة المُستخدمة في الكلام نبرة لطيفة حنونة: «أنا، في سنك، كنت أحب كثيراً القراءة وتأليف القصص. ولو أردت لكان بإمكاني أن أصبح كاتباً!»

زمن الندامة والتحسّر يوصل إلى الفشل. إذا كان لم يصبح كاتباً، فذلك لأنه لم يكن على الأرجح مقتنعاً وواثقاً بما فيه الكفاية لكي يحقّق حلمه. ففي نهاية المطاف، الموهبة وحدها لا تصنع الفنان.

هل نكون على طبيعتنا أم نتظاهر بما لسنا عليه؟

قرّروا موقفكم. إذا أردتم أن يحقّق ولدكم ذاته وأن يشعر بالراحة مع نفسه، فلا تعيقوا استعداداته الشخصية بالإفراط في المقارنات. والداه هما مرجعيته المطلقة. لا تُخضعوه لما أخضعكم له والداكم. المقارنة هي وليدة التشكيك.

أَحَبَّ لو...

نحن لا نتعلم الحب بل نعمل لنستحقه.

«كم أُحبَّ لو تنجح»

الحب المشروط

إن استخدام «لو» يبعث برسالة ضمنية وهي رفض منح الثقة للولد، الأمر الذي يعيق النجاح المنتظر منه. لكنّ الجرثومة لا تكمن هنا، بل في «أحبّ لو». فأحبّ لو لا يعني أحبّ. «أحبّ لو» عبارة أقل انفعالاً وعاطفة من «أحب». إنه حب باهت، فاتر وعديم الطعم كطعام المرضى. ما أحبّ أن يحصل هو ما لا أحبّه كما يجب أو ما أحبه بصورة مشروطة. تصوّروا أن تقولوا عن ولدكم مثلاً: «أحبّ ابني، لو أنه كذا...!» ألا يصدمكم ذلك؟ كيف يمكننا أن نحب أولادنا بهذا الشكل المشروط؟

الأم «المثالية»

أذكر أمّاً عجوزاً أجرى معها مراسلون من نشرة الأخبار المتلفزة مقابلة بشأن ابنها الذي أوقفته الشرطة بتهمة اغتصاب قاصر. لم تفهم الأم لماذا ارتكب ابنها مثل هذه الفعلة الشنيعة بعد كل التضحيات التي قدّمتها في تربيته. ثم قالت وكأنّها تتكلّم عن هزّها «لكنني كنت أحبه. لقد أعطيته كل الحب الذي يمكن لولد أن يطلبه» (كما لو أن حبها له انتهى بفعلته هذه). كانت نظرة تلك الأم العجوز المغتاظة باردة كالجليد. نظرة تخلو من الحنان في حدقتين ضيّقتين كثقب إبرة... نظرة خالية من الرحمة والرأفة.

اختيار الكلمات

قولوا لولدكم: «أعلم أن باستطاعتك أن تنجح. إني أثق بك. أريدك أن تحقّق أكثر مما حقّقته أنا، أن تستمتع وتعطي كل ما لديك في مهنة تشبهك؛ أريدك أن تكون سعيداً بالعمل الذي تقوم به». ثم أعطوه الوقت الكافي ليفكّر في الجملة الأخيرة. فعندما نستمتع في عملنا نصبح نجوماً في حياتنا الخاصة.

«اعمَل ما تحب وأَحِب ما تعمل» هي برأيي وصفة سحرية. هل من وسيلة أكثر روعة ليكسب المرء رزقه من أن يستمتع بممارسة مهنته؟ إذا كان ذلك لا ينطبق عليكم، فربما لأنه لم تتسنَ لكم الفرصة لتفعلوا ما تحبّونه فعلاً فلماذا إذن لا تمنحون ولدكم فرصةً ليحقّق ذاته؟ لا تقرنوا أبداً آمالكم كآباء بـ«لو» الشرطية.

«أحبّكم جميعكم سواسية»

إن القول لأولادنا بأننا نحبّهم جميعهم سواسية هو كذبة تُطَمْئِن الوالدين لكنّها لا تنطلي على الأولاد، حتى وإن كان يخيَّل للوالدين أنهما ربّيا أولادهما بالطريقة نفسها. فهنالك دائماً أولاد مفضَّلون وأولاد ينقصهم الحنان.

هكذا، فإن الفتاة الجميلة تتقدّم دائماً على الفتاة «الذكية»، حتى وإن كانت تميل إلى اكتساب بضعة كيلوغرامات زائدة. والتفضيل يؤدّي إلى نشوء الاختلاف (انظر فضًل، ص251). ويمكن لهذا التفضيل أن يولّد كرهاً شديداً بين الإخوة بسبب تلك العبارة الخادعة: «أحبّكم جميعاً سواسية...». كان بإمكانكم أن تقولوا لهم فقط: «أحبّكم جميعاً» لتشعروهم بالسعادة.

ما زال يحب

«بالطبع «ما زلت» أحبّك، ولكن يجب أن أعتني بأخيك الصغير»

الأم «القاتلة» امرأة تضحّي بفلذة كبدها انتقاماً من الوالد الذي تشعر حياله بنفور شديد! إنها تثأر لنفسها لأنها تُعتبر مجرد رحم لإنجاب الأولاد ووسيلة للمتعة، في إطار عائلي يخضع لسلطة الزوج «الكلي القدرة» من دون أي مجال للنقاش أو الاعتراض.

الأم مصدر حياة أو موت بالنسبة إلى ولدها وهي لا تتورّع عن إعلامه ضمنياً بذلك، كأن تحرمه مثلاً من الحب لمعاقبته. هذا الموقف الذي تنتهجه الأم لا يبدو مؤذياً في ظاهره لكنّه في الحقيقة شكل من أشكال القتل، إذ يقضي على ذلك الرابط السرمدي الذي يربط الأم بثمرة أحشائها. فهنالك ألف طريقة وطريقة «نقتل» بها أولادنا.

بعد مدّة طويلة، عندما يكبر ولد الأم القاتلة ويندمج في النسيج الاجتماعي، يصبح هذا الشخص بسبب حرمانه من الحب، فظاً وشريراً وعنيفاً رغماً عنه فتتركه زوجته، أو يصرفه رئيسه من العمل، أو تعاقبه السلطات العامة. كما أن هذا الشخص يميل للانتحار علّه يُمنح في جنّة الله الحب الذي حُرم منه على هذه الأرض. وإنّي لمتأكّد من أنّ أيّاً من الذين ينتحرون لم يعش يوماً في ظل والدين يحترمانه ويحبّانه بما يكفي. فأنا لا أعرف شخصاً واحداً في هذه الدنيا يستعجل الموت وهو يتمتّع بالمشاعر الضرورية لتأمين السعادة.

اختيار الكلمات

امتنعوا عن اللجوء إلى تهديد أولادكم بالتوقف عن حبّهم،

بهدف معاقبتهم، حتى وإن كان ذلك من باب المزاح. فالمشاعر التي تربطكم بفلذة كبدكم هي مشاعر مقدّسة. صحيح أنه لا يستطيع أحد أن يجبرك كأم على حب ولد فُرض عليك فرضاً نتيجة اغتصاب أو علاقة جنسية قسرية في علاقة زوجية مزيّفة وباردة. لكنّ هذا الطفل الذي خرج من أحشائك لم يطلب أن يولد. وإذا تركته يبصر النور بالرغم من كل شيء، فقد يعود ذلك إلى أنه لم يكن لديك الخيار أو لأنك كنت تأملين بأن الأمور ستتغيّر مع مجيئه. ولكنّ شيئاً لم يتغيّر في الظاهر، باستثناء أن مصير إنسان أصبح بين يديك، فإذا منحته الحب دون قيد أو شرط عاش حياة بنّاءة وبادلك الحب أضعاف. أمّا إذا حرمته من هذا الحب أو كبّلته بشروط مقيِّدة («إذا لم تكن عاقلاً، فلن أحبك بعد الآن») فسيحيا حياة مدمِّرة تدفعين أنت ثمنها طوال حياتك. يبدو لي أن الخيار سهل.

أحبك أكثر هكذا

«أحبك بهذا الفستان أكثر مما أحبّك بالجينز!»

في هذا اليوم المشرق، اصطحبت ماري ابنتها فانيسّا للتسوّق فهي تحتاج إلى فساتين جديدة للاحتفال بعيد ميلادها في عطلة نهاية الأسبوع. وجلسات تجريب الملابس بين الأم وابنتها ترتدي دائماً الطابع التقليدي.

- أيها تفضّلين، ماما؟

- يصعب الاختيار هكذا، فجميعها رائعة. ارتديها لأرى أي فستان أحبك فيه أكثر!

- إذاً، ما رأيك؟

- لا بأس على الإطلاق! جرّبي الفساتين الأخرى.

- أمّي، هل تحبّيني أكثر في هذا الفستان أو في الآخر؟

- هذا الفستان رائع. كم يختلف عن بنطلون الجينز العتيق الذي لا تخلعينه أبداً! تبدين مختلفة تماماً. انظري إلى نفسك في المرآة، يا للأناقة!

تكتب كريستيان أوليفييه فتقول: «. . . كما لو أن الفتاة كانت مقتنعة بأن جسدها لا يمكن أن يكون موضع رغبة بحدّ ذاته». إنها تعتبر نفسها شيئاً أو سلعة تستهلكها أمّها. «أحبّك أكثر» توازي «لا أحبك كفاية».

عندما تجيب الأم قائلة: «أحبّك بهذا الفستان أكثر من الجينز»، فإن براءة الإجابة تخفي الوجه السامّ الذي يختبىء في كواليس هذه الجملة، ألا وهو «أحبّك أقل بالجينز». هل يمكننا قياس مقدار الحب أو نوعيته بقطعة من الثياب؟ قد يؤدّي ذلك إلى فكرة سيّئة مكبوتة: «أمي لا تحبّني إذا كنت أرتدي ثياباً غير أنيقة».

اختيار الكلمات

يمكنكم القول: «أجد أن هذا الفستان لائق عليك أكثر من الجينز». فيجب عدم ربط الحب بالمظهر، مهما تكن الظروف. «أحب هذا الفستان عليك، وليس أحبك أنت أكثر أو أقلّ بهذا الفستان». فالفارق شاسع من حيث دلالات الألفاظ وواضح كالشمس. إن استخدام الكلمات السامة يسري «بالوراثة»، فلا بد أنكم سمعتم الجملة الجارحة مئات المرّات من دون أن تعيروها أدنى اهتمام فتردّدونها من دون أي سوء نيّة. لكنّ الأذى الذي تلحقونه بولدكم بسبب هذا الخطاب الملوَّث هو مضرّ بقدر ملاحظة جارحة توجَّه إلى فتاة تعاني من زيادة في الوزن: «توقّفي عن أكل السكاكر! لا أحبّك عندما تكونين سمينة هكذا». ليس هذا بالضرورة الدواء الأمثل لتحفيزها لكي تخفّف وزنها، فلا فارق يُذكر من حيث الدلالات اللفظية بين الجملتين: «أحبك أكثر...» و«لا أحبّك...». جملتان تعبّران عن حب ضعيف هزيل.

البكر، الولد الأكبر

«أنت البكر، يجب أن تكون القدوة لإخوتك»

– طوماس، حان وقت النوم. البس أنت وأخوك ثياب النوم واذهبا لتنظيف أسنانكما.

– أريد أن ألعب قليلاً بعد، يا ماما!

– كلا يا حبيبي، لقد تأخّر الوقت، وغداً يجب أن تنهض باكراً للذهاب إلى المدرسة. أين أخوك؟

– في الحمّام!

– اذهب إليه ونظّف أسنانك!

– ليس الآن!

– طوماس، لقد شرحت لك لماذا لا أريد إعطاءك مزيداً من الوقت! إضافة إلى أنك تعلم جيداً أنك الأكبر ويجب أن تكون القدوة.

مسؤولية لعينة

التضحية التي تُطلب من البكر حيال إخوته وخصوصاً الأصغر في العائلة تولّد استياءً ومشاكل لدى الولد البكر، إذ تُفرض عليه مسؤولية شبه أبوية لم يطلب تحمّلها، فيجعل منه الوالدان بديلاً للأب أو للأم من دون طلب رأيه. وكثيراً ما يغيب عن بالهما أن البكر هو أيضاً أحد أولاد العائلة وليس حاضنة جيدة لمراقبة الصغار. هذه المسؤولية غالباً ما تترافق مع الشعور بالذنب، وهو شعور لن يتمكّن أبداً من التخلّص منه. يدفع الوالدان ابنهما بهذا التصرّف إلى الهاوية. فهل تعلمون أن 63٪ من بنات الهوى هن بكر أخوتهن وأخواتهن، وكان عليهنّ الاهتمام بهم في طفولتهنّ فأدّى شعورهنّ

بالذنب إلى خروجهن عن الصراط المستقيم؟ كما أنّ التضحية بتعليم البكر (عدم تعليمه) في سبيل السماح للأولاد الآخرين بمتابعة دراستهم هي عادة قديمة في أريافنا.

وما زالت الفتاة البكر في بعض الأوسط الفقيرة تتعرّض للاستعباد العائلي: فهي خادمة إخوتها وأخواتها وأحياناً تحلّ مكان والدتها. ولكن ما لا يعرفه الوالدان هو أنهما بهذه الطريقة يدمّران العائلة التي بنياها ويكون البكر في هذه الحالة هو الصاعق المفجِّر. فكونه لم يحظَ بالتقدير اللازم، يبثّ البكر شعوره بعدم تقديره لذاته في إخوته، فيصبح قدوة «سيئة». وهكذا يكون البكر في أساس تفتّت العائلة. فيتجنّب الإخوة والأخوات رؤية بعضهم البعض أو يختارون العيش في أماكن بعيدة جداً عن بعضهم البعض لكي لا يضطروا إلى الالتقاء أو المواجهة.

اختيار الكلمات

لا تطلبوا أبداً من ولدكم البكر أن يكون القدوة والمثال لإخوته ولكن تكلّموا عنه متخذين إياه كمثال كلّما استحقّ ذلك. فكلّما كافأتموه وأثنيتم عليه، شعر بارتفاع قدره في أعين إخوته وأخواته، علماً بأن وضعه كبكر يجعله قائدهم. والولد الذي يُعطى اعتباراً وتقديراً يعجز عن إعطاء المثال السيّئ.

يمكنكم الطلب من البكر أن يشارك أخاه الأصغر في ما يعرفه: «إذا أردت، يمكنك أن تشرح لأخيك كيف يقوم بذلك، فأنت تقوم به بشكل رائع!»

من الضروري أن يحظى البكر باحترام إخوته وأخواته. إنه الشرط الموجب لتحقيق الترابط العائلي.

في النهاية.

«هل ستتوقّف في النهاية عن إزعاج أختك الصغيرة؟»

لماذا يتوقف سدريك قبل «النهاية» عن مضايقة هذه الأخت الصغيرة التي جاءت لتسرق منه حب أمّه؟ إنه ولد مطيع، فأمّه قد قالت إنه يجب أن يتوقّف «في النهاية» وليس الآن. مثل جميع الأطفال في سن الثالثة، سدريك فتى منطقي جداً.

إذا طرحتم عليه السؤال: «هل يمكنك أن تقول لنا ما اسمك؟»، سيجيب بـ«نعم» ليس أكثر. أجل، يمكنه أن يقول لكم اسمه. إنه لا يفسّر أو يُؤَوّل سؤالكم، بل يجيب عنه بكل منطق. سيكون سدريك في المستقبل عالِماً كأبيه. وإذا أخذت أمه الوقت اللازم لتصغي إلى ما تقوله بدلاً من أن تردّد تلك الجملة الصغيرة للمرّة الألف، فقد تفهم ما الجرثومة اللغوية في كلامها. لا يستطيع سدريك أن يتوقّف فوراً عن مضايقة أخته، لأن أمه تقول له أن يتوقّف في النهاية. سدريك هو «في النهاية» فتى ذكي ومطيع!

سوف، سـ، التسويف

الحلم أسهل من العمل، والتمني أسهل من الإرادة، وقطع الوعود أسهل من الإيفاء بها.

«سوف» هي الكلمة المفضّلة عند الأشخاص الذين يؤجّلون دائماً إلى الغد ما كان عليهم أن يقوموا به البارحة. ويمكن تلخيص مبادئهم الأساسية بعبارة «المهمّ هي النيّة!». هم يرجئون كل شيء ويعيشون في عالم النوايا لا العمل. إهمالهم المطلق يعيق كل تقدّم أو تطوّر لديهم ويوقعهم في الركود والخمول. كثيراً ما يكون هؤلاء الأشخاص حالمين من الطراز الرفيع، نالوا الميدالية الذهبية في الكسل. الإرجائية ليست جرثومة نلتقطها صدفة من الأشخاص الذين نلتقيهم في المدرسة، إنما هي نتيجة التربية التي نتلقّاها في أسرتنا. وأياً يكن مصدر هذه العادة المشتقّة من الإهمال، فإن الاستخدام المكثَّف لـ«سوف» هو من أبرز العوامل المؤدِية إلى اكتسابها.

سوف يقول

«سوف أقول لك ماذا يجب أن تفعل...»

إنها جملة تُستخدم فيها «سوف» بشكل مثير للاهتمام. فالأب (أو الأم) الذي يضع «سوف» قبل فعل القول لا يقول أبداً ما يفكّر فيه ولا يفكّر في ما يقول. ليس لديه في الواقع ما يقوله سوى ملء الفراغ بين «سوف» و«أقول». هل يحتاج فعلاً للتسويف لقول ما يريد قوله أو أن قوله لا يحتاج إلى التسويف؟ فكّروا جيّداً في هذه اللعبة الكلامية وستفهمون لماذا الذين «سوف» يقولون، يبقون في مكانهم طوال حياتهم، ولكثرة ما يتكلّمون عمّا سوف يفعلون، ينسون دائماً القيام به.

اختيار الكلمات

من الأجدى أن تغضّوا الطرف عمّا كنتم «سوف» تقولونه لولدكم أو أن تعيدوا صياغته مع إلغاء «سوف» التي تجعل منكم شخصاً خبيراً بالإرجاء والتأجيل. أمّا فعل «قال» فيشير إلى قلّة الحزم والتصميم ويقلّل من فعالية كلامكم. بما أنكم تقولون ما تقولون فلا فائدة من إرفاق عملكم بفعل «القول». يكفي أن تقولوا: «الذي ما أقترحه عليك بخصوص ما يجب أن تفعله». فهذه صيغة استراتيجية يمكنكم أن تحمّلوها رأيكم مع إعطاء حرّية القرار لولدكم. هكذا تتعاملون مع ولدكم من الند إلى الند وليس من الأب السيد إلى الولد التابع! وهذه الطريقة تعطي نتائج أفضل!

سوف أضربك

«سوف أضربك»

– كريستوف، هلاّ خلعت ملابسك واستحممت من فضلك!
– بعد العشاء، ماما!
– كلا يا كريستوف، لديك مدرسة غداً، وأريدك أن تنام باكراً، فخذ حمّامك الآن.
– لا أرغب في ذلك ماما!
– لا يهمني إذا كنت ترغب في ذلك أم لا، إني أطلب منك أن تستحمّ على الفور! إخلع ملابسك من فضلك، لا أريد أن أسمعك تتذمّر!»
بعد نوبة من الغضب الشديد والكثير من التذمّر وإضاعة الوقت، خلع كريستوف ثيابه وبعثرها في أرجاء الحمّام.
– كريستوف، لقد قلت لك ألف مرّة ألاّ ترمي ثيابك على الأرض. التقطها من فضلك!
– أجل ماما، أجاب الولد الصغير، ومن دون إعارة أي انتباه لما طلبته منه أمه، نزل مباشرة في المغطس.
– إنك تبحث فعلاً عن المتاعب يا ولد! إذا استمرّيت في تجاهل ما أطلبه منك، «سوف تتلقّى صفعة قويّة على قفاك»!
– كلا، لا أريد!، أجاب الفتى الصغير، الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره.

لعب الولد في المغطس بألعابه البلاستيكية، ثم خطرت له فكرة «عبقرية» التمعت لها عيناه، وهي أن يتزحلق على حافة المغطس المائلة. تسلّى كالمجنون وفي وقت قياسي تحوّل الحمّام إلى مستنقع.
– كريستوف، توقّف في الحال! أنظر إلى حالة الحمّام! لم تترك

حماقة تعتب عليك هذا المساء! إذا استمرّيت على هذا النحو «فسوف» تحصل على صفعة من العيار الثقيل، هذا كل ما تستحقّه! إضافة إلى أن ما تفعله خطر، قد تزلّ قدمك فتُصاب برضوض مؤلمة جداً. «سوف» تتلقّى صفعة شديدة على قفاك قبل نهاية السهرة، هذا كل ما سترجحه!»

•«سوف» أو السلطة الضائعة

«سوف» هي، كما ذكرت، الكلمة المفتاح للتأجيل والإرجاء. إنها ترمز إلى تأجيل ما يمكن القيام به في الحال إلى أجل غير مسمّى. وطفلكم قد فهم تماماً الفارق بين ما تهددون بفعله وما تودّون فعله حقاً، لذلك لا تنجحون في الحصول منه على ما تريدون. ينتظر الولد الصفعة التي وعدتموه بها، لكنّ الصفعة لا تأتي. وهي لا تأتي أبداً عندما تهدّدون بأنكم «سوف» تسدّدونها إليه. قد تجيبون أنكم في الواقع لا ترغبون إطلاقاً في ضربه؛ وأنكم لا تريدون أن تستاءوا وتغضبوا فذلك يزعجكم؛ وأن تهديدكم هو تهديد شكلي فقط. يمكننا تفهّم هذا الموقف من حيث أن دور الأم دقيق جداً عندما يتعلّق الأمر بجعل أولادها يحترمون سلطتها. ولهذا السبب تلجأ الأمهات، رغماً عنهن، إلى كلمة «سوف»! أمّا وجهة نظر الولد فمختلفة كليّاً. إنه يفهم فقط أن أمه لا تنوي ضربه، وبشكل أدقّ أن نيتها ليست سوى خطّة لن تنفذها. لقد فهم جيداً أن كل مرّة تقول فيها أمه: «سوف أضربك»، لا يوجد خطر فوري يتهدّده. فلماذا إذن يهتم بتغيير طريقة تصرّفه إذا كان العقاب يؤجَّل دائماً إلى أجل غير مسمّى؟

عند استخدامكم عبارة «سوف» لفرض سلطتكم على ولدكم أو لفرض طاعة فورية من قِبله، فإنكم تحضّونه ـ رغماً عنكم ـ على

تأخير القيام بالتصرّف الملائم، إذ تؤجّلون العقاب الذي أعلنتم عنه.

اختيار الكلمات

إن كسر حلقة التهديدات المفرغة أمام عصيان الولد ومخالفته لإرادة الأهل يبدأ بإدراك هؤلاء لمعاني الكلمات التي يتلفظون بها. ويقوم التغيير الأساسي على إلغاء عبارة «سوف» نهائياً واستبدالها بجملة واضحة وحازمة: «تأخذ حمّامك فوراً وإلاّ ضربتُك على قفاك!» ولا تنسوا أن تنفّذوا تهديدكم إذا استمرّ الولد في عناده. سيفهم بسرعة مضامين كلامكم وعواقبه. وبإلغاء عبارة «سوف» من كلامكم، تزيدون من مصداقيتكم، وتساعدون الولد على تحديد مصدر السلطة في الأسرة بشكل واضح لا لبس فيه. وحتى وإن سعى مرّة أخرى إلى امتحانكم، فسيتعلّم تحمّل مسؤولياته وعواقبها. وستجدون أنه يطيع بشكلٍ أسرع بعد ذلك، حتى إن لم يطع دائماً من المرّة الأولى. وستخفّ النزاعات من تلقاء نفسها، لأن ولدكم سيفهم أنكم أنتم السلطة في المنزل، وعليه احترامكم وإطاعتكم.

سوف نحاول، سوف نجرّب

«سوف (أو عليك أن) تحاول تدبّر الأمر»

- «أدريان، هل راجعتَ الدروس التي فاتتك أثناء غيابك عن المدرسة؟
- كلا، ماما، ليس بعد.
- قل لي يا أدريان، كيف تنوي النجاح في امتحانات آخر السنة؟ «يجب أن تحاول تدبّر الأمر» هذه السنة، وإلاّ فإنك تعلم جيداً أننا لن نستطيع إبقاءك في هذه المدرسة! لن يكون أمامك حل سوى المدرسة الداخلية!
- أعلم ماما، سوف «أحاول تدبّر الأمر» بالعمل أكثر، أعدك بذلك!».

كيف ننجح في أن نفشل؟

المحاولة تعني الفشل والرسوب! «حاول» فعل يقتل أي أمل ولو ضعيف «بتدبّر الأمر» والخروج من المأزق، فبغضّ النظر عن عبارة «سوف» التي تدفع كافة النوايا الحسنة باتجاه مستقبل مخيّب للأمل، هنالك عبارة «تدبّر الأمر» أو «الخروج من المأزق» التي تشكّل اعترافاً بعدم مساعدة الولد الذي يمرّ في وضع صعب وتشير إلى عدم بذل أي جهد من قبل الأب (أو الأم) لمعاونة ولده في هذه المحنة. وفي هذه الحال لن يستطيع الولد الاعتماد إلاّ على نفسه.

الولد سرّ أبيه

لا تهرعوا لتأنيب ولدكم وتوبيخه بل فكّروا أوّلاً في مسؤوليتكم الشخصية في المسألة التي تقلقكم، فكم من مرّة قلتم

انر بحكم: «سوف أحاول شراء الحاجيات قبل إقفال السوبرماركت» أو «سوف أحاول العودة إلى البيت باكراً هذا المساء»؟ لا بد أنكم ردّدتم ذلك كثيراً. وبالطبع، يمكنكم أن تحاولوا وتفشلوا، فلا عاقبة خطيرة لذلك. ففي النهاية، هنالك دائماً بعض المعلّبات في الخزانة «لتدبّر الأمر»، أليس كذلك!

«يجب أن تحاول تدبّر أمرك، أو الخروج من المأزق، هذه السنة، وإلاّ...» هذا التهديد شائع أكثر مما يمكنكم أن تتصوّروا! المشكلة هي أن هذه الجملة التي تردَّد عشرات المرّات في مواقف الضغط النفسي المتعلقة بالمدرسة، قد تنطبع عميقاً في تصرّفات ولدكم. صحيح أنه سيحاول تدبّر أمره لكنّه سيفشل بالتأكيد. فالتهديد ليس الطريقة الملائمة لحل المشكلة. فما هي إذن الطريقة المناسبة؟

اختيار الكلمات

يمكنكم أن تستفيدوا من لعبة الأدوار! اقترحوا مثلاً على ولدكم إجراء مناقشة صريحة بين أب وابنة أو بين أم وابنتها، فيلعب هو دور الأب وتلعبون أنتم دور الابن. حدّدوا مدّة معينة للعبة من أجل ممارسة الضغط عليه: ربع ساعة مثلاً لإنهاكه. إذا انغلق في صمت مطبق، خفضّوا المدة إلى ثلاث دقائق قبل الانطلاق بقوة من جديد. المهم هو أن يتوصّل تدريجياً إلى وضع نفسه مكانكم، مع المحافظة على مكانه.

ولكن، ابتعدوا رجاءً عن تعابير «سوف» و«محاولة». تذكّروا أنّ: «سوف» هي مرادف للركود وعدم التقدم؛ و«المحاولة» مرادف للفشل؛ و«الخروج من المأزق» أو «تدبّر الأمر» مرادف لرفضكم الاشتراك في حل المشكلة.

سوف أفعل

«قلت لك إنني سأفعل ذلك!»

– جاك، عندما يتسنّى لك الوقت، هل تستطيع فكّ سرير الصغيرة ووضعه في العليّة لكي أتمكّن من ترتيب غرفتها الجديدة؟

– طبعاً، هل لديك مانع إذا فعلت ذلك خلال النهار؟

– لا بأس، الأمر ليس طارئاً!

بعد يومين تقول له زوجته قلقة:

– هل تنوي فك سرير الصغيرة؟

– أعذريني، لقد نسيت كليّاً! سأفعل ذلك فوراً.

بعد ذلك بثلاثة أيام، سأل جاك زوجته مندهشاً:

– ماذا تفعلين؟

– كما ترى، أفكّ السرير!

– ولكن قلت لك إنني سأقوم بذلك!

– هذا صحيح، ولكنني طلبت مساعدتك منذ أسبوع ولم يتم ذلك بعد! لن أنتظر حتى تصبح الفتاة في سن لن تعود معها الغرفة مناسبة لها!

تأجيل فتأجيل!

تُعتبر صيغة «قلت لك إنني سأقوم بذلك» من الأعراض الأساسية لمرض التأجيل الدائم وهذا ما سندرسه الآن عن كثب.

فتذكروا أن «سوف» هي الكلمة المفضّلة لدى الأشخاص الذين يتمتعون بأفضل النوايا، لكنّهم لا يتعدّونها إلى حدّ الفعل. وفعل «القول» هو حجر العثرة الذي يعرقل الانتقال إلى هذا الفعل. فكيف إذا كان هذا الفعل مستخدماً في صيغة الماضي؟ يحق

لشريككم أن يشكّ في حسن نواياكم فهو يعلم، مثلكم تماماً، أن ما يُقال لا يتمّ بالضرورة؛ في حين أن ما يتم لا يحتاج بالضرورة إلى أن يُقال. من الصعب جداً بذل الجهد بشكل فعّال في اتجاهين معاً. فالطاقة التي تصرفونها في الكلام عمّا سوف تفعلونه، لا يمكنكم استخدامها في تنفيذ ما تتكلّمون عنه.

كلّما زاد الكلام قلّ الفعل. «قلت لك إنني سأفعل ذلك» هي عنوان لعدم الفعالية. فإذا كنتم ممن يرددون هذه العبارة، اعلموا أنها تحكم عليكم بالعيش في أحلام لن تطأ أبداً أرض الواقع، ناهيك عن أننا لم نتكلم عن المثال السيّئ الذي تقدّمونه لتلك الفتاة الصغيرة التي لا تخدعها «همّتكم» لترتيب غرفتها الجديدة.

اختيار الكلمات

صحّحوا كلامكم فوراً وبصوت عالٍ! «أفعل ذلك غداً، أو بعد غد، أو في العيد»، ولكن لا تقولوا أبداً: «سوف أقوم بذلك». قد تبدو لكم هذه نصيحة بسيطة ولكنكم تحتاجون إلى الكثير من الطاقة الذهنية لتنتبهوا إلى عاداتكم الكلامية السيئة وتتوصّلوا إلى التخلّص منها. إن الإكثار من استخدام «سوف» للتعبير عن عمل تنوون القيام به في المستقبل قد يتحوّل إلى جرثومة تلوّث صورتكم في أعين أولادكم. ولا يقتصر الأمر على ذلك فقط، فالتأجيل تصرّف نموذجي يقود إلى الفشل ويعود تأصّله في أذهاننا إلى الطفولة (بين 3 و6 سنوات). وهو النتيجة المباشرة لتربية متساهلة إذ نجده عادةً لدى الابن الوحيد أو لدى الأولاد الذين تربّوا على هذا الأساس. فمستوى ما يفرضه الوالدان على ابنهما (أو ابنتهما) الوحيد هو أدنى بكثير ممّا يُفرض على أولاد أسرة كبيرة، إذ إن الفوضى

لكون دائماً أقل إزعاجاً إذا كان لدينا طفل وحيد نربيه. تطلب والدة طوم من ابنها قائلة: «أريدك أن ترتّب غرفتك». فيجيب الولد: «سأفعل ذلك لاحقاً، ماما!»

أوّل مرة يجيبكم فيها ابنكم أو ابنتكم بـ«سأفعل ذلك لاحقاً»، يجب أن تنطلق في رأسكم صفّارة الإنذار. فالإرجائية تبدأ في سن الثالثة. ولا تتظاهروا بتجاهلها، فذلك لا يصبّ في مصلحة ولدكم.

توقّف (يجب)

«على مَهلَك! يجب أن تتوقف، أوف!»

عندما تُستخدم كلمة مهلاً بكثرة وتصبح محط كلام، تشير إلى شخص يكبح نفسه بقوّة ما إن تعتريه رغبة في الإقدام والعمل والتصرّف. ويشبه ذلك الخيّالَ الذي يضرب فرسه بساقيه لكي تتقدّم، لكنه في الوقت نفسه، يشدّ لجامها إلى الخلف ليمنعها من التقدّم. إنه شخص متردّد لديه دائماً أفضل الأسباب لإرجاء قراراته. أمّا الفعل «وجب» فهو مطيّة كل الذين يريدون تفادي الالتزام. في حين أن عبارة «أوف»، تُعبّر عن السخط والاستياء ونفاد الصبر. ولكن ليس ذلك فقط. انتبهوا للنبرة التي تُقال بها. ستلاحظون أن نبرة الصوت تصبح في معظم الأوقات نبرة نواح أو عتاب. فالشخص الذي يُكثر من استخدام عبارة «أوف» هو إنسان مكبوت، يمكن قياس درجة كبته وفقاً لمدى تكراره «لهذه العبارة».

أعراض كاليميرو

إذا درسنا العناصر التي تؤلّف هذه الجملة التي تميّز خصوصاً كلام المراهقين، نرى أنها تعبّر عن وضع يبدو للقائل أن لا مخرج منه. ينصب المتكلّم نفسه ضحية، ضحية المجتمع أو ضحية محيطه. يعتبر أن لا أحد يفهمه أو أنه منبوذ مرفوض. ويعتبر أن لا أحد يبذل الجهد اللازم لفهمه أو مساعدته أو مد يد العون له للخروج من الحفرة. وإذا كان غير موافق على الحلّ الذي تقترحونه، فلن يتردّد في الاعتراض لكنّه لن يفكّر أبداً في إعادة النظر في مواقفه. إنه شخص متشائم وخاضع، شخص معترض محتجّ

دائماً يستفيد من موقفه «لا هذا ولا ذاك» أكثر من حلّ مشكلته. النقد فن يمارسه بحماسة ولكن من دون تمييز أو بصيرة.

يجب التوقّف عن التمهّل

ترد كلمة «على مهلك» بصورة منتظمة في كلام الأهل الذين يرفضون أن يكبر أولادهم أو يتقدّموا أو يتطوّروا وكثيراً ما يترافق مع فعل «توقف»: «توقّف عن النمو، أنت تجعلني أشيخ بسرعة. على مهلك!» فيتوقف الولد عن النمو فكرياً ونفسياً ليرضي والده أو والدته، فيلعب دور الرضيع، ما يجعل والدته تستمتع بالوضع في الكثير من الأحيان فتقول مثلاً: «يحب الاختباء في فستان الماما. لا يزال طفلاً!» إنها تلعب بالدمى من جديد. فيتوقّف الزمن ليترك المجال لحب الأم، وينتظر الوقت الملائم ليستأنف رحلته في الاتجاه الخاطئ، الاتجاه الذي يجبره على أن يكبر. «توقّف» و«انتظر» هما فعلان مفيدان عندما نضطر إلى قطع الطريق، لكن لا فائدة منهما للسير في طريق الحياة.

وصل إلى، توصّل إلى

«يجب أن تتوصل إلى القيام بذلك»

التوصل إلى ماذا؟

هذا الفعل جبل شاهق يصعب تسلّقه، هو جبل يفصل بين أوهام وطموحات الأهل الذين يجرّون فشلهم وهزيمتهم خلفهم. من أجل الوصول، أو النجاح، يجب ألاّ نقيس المسافة قبل أن نقطعها.

يصرخ أحد الآباء لاهثاً لعدم قدرته على إقناع ابنه بالمصيبة التي تتهدّده: «إذا رسبت هذه السنة، ستكون كارثة حقيقية!» ثم يضيف قائلاً وهو يكاد يصاب بقرحة في معدته: «يجب أن تتوصل إلى ذلك». فيقول المراهق في سرّه وهو يخفي ابتسامته الساخرة بيده: «يبدو أنه سيتبوّل في ثيابه». إنه لا يصل أبداً إلى قمّة أحلامه لأنه لا يبدأ أبداً بتسلّق جبل طموحاته. يستمرّ الوالد في الشكوى والتذمّر: «ولكن ألا تدرك أن دراسة الطب ستستغرق منك أكثر من عشر سنوات؟ هذا إن لم ترسب في صفك! وكيف ستتوصل إلى تأمين حياتك حتى ذلك الوقت، فأنا لن أتمكّن من مساعدتك على الدوام، مع معاش التقاعد البائس الذي ينتظرني»، الخ.

يكاد الوالد يناهز الـ45 من العمر والابن احتفل مؤخراً بعيد ميلاده الـ19 ونال الشهادة الثانوية بدرجة جيد ولكن مع سنة تأخير، وهي كارثة بالنسبة لمستقبله المهني!

الوصولية الأبوية

الوصولية الأبوية ليست سوى عارض من عوارض الغرور

الذي يتماشى عادة مع الأنانية. ويظهر ذلك مثلاً في عبارة: «أنا، ابني...» فالوالد في هذه الحالة يدمج شخصية ابنه بشخصيته، فيلغي وجود الولد لأنه عاجز عن الخروج من ذاتيته ليضع نفسه مكان ولده، فيصبح الولد امتداداً لوالديه. ولكن لا تشعروا بالذنب كما لو أنكم قد اختطفتم رهينة، فجميعنا يتصرف على النحو ذاته. إذ لا يستطيع أي أب (أو أم) أن يمنع نفسه من إسقاط أحلامه وطموحاته الخاصة على مستقبل ولده، فهذا التصرّف يشكّل جزءاً لا يتجزّأ من الحب الذي يكنّه له. هو فلذة كبده، وقطعة من أحشائه. ونجاحه هو جواز سفر والديه إلى نهاية حياة مكتملة رضيّة، وفشله هو بطاقة إلى جحيم التحسّر والندم الأبديّين. ولكن، رجاءً، الغوا الفعل «وصل إلى» و«توصّل» من معجمكم واتركوا ابنكم يعيش حياته مثلما يريد. فهذه حياته هو في النهاية! تجنبوا الانفعالات لتتجنبون معها الإصابة بقرحة في المعدة!

«لن يتوصل ابني إلى فعل أي شيء أبداً»، «لن يفلح ابني في شيء أبداً»

رومان (10 سنوات)، ولد ذكي وحادّ الذهن، لكنّ جميع قدراته ومواهبه تعمل ببطء، فهو بارع جداً في فن الكسل. ونظراً إلى السهولة التي يجدها في التعلّم، فهو لا يبذل أي جهد في الصف، ما يغيظ معلمته ويحزنها. وقد وبّخته أمه مراراً بسبب هذا التصرّف ولكن من دون جدوى: هذه هي المرّة الثالثة هذه السنة التي تستدعيها فيها المدرسة. فقد طلبت المديرة مقابلة أخرى مع والدَي رومان. حضرت أمه وحدها للمقابلة بصحبة ابنها:

– لا يزال رومان يشرد في الصف، سيدتي، إنه يحلم ويثرثر مع رفاقه أو يقوم بأي شيء عدا متابعة الدرس.

– هذا يؤسفني حقاً، سيدتي المديرة. لقد قلت له أكثر من مئة مرّة أن عليه تغيير طريقة تصرّفه! إنه يعلم جيداً إن عليه التصرّف كتلميذ جادّ ومجتهد. إني أقول له ذلك باستمرار.

– هل ينجز فروضه في البيت؟

– نعم، نعم، سيدتي.

– هل هنالك من يبقى إلى جانبه لمساعدته؟

– أنا أعمل خارج البيت. لا يمكنني إعالة ولدَيّ بالنفقة التي يدفعها لي زوجي. الحاضنة التي تأخذه بعد الظهر من المدرسة هي طالبة جامعية تساعده عند الحاجة.

– هذا ليس كافياً على ما يبدو، سيدتي. فروض ابنك لا تُنجز بالشكل الصحيح ولا تُنجَز دائماً. رومان لا يصغي إلى ملاحظات المعلّمة، أمّا بالنسبة للتوبيخ، فلا يبدو أنه يتأثّر به إطلاقاً.

– لن يصل ابني إلى شيء أبداً، سيدتي المديرة. يجب البقاء دائماً وراءه. إنه لا يفعل إلاّ ما يشاء هو! إنه ولد غير مسؤول!

إنكار الأم وتنصلّها من المسؤولية

يا لها من لكمة قوية! هذه الكلمات التي قذفتها الأم في وجه ابنها قد طرحته أرضاً، وهو أمر لم يسبق لها أن فعلته. حاول الولد النظر في عينيها، لكنّها تجاهلته. فكيف لها إذاً أن تحصل على ما يرضيها ويسرّها من ابنها؟ كيف يمكن لأحد أن يحقّر ولده ويزدريه إلى هذا الحد في وجوده، ويتصرّف وكأنّه غير موجود؟ هذا قتل عاطفي. هذا التصرّف دمّر بلحظة واحدة العرش المرتفع الذي يضع الولد فيه أمّه. إنه إنكار للأمومة. لم تتحمّل والدة رومان مسؤوليتها كأم. فالأم تحمي ولدها بكل ما أوتيت من قوة. أمّا أمّه فقد اختارت الانضمام إلى الفريق الآخر، الفريق الخصم. لقد أنكرت ولدها أمام شاهد، والأسوأ من ذلك أنها خانته. وخيانة الأم مدعاة لفسخ العلاقة بينها وبين ولدها.

انتبهوا، فالكلمة يمكن أن تخبّئ وراءها كلمة أخرى

لولا حضور الولد لاختلفت عواقب هذه الجملة. فالخطر ليس في الجملة بحد نفسها ولكن في أن أمّاً قد نطقت بها فأنكرت ولدها في حضوره. هي لا تعرف كيف تتعامل معه.

لم يكن هناك من دليل للاستعمال مع هذا الولد الذي لا يشبه في شيء الولد المثالي الذي كانت تحلم به. وبما أنها لا تفهم طريقة «تفكيره» فهو بالطبع «لن يصل أبداً إلى أي شيء!»، هذه الصيغة هي إذاً اعتراف بعدم الكفاءة التربوية.

اختيار الكلمات

إذا اعترفتم بمسؤوليتكم في فشل دوركم كمربّين، نَفَضتم عنكم ذنب القتل المعنوي الذي تسببتم به لولدكم من جرّاء اختياركم الخاطئ للكلمات. ابدأوا بحوار مع ولدكم تحت إشراف طبيب نفسي مختصّ! اعترفوا بذنبكم، وقولوا له أمام شهود إنكم تحبّونه وتأسفون لما اقترفتموه بحقه. دافعوا عنه في جميع الظروف والمناسبات، حتى وإن كان على خطأ. إنه ولدكم، ومستقبل حاضركم. لا تُلبسوه رداء نقائصكم وتقصيركم! يكفي أحياناً بضع كلمات صادقة لتغيير وجه العالم. إذا كان لديكم إحساس قاتل بأنكم لم تتوصّلوا إلى شيء في حياتكم، فلا تدفنوا مستقبله هو. لا تفسدوا عليه حياته لمجرد أنكم لم تحقّقوا أحلام طفولتكم في حياتكم.

«إنه يشبه اباه (المنفصل عن الأم المتكلّمة)، لن يأتي منه خير ابداً. لن ينفع حتى كزبّال!»

إن العبارات التي يتفوّه بها الأهل والتي تسيء لقيمة الولد وتقلّل من شأنه هي كثيرة جداً إلاّ أن استحضار شخصٍ ثالث للتكلم عن الولد أمامه يجعل منها عوائق نفسية حقيقية.

فاستخدام صيغة الغائب للتكلّم عن الولد في وجوده (انظر «الغائب المفرد» ص178) وسيلة ممتازة للتعامل بشكل غير مباشر مع وضع ميؤوس منه.

بشهادة شاهد

الرسائل الأكثر قسوة والأكثر فعالية في التربية السيّئة، هي تلك التي تُستخدم فيها صيغة الغائب المفرد، وهي ما يُعرف بالإيحاء غير المباشر. تتوجّه هذه الرسائل دائماً إلى شاهد في حضور الولد أو الشخص المتَّهَم. ويقوم دور الشاهد على زيادة مصداقية النقد، بحيث تصبح الملاحظة أقسى وأقوى بكثير مما لو وُجّهت مباشرة إلى الولد.

إن عبارة «لن تنفع لشيء أبداً» أو «لن تصل إلى شيء أبداً» هي رسالة مباشرة يمكن للولد أن يتغاضى عنها، إذا وُجّهت له من دون وجود أحد إلاّ أنه يعجز عن تناسيها في ما لو وُجّهت إلى شخص ثالث بوجوده هو. لذلك فإن الولد يفصل نفسه عما يجري لئلاّ يسمع النقد الصادر عن والده أو والدته.

إذا نجحتُ، أفشل، وإذا فشلتُ أنجح

لكثرة التكرار، يصبح النقد تافهاً ويفقد تأثيره، فيتحوّل إلى إيحاء سلبي يفعل في الولد فعل التنويم المغنطيسي.

ينغرس الانطباع الذي يخلّفه النقد أو الإيحاء غير المباشر في البنية التحتية عند الطفلِ ويتحوّل إلى سلوك فاعل. وهكذا، يُكثر الولد من فشله حتى يتطابق تصرّفه مع الحكم الذي أصدره والداه بحقّه. فكل نجاح يقوده حتماً إلى الفشل. وكل فشلٍ يُعتبر انفراجاً وراحة!

إذا نجحت، أفشل، وإذا فشلت أنجح، لأنني غير معرَّض لضغط النجاح. عندما تعيد أم وتكرر طوال النهارِ أن ابنتها لا ترتكب سوى الحماقات، تكبر الفتاة مع هذه الفكرة فتكون عند «حسن» ظن والدتها: لا ترتكب سوى الحماقات حتى تصبح كارثة متجوّلة. في الواقع، يجب أن تستند شركات التأمين إلى ما يقوله الآباء عن أولادهم لتحديد الأقساطِ التي تفرضها في حالات المسؤولية المدنية.

اختيار الكلمات

لا تنسوا أنكم المؤتمنون الحصريون على إرث الأجيال التي سبقتكم. وبالتالي فإنكم «مُقَوْلَبون» إذا صحَّ التعبير وفق برنامج مسبق. إلاّ أنه يمكنكم تصحيح شوائب ذلك الإرث بالاستعانة باختصاصي وتغيير مصير ولدكم، فالإيحاء غير المباشر أو انتقاد الطفلِ بحضوره أمام شخص ثالث طريقة متوارثة من جيل إلى جيل. فإذا استخدم أهلكم هذه الطريقة معكم ستعيدون استخدامها بدوركم مع ولدكم، إلاّ إذا كنتم مدركين للأضرار الناتجة عن هذا التصرّف الغبي والمسيء لأولادكم. صحيح أن إدراك الضرر الذي تسبّبونه لولدكم بهذه الطريقة لا يقضي على هذا التصرّف، إلاّ أنه يساعد على الحدّ منه. وبّخوا ولدكم بصيغة المخاطب ولا تسمحوا لأحد أبداً بأن يكلّمه بصيغة الغائب في حضوركم. فلا تنسوا أنه عندما

نتكلّم عن ولد بصيغة الغائب في حضوره، فإننا ننكر تلقائياً حقّه في الكلام، وهذا أشبه بالحكم على بريء بالإعدام من دون إعطائه فرصة للدفاع عن نفسه. إنه سلوك نموذجي في البلدان التي تحلّ فيها البربرية مكان العدالة.

«لا تظن أنك ستصل (ستنجح) هكذا!»

لا عمل يستحق الاستحسان والتقدير ما لم يُجبَل بالعرق والدم والدموع. عندئذٍ فقط يُعطى الجهد المبذول حقّ قدره. هذه هي باختصار فحوى الرسالة المتوارثة عبر الأجيال. فلا تنسوا فعل «وصل» (نجح) المنتصب أبداً كقمّة شاهقة يتعذّر تسلقها. «لا تكن طموحاً أكثر مني»، يقول الوالد (أو الوالدة) الذي يشعر بالاستياء إذا تقدّم ابنه وترقّى من دون ذرف أي نقطة عرق. فبعض الآباء لا يحتملون أن يتقدّم عليهم أولادهم ويتخطّوهم. هل هذا ممكن؟ نعم، هذا ممكن ويحدث كثيراً. لو أنكم تعرفون فقط الحيل والخدع التي يلجأ إليها المشاهير لمنع ورثتهم من سرقة مهنتهم، وحتى من الاستفادة من شهرتهم التي كلّفتهم غالياً.

اختيار الكلمات

جميع رؤساء الشركات العائلية الذين يتقدّمون في السن ويرفضون مع ذلك التنازل عن الإدارة لابنهم الذي يبلغ ربما الخمسين من العمر، يضعون هذا الأخير في خانة الصعاليك المتسوّلين. هم آباء يقمعون أبناءهم! لذلك، فعليكم أن تفحصوا ضميركم وتفكّروا إذا كنتم تريدون أن يصبح ولدكم الراشد قوقعة فارغة؟ يبدو أن للطيور ذكاءً يفوق ذكاء البشر أحياناً فهي ترمي بفراخها خارج العش ما إن تصبح الصغار قادرة على الطيران. احذوا حذو الطيور إذاً!

انتظرَ

«انتظر! لا يمكنك أن تفعل ذلك بهذه الطريقة!»

التكرار غير المناسب لفعل انتظر في صيغة الأمر هو أحد عوارض التردّد المرَضي. ولو كان الأمر متعلقاً بكم وحدكم، لما تسبّب بضرر لولدكم الذي اعتاد سماع هذا الفعل المولِّد للكبت. يجب الانتظار والتريّث دائماً قبل التصرّف، مع العلم أننا أحياناً كثيرة لا نُقدِم على أي تصرّف لتجنّب ارتكاب الأخطاء. وبالتالي، فإن الذين ينتظرون يبقون معلّقين بجلباب تردّدهم. ينفون عن أنفسهم المسؤولية ويلقّنون أولادهم فن الاتكال على الآخرين. مَن ينتظر لا يحتاج إلى أن يتصرّف، ومَن يتصرّف لا يحتاج بالضرورة إلى الانتظار. اختاروا إذاً الجانب الذي تريدون الوقوف فيه ولكن لا تفرضوه على أولادكم (انظر أيضاً توقّف، ص42).

انتبه، حذار

«انتبه إلى قفاك!»

- داميان، هلاّ توقّفت من فضلك عن إحداث هذه الضجّة؟
- إني أعزف الموسيقى، ماما!
- يمكنك عزف الموسيقى في وقت آخر، أنا وأبوك نريد أن نتكلّم.

تابع داميان قرع طبله، كما لو أنه لم يسمع ما قالته والدته ولم يلاحظ نظرات الاستياء التي رمقه بها والداه.

- داميان، هل سمعت ما قلته لك؟
- نعم، ماما، حالاً.
- لا تريد أن تسمع الكلمة؟ «انتبه لقفاك، يا داميان!»

كيف يمكن لداميان أن ينتبه لتهديد بالعقاب الجسدي، لا يتوقع أن يتحقق، مثل توقّعات الطقس التي تشاهدها أمّه كل مساء على شاشة التلفزيون؟ إلاّ أن توقّعات ضرب القفا لا تصدق مثل توقّعات الطقس.

مقررات كلامية

يمكنكم زيادة مصداقيتكم في عينيّ ولدكم بالإقلال قدر الإمكان من استخدام هذا التحذير العقيم الذي لا يأتي عادة بالنتيجة المرجوّة.

أضف إلى أن «انتبه» هو تحذير مفيد جداً في الشارع لتنبيه ولدكم إلى خطر محتمل! وإذا حللتم مكان أخطار الحياة اليومية ونبّهتموه إلى قد تفعلونه به فإنكم تُحدثون ارتباكاً في ذهنه. فالجزء الأيمن المخصص للانفعالات من دماغ ولدكم لا يعتبر بعد ذلك

كلمة «انتبه» كسلاح ضد الحوادث المنزلية المحتملة ولكن كتهديد موجّه لقفاه. لذلك فإن الدماغ الأيسر، هو الذي يقوم بمعالجة المعلومة، الأمر الذي يُبطئ من رد فعله لإنقاذ نفسه في حال وجود أي خطر حقيقي.

اختيار الكلمات

«إذا استمرّيت في رفض الإصغاء لما أقول، نلتَ صفعة على قفاك» أو «ضربتُك على قفاك»، علماً أن الخيار الثاني أكثر فعاليةً، حيث أنكم تؤكّدون بوضوح سلطتكم وتصميمكم على نيل ما تريدون. تجنّبوا استخدام جمل مثل «**سوف** تنال صفعةً على قفاك» أو «**سوف** أعطيك صفعة على قفاك»، إذ قد لا تنالون هنا أيضاً رد الفعل المطلوب من طرف ولدكم. انظروا «سوف» (ص32) لمزيد من التفاصيل حول هذه الصيغة النموذجية التي يستخدمها الأهل الذين لا كلمة لهم.

صالح

«هذا لصالحك»
«أقول هذا لصالحك»

تعني الكلمة عند الولد ما تعنيه بالضبط.

يكفي أن نسمع ما يقوله الراشدون لطبيبهم النفسي لنرى مدى الضرر الهدّام الذي تخلّفه هذه الجمل الصغيرة العادية، التي تلاحقهم طوال حياتهم. هذا لصالحه! أفعل هذا لكي يتحسّن، لكي يتقدّم. في بعض الأحيان، لكي يعود إلى الصراط المستقيم، نجرّه رغماً عنه إلى الطبيب النفسي، لكي نجعله يخضع، ولكي تختفي أخيراً الأعراض. ولكن سوء المعاملة يبدأ هنا.

تعيش أدلين (17 سنة) مع والدها فرنسوا منذ سن الثالثة. في ذلك الوقت، أُغرمت والدتها بتاجر تحف أثرية، فهجرت البيت الزوجي فجأة من دون سابق إنذار. ولكي تبني حياتها الجديدة بكل طمأنينة، تخلّت عن حضانة ابنتها لزوجها. فالرجل الذي وقع عليه اختيارها لم يكن مستعداً للعب دور الأب، وهو دور لم يفكر أو ينوِ قط أن يلعبه.

بعد الصدمة الشديدة التي سبّبها هذا الانفصال المفاجئ لفرنسوا، وجد هذا الأخير سعادة كبيرة في الاهتمام بابنته، فمنحها كل ما في قلبه من حب وربّاها كالأميرة. واليوم، أصبحت أدلين مراهقة جميلة، من دون مشاكل، وها هي تتقدّم هذه السنة لامتحانات الثانوية، الفرع العلمي، رغبة منها في دراسة الصيدلة. ويرغب فرانسوا في أن تحل مكانه في الصيدلية التي يملكها منذ عشر سنوات، إذ أصبح لديه الكثير من الزبائن الأوفياء ويريد لأدلين أن تستفيد من ذلك. فرانسوا فخور جداً بابنته ولطالما أراد لها

الأفضل. يصادف اليوم امتحان أدلين الأخير وهو شفهي إنكليزي. يذرع فرانسوا صيدليته ذهاباً وإياباً، منتظراً بفارغ الصبر ليعلم ما إذا كان كل شيء قد سار على خير ما يرام. كان يجب أن تعود ابنته منذ أكثر من ساعة، فانتابه القلق واتّصل بصديقتها الحميمة. ولكن لا خبر.

ما يجهله فرانسوا هو أن أدلين قد أتمّت بنجاح امتحانها الشفهي، لكنها استفادت من وجودها في باريس لكي تتقدّم إلى مباراة لاختيار المغنّين للاشتراك في برنامج للمواهب، فهي تغنّي مذ كانت طفلة. وبرغم وجود مئات المتقدّمين لتجربة الأداء هذه، فقد تم اختيارها للاشتراك في البرنامج. وعندما استقلّت أدلين آخر قطار متّجه إلى قريتها، كان فرانسوا قد أقفل صيدليته منذ أكثر من ساعتين وهو الآن قلق إلى حد الجنون، يهمّ بالاتصال بالشرطة المحلية. لكن يده تجمدت على الهاتف عندما سمع صوت باب المدخل، حيث ظهرت أدلين. لن أورد تفاصيل الحديث العاصف الذي دار بعد ذلك بين الأب وابنته، ولن أتطرّق للحجة التي اختلقتها أدلين لتبرير تأخيرها، ولكن الأمور عادت إلى مجاريها واستأنفت الحياة مسيرتها الهادئة، حتى يوم الاثنين التالي، عندما رنّ جرس الهاتف ورفع فرانسوا السماعة:

– هنا شركة للإنتاج، الآنسة أدلين بونتي من فضلك!

– ليست موجودة حالياً، ما هو الموضوع؟

– نريد التأكيد على موعدنا المقبل.

– موعد ماذا؟

– الموعد المتعلّق ببرنامج المواهب الجديد. أدلين هي واحدة من المشتركين الخمسة عشر الذين تم اختيارهم.

– لا بد أنك مخطئ، سيدي!

– أليس هذا منزل أدلين بونتي؟

– بلى، سيدي! وأنا والد أدلين، لكنها لم تقل لي شيئاً وهي على كل حال تخضع لامتحانات الثانوية...

– سأترك لك اسمي ورقم هاتفي، فلتتصل بي أدلين عند عودتها من فضلك!

ذُهل فرانسوا لما سمعه، فاتصل بصديقة أدلين منذ أيام الطفولة. استنطق فرانسوا الشابة فلم تعد تعرف بماذا تجيب واضطرت في النهاية إلى الاعتراف بكل شيء لوالد صديقتها.

على العشاء، بادر فرانسوا بالهجوم: «قولي لي، أدلين. هل تعرفين شركة X للإنتاج؟»

بعد ثوانٍ طويلة، أجابت بصوت مرتجف:

– مثل الجميع! إنها تنتج برامج تلفزيونية والعية.

– إلاّ أن الجميع لا يتقدّمون لتجربة أداء من أجل اختيار مغنين ويصبحون بين ليلة وضحاها «نجوم المستقبل»! لماذا لم تقولي لي شيئاً عن الموضوع؟

– كنت أعلم كيف سيكون رد فعلك! كنت أعلم أنك ستغضب وأنك لن تدعني أبداً أجرّب حظّي. ثم إنني لم أجد أي فائدة من إثارة غضبك طالما أنه لم يكن قد وقع الاختيار عليّ بعد.

– ولكن الآن، هناك فائدة من ذلك؟

– اسمع، بابا، لطالما غنّيت، حتى قبل أن أتكلّم! تذكر ذلك. أريد الاستفادة من هذه الفرصة! إنها فرصة حياتي!

– «فرصة حياتي»، ما هذا الكلام؟ هل تعتقدين حقاً أن الغناء هو مهنة للمستقبل؟ ألا تدركين أعداد الناس الذين يعيشون على الهامش في هذه المهنة؟ إنها مهنة المظاهر الزائفة، ليست مهنة يُعتمد عليها. كنت تتهيّأين لمهنة في المجال الطبي، مهنة نافعة، مستقرّة، تؤمّن لك مردوداً مريحاً، ثمّ بين ليلة وضحاها، تريدين التخلّي عن كل شيء لكي تغنّي بعض الطقاطيق! لقد فقدت عقلك يا ابنتي!

– بابا، أنا لا أتخلّى عن كل شيء. أنا واحدة من المشتركين الخمسة عشر الذين تم اختيارهم من بين آلاف المتقدّمين، ولا أريد أن أفوّت عليّ هذا!!

– أدلين، أنت قاصر، وحتى إثبات العكس، أنا الذي يقرّر.
دفعت أدلين صحنها ونهضت عن المائدة ثم أقفلت على نفسها باب غرفتها.
– أدلين، افتحي لي! أنا هنا لأسهر عليك وأمنعك من ارتكاب الحماقات، تعلمين جيداً أنني لا أريد سوى سعادتك. أنت ترتكبين خطأ فادحاً بقصّة الغناء هذه. تعلمين أنني أقول هذا لصالحك! افتحي هذا الباب من فضلك.

صالح خادع

يأتي رد فعل ولدكم الغاضب سريعاً، متفجّراً. لم تعد خططكم مطابقة لخططه، فيسعى إلى «الانقلاب» على رؤيتكم المقَوْلَبة والجامدة بنظره. فهي بالنسبة إليه ناتجة عن مرجعيات تربوية عتيقة، من زمن آخر، وإطار اجتماعي اقتصادي مختلف. أمّا أنتم فتقابلون انقلابه بهذه الجملة الجاهزة: «أقول هذا لصالحك»؛ إنها الحجة المثلى لدى الوالد الحائر المرتبك، ليقطع الطريق أمام أي حوار مع ابنه. تتشبّثون بامتيازاتكم وحقوقكم كأهل، كمَن يتشبّث بعوّامة إنقاذ، لكي تبقى السفينة سائرة في اتجاه طموحاتكم وأهدافكم. لولدكم كامل الحق في الوقوف في وجهكم. فأنتم تشعرونه بعدم الأمان برفضكم رغباته. باسم مصلحتكم الشخصية تستغلّون الثقة التي وضعها فيكم وتنقلون له صورة الوالد (أو الوالدة) الضيّق التفكير البليد الذهن. في الواقع، ليس رفضكم هو ما يولّد الخلاف بقدر ما هي طبيعة حجتكم الخادعة: «هذا لصالحك». فيشعر ولدكم أن مناهضتكم تحقيق حلمه هي خيانة له.

الأمور من منظار مختلف

لو كنتم تتصرّفون حقاً لصالحه، لَمَا شعرتم بالحاجة للقول

ذلك. فكل تجربة خارج الإطار العادي هي تجربة تكوّن شخصية الولد وتأتي «لصالح» قدرته على مقاومة الإحباط وتقوّي حسّه الكفاحي و«القتالي». بعد دخولها البرنامج، قد تُستبعد أدلين بسرعة، لكنّها على الأقل ستكون قد عاشت تجربة فريدة ولو لمدة أغنية واحدة. المستقبل المضمون الاعتيادي والروتيني الذي رسمه لها والدها هو مستقبل خال من المحطّات البارزة، ومن المغامرة، هو مستقبل «محرّف» أو «مشوّه» على المستوى الوجودي. الصيدلية عالم تعرفه جيداً، فقد ترعرعت فيها. إنها بحاجة إلى الهروب من محيط يخنقها، من أب يحبسها في مستقبله هو.

إن الآباء الذين يردّدون «هذا لصالحك» لا يعون أبداً الأذى الذي يسبّبونه لأولادهم. فتدخّلهم العاطفي المستمر في حياة أولادهم يدفع هؤلاء إلى الهرب أو قطع العلاقة مع أهلهم كلياً وأحياناً بدون تفسير، تماماً كما فعلت زوجة الصيدلي قبل خمس عشرة سنة. نفهم الآن بشكل أفضل لماذا غادرت وتركت كل شيء وراءها. فالرجال مثل فرانسوا هم سموم بشرية، يعمل سمّهم بجرعات خفيفة فيخدّرون ضحيتهم حتى تموت جميع رغباتها.

الخطاب البديل

«أدلين، كان بإمكانك أن تخبريني بذلك البرنامج التلفزيوني. أفهم حماستك لفوزك في الأداء. أنا لا أشاركك في هذه الحماسة للأسباب التالية... لكنني أعتقد أن ذلك قد يشكل تجربة غنية بالنسبة إليك. أوافق على اشتراكك في البرنامج شرط ألاّ تهملي امتحانات آخر السنة. يمكن للدراسة أن تترك لك بعض المجال لتُشبعي شغفك بالموسيقى، على ألاّ يعيق ذلك دراستك».

مهما يكن الخطاب الذي تعتمدونه، عبّروا عن آرائكم بصراحة، خصوصاً إذا كنتم غير موافقين، وتقبّلوا أن يعبّر لكم ولدكم عن آرائه الخاصة من دون أن تمارسوا عليه سلطتكم وتكبتوه. احترام الحوار هو بداية إثبات ملموس في عينَي ولدكم على أنكم تريدون فعلاً العمل لصالحه.

«إنه لا يستحقّك».

«هو لا يناسبك»،

«ليس من وسطنا»،

«تستحقّين أفضل منه».

«الأب (أو الأم) الذي يرى ولده جميلاً وكاملاً، والذي يضع فيه كبرياءه الخاص وأمله في المستقبل، هو في الوقت نفسه فريسة قوّة خفيّة تدفعه إلى إظهار شيء من الازدراء حياله».

تعرّفت جولي بإريك على مقاعد الجامعة، وقد أصبح عمر علاقتهما اليوم خمس سنوات. لكنّ والديّ جولي يرفضان بعناد استقباله تحت سقف بيتهما، بحجّة الفارق في المستوى الاجتماعي بين العائلتين. فإريك هو ابن حرفي يصنع الشوكولا ويتاجر به ووالدته تدير أفضل متجر لبيع الشوكولا في المنطقة كلّها، أمّا هو فقد بدأ في العمل في مجال الصحافة. في حين أن جولي هي ابنة أستاذة في الرياضيات ومحام. وقد أنهت مؤخّراً دراستها في اللغات الأجنبية وتتهيّأ لتولي أول وظيفة لها كمترجمة. للاحتفال بالحدث السعيد، اقترحت جولي جمع أهل صديقها إريك بأهلها إلى مأدبة.

- جولي، لا أريدك أن تتوهّمي. لن يبدّل هذا الغداء رأيي

بخصوص ذلك الشاب.

– اسمعي أمي، أنا لا أطلب منك أن تبدّلي رأيك، أريدكما فقط أن تتعرّفا إلى والدَيّ أريك. إنهما شخصان رائعان! أرغب في الاحتفال بتخرّجي مع الذين أحبهم!

– قد يكون هذان الشخصان لطيفين، لكنّهما من وسط مختلف جداً عن وسطنا حتى أني لا أعرف ماذا يمكننا أن نتحدّث به طوال ساعتين!

– إذا كانت هذه ذهنيتك، فلن تجدي بالطبع ما تتحدّثين فيه!

– قد لا تعجبك ذهنيتي، حبيبتي، ولكن هنالك أمور بديهية ترفضين رؤيتها. تتصرّفين تماماً كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال!

– حقاً؟ ما هي هذه الأمور؟

– لقد قلتها لك أكثر من ألف مرّة. أنت تستحقّين شخصاً أفضل من ذلك الشاب! قد يكون لطيفاً، لكنك تستحقين أكثر من مجرد شخص «لطيف». هو لا يناسبك، هذا كل شيء!

– أمي، توقّفي أرجوك! أعرف معزوفتك عن ظهر قلب! اعرفي أنني لن أتزوّج بأحدهم بحجة أنه طبيب أو محام أو كاتب عدل. ليس لدينا في الواقع القيم نفسها. سواء أعجبك ذلك أم لم يعجبك، أنا وأريك نحب بعضنا. انتهى النقاش!

من يتزوّج: الابنة أو الوالدة؟

هذا الشاب لا يناسب مَن بالتحديد؟ لا يناسب الأم، طبعاً! فهو لا يتطابق مع صورة الصهر الذي كانت تحلم به. إنّه لا يقدّر القيم والتربية التي أعطتها لابنتها.

تضع الوالدة رغباتها هي مكان رغبات ابنتها: فتسعى إلى الحصول على مكافأة معنوية عبر خيارات ابنتها في ما يتعلّق بشريك حياتها. هذه الأم المفعمة «بالنوايا الحسنة» تتصرف مع ابنتها كما لو

أن هذه الأخيرة لا تزال طفلة صغيرة. إنها تكبت قدرتها على الحكم على الأمور، من خلال التدخّل في خياراتها.

إطراء مخادع

خوفاً من أن تفقد الأم حب ابنتها، تغدق عليها بالإطراءات المعنوية مثل: «تستحقّين أفضل من ذلك!». إنها مكافأة معنوية خادعة مئة بالمئة. «تستحقّين» هي في الحقيقة «أنا أستحقّ» مقنّعة! إنها تخفي احتقاراً كليّاً لكل ما لا يدور في فلك «الأنا» الأمومي ولعبّر عن رفض مطلق لكل ما لا يشبهها: «لسنا من الوسط نفسه!» هذه الصيغة لرسم حدوداً عنصرية بين الطبقات الاجتماعية. إنه التعصب في أجلى مظاهره.

تحت غطاء النوايا الحسنة والعواطف الصادقة، تحطّ الوالدة من قيمة ابنتها: «تستحقين أفضل من ذلك، هو لا يناسبك» تعني ضمنياً «أنت لست قادرة، يا حبيبتي، على إيجاد زوج من مستواك». ولكن لن يكون هنالك أبداً رجل من مستواها. هدف الأم ليس بالضرورة أن تزوّج ابنتها ولكن أن تبرز هي من خلالها بشكل دائم. فلا بدّ أن يستوفي عريس المستقبل شروط الزواج ومعاييره على المستوى الفكري والمادي والمهني وطبعاً ليس المستوى العاطفي. لتطغى «المصلحة العائلية العامة» فوق كل مصلحة. إن صيغة «لا يناسبك» تنبع من الانتهازية العائلية.

ما هي عواقب طريقة تصرّف الأم؟

تذكّروا قصّة الأميرة والراعي! إنها قصة حبّ تبدأ بالانفصال السري عن الجذور العائلية، وهي حالة شائعة في الأوساط

الارستقراطية. يتحوّل هذا الانفصال أو الانقطاع عن العائلة تدريجياً إلى تمزّق مثقل بالضغينة وبالندم المكتوم لدى كلا الطرفين. إن صرامة والدَيّ الأميرة تُظهر طبيعة العلاقة التي تجمع حرّاس القيم هؤلاء بأولادهم. الولد بالنسبة إليهم هو أقرب إلى «الشيء» منه إلى «الإنسان». إنه مجرد حلقة إضافية من حلقات السلالة العائلية؛ هذا هو دوره وهذه هي صفته. إنه أصولي في طبيعته. والأصولية مشتقة من كلمة «أصل» التي تعني أيضاً أصل الأسرة ومنه العودة إلى الأصل ورسوخ الأصل، «أصل المجد أو الشرف»، وأصالة النسب. وفي ذلك الكثير من التمييز العرقي والعنصري.

الدم هو «العلامة الفارقة» والدمغة التي تميّز هؤلاء الناس، والمحافظة على القيم الثقافية أو الدينية لديهم تتقدّم على المشاعر الإنسانية التي تُعتبر صبيانية سخيفة وغير مسؤولة. ففي النهاية، لا يمكننا العيش على الحب وحده أليس كذلك؟ باختيارها شريكاً لا يستحقّها (لا يناسبها)، خانت جولي مقامها وطبقتها ونسبها فخسرت موقعها. وفي مثل هذه الحالة عند اليهود، يعلن الوالدان الحداد على ولدهما الضالّ.

«تستحقّين أفضل من ذلك» أو «هذا الرجل لا يناسبك» أو «ليس من مستواك» هي رسائل تبعث على الفشل. فهذا الكلام المحمَّل بالمضامين يدفع سامِعه إلى السعي بشكل لا واعٍ وراء شخص مثالي كامل لن يجده أبداً، ذلك أن أمه قد عوّدته على أن يكون دائماً غير راضٍ.

ما الجدوى من بذل الجهود بحثاً عن إشارات حياة في كواكب أخرى إذا كنّا غير قادرين على القبول باختلافاتنا؟ وإذا كنا عاجزين عن الفهم بأن الاختلاط بين مختلف المجموعات هو مصدر غنى للجنس البشري؟

هل من حل لهذه المعضلة؟

انتحار الحبيبين أمر أكثر مأساوية ورومنسية من أن ننصح به في الحياة الواقعية. لذا فإنّ الانقطاع عن الأهل ضروري أحياناً للحدّ من أي تأثير عاطفي من قِبَلهم. هنالك حل متطرّف ولكن قابل للتطبيق يقضي بأن يستأجر الشاب والشابة مركباً شراعياً مع ربّانه، ويدعوان والدَيّ كلّ منهما إلى رحلة بحرية من دون إعلام كل طرف بوجود الطرف الآخر. يجب أن يتضمّن المركب الشراعي أسرّة للجميع، مما يسمح بإطالة هذه الرحلة البحرية المرتجلة حتى يقبل والدا الشاب ووالدا الفتاة بالتعرّف حقاً إلى بعضهم البعض. وقد يكون من المثير للاهتمام التوقّف في جزيرة صغيرة خالية من السكّان والاشتراك في تمرين للبقاء في الطبيعة. وإذا لم يتمكّن الأهل من التوافق بعد ذلك، فلن يكون هنالك ما يلوم عليه الشابان نفسيهما.

بغض النظر عن هذا الحل الغريب بعض الشيء، يبدو لي أنه من الضروري وضع مسافة كبيرة بين الزوجين الشابين من جهة وعائليتهما من جهة أخرى. فالمثل يقول: «الباب الذي تأتي منه الريح، أغلقه فتستريح». وهذه «الريح» تمثّل هنا المشاعر السامّة التي قد تلوّث قصة حب جميلة.

> «الكلمات أشبه بالاشعّة السينيّة إذا ما استخدمناها بالشكل الصحيح، فهي تخترق أي شيء».
>
> الدوس هَكسلي، العالم الأمثل

القبلة، قبل

«قبّلي السيّدة»

دعوني أقصّ عليكم حكاية حدثت لي مؤخّراً مع ابنتي التي تبلغ من العمر سنتين ونصف. لقد أقامت ابنتي أوّل صداقة لها مع كلويه، وهي رفيقة لها في الثالثة من عمرها. بين الحين والآخر نصطحب أنا ووالدة كلويه الصغيرتين إلى دوّامة الخيل الخشبية، وهي لعبتهما المفضّلة، خصوصاً إذا كانتا معاً. فتتسلّيان كالمجنونتين وتطلقان العنان لنفسيهما فتتحرران من الضغوط والتوترات المتراكمة طوال النهار. فبعد عدة ساعات تمضيانها في دار الحضانة، تشكّل هذه الفترة من التسلية والراحة المكافأة الأجمل لآنستيّنا الصغيرتين.

– أيتها الفتاتان، دورة واحدة بعد، ثم نذهب.

– أجل!

توقّفت الدوّامة، فأمسكت الفتاتان الواحدة بيد الأخرى وتردّد صدى ضحكاتهما طوال الطريق إلى سيارتينا.

– حبيبتي، قولي إلى اللقاء لرفيقتك كلويه!

تعانقت الفتاتان وراحتا تقبّلان بعضهما ثم اندفعت كلويه إلى ذراعَيّ لتقبّلني أنا أيضاً. عندئذٍ، قالت أمّها، التي لم تكن ربما لتقبّل ابنتي بصورة عفوية:

– أنا أيضاً أريد قبلة يا نينا!

لكنّ ابنتي تراجعت واختبأت بين ساقَيّ في محاولة لتفادي القبلة.

– قبّلي والدة كلويه يا حبيبتي!

– لا أريد، تمتمت الصغيرة.

– ولكن، حبيبتي، ماذا يعني هذا؟ قبّلي والدة كلويه!

– كلا!

وأخفت فمها وراء أصابعها الصغيرة، التي راحت تفتلها وتلويها

بحركة مستمرّة.

- نينا، قبّلي والدة كلويه!

- لا يهم، ستفعل ذلك في المرة القادمة!

قالت ذلك والدة كلويه ممسكة بيد ابنتها، وقد تكدّرت ربما بعض الشيء.

أين يتوقّف التهذيب وأين يبدأ الاحترام؟

لقد فهمت أن إصراري على إقناع ابنتي «بتقبيل السيّدة» كان خطأً كبيراً. ولكن على غرار الكثير من الأمهات في مثل هذا الموقف، لم أتصوّر نفسي أقول لها مثلاً: «حبيبتي، لا تقبّلي والدة صديقتك إذا كنت لا ترغبين في ذلك!» إذ يعني ذلك ضمنياً: «إذا كنت لا تحبّينها!»

هذا خطأ. كان من المفروض أن أنقل لها هذه الرسالة بالتحديد. لكنّ آداب السلوك أوقعتني في الشرك. بعد مرور الحادثة، أشعر بالرضا لأن طبعها المستقلّ وشخصيتها القوية قد دفعاها إلى عدم إطاعتي فبقيت أمينة لانفعالاتها ومشاعرها الشخصية. هذا هو الأمر الأساسي الجوهري وستفهمون للتو سبب ذلك. لم تكن ابنتي عديمة التهذيب، لأنها تمتمت «إلى اللقاء» لوالدة صديقتها. فلماذا وجب عليها أن تقبّل تلك السيّدة إذا لم تكن تشعر بالرغبة في ذلك؟

كونها ليست بخيلة عادة بتوزيع قبلاتها، كان عليّ أن أتوقّف عند تصرّفها. لكنني لم آخذ ذلك بعين الاعتبار. لماذا وجدت نفسي مضطرة إلى دفعها إلى تقبيل والدة كلويه؟ لكي أتّبع العادة السائدة؟ لكي لا أصدم السيدة أو أثير حفيظتها؟ لكي لا أجرح إحساسها؟ ولكن ما هو المهم حقاً، العادات أم ابنتي؟ أترككم لتجدوا وحدكم الجواب الصحيح!

ليست القبلة علامة تهذيب

كثيراً ما تسبّب عفوية الأولاد الإحراج للراشدين الذين يجهدون للسيطرة على انفعالاتهم لكي يقدّموا أفضل صورة عن أنفسهم في المجتمع. ولا يهمّ إن كانت تلك الصورة هي أيضاً الصورة الأكثر خبثاً.

يعبّر الولد عما يشعر به من دون أي خلفية. فليس لديه حسّ المجاملات واللياقات الذي يكتسبه الراشدون شيئاً فشيئاً، أو ذلك الخبث الاجتماعي والطبقة من الطلاء اللمّاع التي تحافظ على المظاهر. وتزعج عفوية الطفل الشخص الراشد الذي اعتاد أن يكبت رد الفعل هذا منذ أقدم العصور. والوالد (أو الوالدة) الذي يحمّل ولده رغباته الشخصية وآماله يشعر بالذنب وحتى بالخجل حيال تصرّف ولده، فيحمرّ وجهه هو ويستاء هو.

ولكن ماذا يحدث إذا عكستم الأدوار ولو للحظة؟ هل أنتم مستعدّون، أنتم الأهل، أن تقبّلوا، باسم اللياقة، أشخاصاً تصادفونهم بين الحين والآخر ولا تشعرون بأي ألفة تجاههم؟ كلا طبعاً! فلماذا تجبرون أولادكم إذن على التصرّف بهذه الطريقة؟ تقومون بذلك لأن أهلكم قد فعلوا ذلك معكم! لأنهم لم يحترموا ما تشعرون به وما لا تشعرون به! لأنهم أجبروكم على تقبيل السيدة العجوز التي لا تعرفونها والتي تفوح منها رائحة كريهة. كانوا بالطبع مخطئين. فالقبلة ليست علامة تهذيب أو لياقة، لكنّها دليل عاطفة. فالقبلات التي تغمرون بها ولدكم هي مظهر من مظاهر الحب. إنه العهد الذي أخذتموه على أنفسكم عند ولادته. لكنكم، فجأة، تطلبون منه أن «يقبّل السيّدة»، أي أن يُظهر حبّاً تجاه شخص لا يمثّل شيئاً مطلقاً في عينيه. هذا أمر لا يستطيع أن يفهمه. في ذهنه، أنتم تطلبون منه أن يحب تحت الطلب.

والقبلة الاجتماعية في كل ذلك؟

بالرغم من طابعها البروتوكولي، تظلّ هذه القبلة علامة على وجود ودّ وتعاطف حيال الآخر. نحن لا نقبّل أيّاً كان في أي ظرف كان، ولا نقبّل خصوصاً أشخاصاً نشعر حيالهم بالنفور. لذلك فمن الجوهري احترام الولد وعفويته، حتى وإن كان لا يتقن فن الشكليّات وقواعد اللياقة والأدب ليتجاوز نفوره أو حذره الفطري.

علّموا أولادكم كيف يحمون أنفسهم

إن احترام الطفل لانفعالاته ومشاعره حيال الكبار الذين يقابلهم يعني السماح له بتنمية قدرته على فهم الآخرين وبالتالي عدم كبتها أو معاكستها. وتسمح له هذه المقدرة، الضرورية في بناء العلاقات الاجتماعية، بتفادي التصرّف بحميميّة زائدة مع الآخرين. فيتعلّم الولد الحذر وعدم الركض وراء أي كان بحجة أن السيّد أو السيّد لطيفان معه. عندما نعلّمه الإصغاء وأخذ مشاعره بعين الاعتبار، نعلّمه أن يحمي نفسه. ففي زمن تنتشر فيه الإساءة الجنسية بحق الأطفال انتشار النار في الهشيم، من الضروري أن نعلّم أولادنا بأن «الجميع ليسوا بالضرورة لطفاء!». من غير المجدي تعليم ذلك لأطفالنا بخطب إصلاحية طويلة لن يفهموها، خصوصاً إذا كانوا لا يزالون صغاراً. بالمقابل يمكنكم أن تقترحوا على الطفل تقبيل السيّدة، إذا كنتم متمسّكين بذلك، ولكن من دون أن تفرضوا عليه ذلك. هو مَن يقرّر. يمكنكم أن تقولوا مثلاً: «حان وقت الذهاب، تعالي ودّعي السيّدة يا حبيبتي». على كل حال (ولا بدّ أنكم لاحظتم ذلك قبلاً) إذا شعر ولدكم بالرغبة في تقبيل الشخص الذي تودّعونه، فسيفعل ذلك تلقائياً.

مهما يكن موقف الولد، فمن الضروري احترام خياره، خصوصاً إذا كان غير راغب في «تقبيل السيّدة»، وحتى وإن تعلّق الأمر بأحد أفراد الأسرة أو بصديق قديم. مهما تكن أسبابه، فإن الطريقة التي يرى بها الولد الشخص الذي يُفترض تقبيله وإحساسَه به مختلفان تماماً عما تشعرون به أنتم، وليس من المفروض أن يكون شعوره مطابقاً لشعوركم. وإن كان لا يزال صغيراً، لا يكاد يطال مسكة الباب، فهو كائن بشري كامل. لذلك فمن الضروري أن تحترموا مشاعره.

مخاطر القبلة القسرية

عندما تجبرون ولدكم على «تقبيل السيّدة»، فإنكم تؤثرون بذلك سلباً على علاقاته بالآخرين. إذا خضع الولد للإكراه و«قبّل السيدة»، فإنه يكبت مشاعره، كما لو أنه يطمرها في التراب كيلا يحسّ بها بعد ذلك. إنه لا يحترم ذاته كما لا يحترمه الشخص الراشد الذي أجبره على ذلك. فتنطبع في نفسه، بتأثير من إكراه الوالد (أو الوالدة) له، فكرة أنه لا يستحق هذا الاحترام.

وعندما يصبح الخضوع واحتقار الذات أمرين «طبيعيين» في ذهن الولد، يفقد القدرة على حماية نفسه من التصرّفات المشبوهة التي من المفترض أن يراها سلبية وحتى خطرة عليه ـ والتي من المفترض أن يرفضها غريزياً فتصبح مقبولة لديه. إن إجباره على إعطاء تلك القبلة اللعينة للسيدة أو للسيد، يضعف خطوط دفاعه.

والحقيقة هي أن الأولاد الذين ينتزع منهم الكبار احترامهم لذاتهم يصبحون الضحايا المحتملين لمرتكبي الجرائم الجنسية بحق الأطفال. وهذا ليس صدفة.

«كوننا لا نقبّل بعضنا لا يعني أننا لا نحب بعضنا!»

- ماما، لماذا لا تقبّلان أنت وبابا بعضكما أبداً؟ سأل جان بيار (5 سنوات) قلِقاً.
- تعلم يا جان بيار أن كوننا لا نقبّل بعضنا لا يعني أننا لا نحب بعضنا!
- إذن لماذا في عيد ميلاد كريستوف، كان أبوه يقبّل أمه باستمرار؟
- كل شخص يعبّر عن حبّه بطريقته!
- إذن لماذا في المساء تتشاجران دائماً في الغرفة؟
- إذا كنا نتشاجر، فهذا لا يعني أننا لا نحب بعضنا! بين الرجل وزوجته، من الطبيعي أن تحدث مشاجرات بين الحين والآخر.
- والدا كريستوف لا يتشاجران أبداً! هذا ما قاله لي هو.
- كل الأهل ليسوا متشابهين يا جان بيار، لحسن الحظ
- قولي لي ماما، لماذا أنت لا تقبّلينني أبداً؟

القبلة هي ميثاق حب يجمع بين أفراد العائلة الواحدة. وغياب الاحتكاك أو الملامسة الجسدية هو دليل على وجود مشكلة واقعة تؤدّي بالولد إلى التحصّن والانعزال في قلعة منيعة، هي قالب يعيد فيه تشكيل طبعه حتى يخرج منه أشبه بولد طاغية.

الولد الطاغية

الولد الطاغية ولد ساديّ، عدائيته انعكاس لخلاف زوجي ضمني. يكره الوالدان أحدهما الآخر لكنّهما يستمّران في العيش تحت سقف واحد «للحفاظ» على تماسك الأسرة وبقائها. فلا يحدث أي شجار علني يعكّر ظاهر العلاقات التي تربط بين أفراد الأسرة. كل شيء ثقيل ومستتر وسرّي، مثل غطاء رصاصي محكم

الإغلاق لا يترك شيئاً ينفذ إلى الخارج. فيختنق الولد في هذا الجو المسكون بالأشياء التي لا تُقال وباللوم. ونظراً إلى أن الولد لا يستطيع تقويض أسس هذا الإطار العائلي الشاذّ الخانق، سيمارس انتقامه على المجتمع بدلاً من عائلته. وقد يكون الولد الطاغية بذرة إرهابي أو مريض نفسي هو ثمرة الكره الوالدي. إن التلاعب بالمعلومات في هذا النوع من العائلات يمرّ بالكذب والتظاهر والخبث والمواربة والكتمان. إنه جو لا يُطاق، فالحب فيه مجرّد كذبة وتمثيلية، وشعور خبيث لا يُعبَّر عنه إلاّ لإرضاء الآخرين. ينطلق الولد الطاغية في حملة من الجرائم والارتكابات الخارجة عن القانون لكي يتطهّر من كل ذلك البغض. وبين ارتكاب الجنح والجرائم والإرهاب، مسافة قصيرة جداً.

جميع المسؤولين عن استمالة المنتسبين الجدد وتجنيدهم في الحركات الإرهابية، يتعرّفون فطرياً إلى الولد الطاغية المستعد للتضحية بنفسه من أجل الإفلات من البغض الذي يشعر به والداه الواحد تجاه الآخر. وغالباً ما تبدو أُسر الأولاد الطغاة نقيضاً للأسر المفكّكة، كونها تبدو في ظاهرها جماعة متماسكة متلاحمة، على رأسها والدان مسؤولان لا يهتمّان إطلاقاً لمشاعرهما الخاصة.

ليس جميع الأولاد الطغاة قنابل بشرية لكنهم جميعهم ورثة اليأس الذي رافقهم في طفولتهم. لقد كبروا في البغض وليس هنالك سوى حافز واحد وراء جميع طموحاتهم: الانتقام من هذا المجتمع (العائلي) الذي أساء استقبالهم في العالم. تمتلئ المحاكم بأولاد طغاة، وقد أصبحوا راشدين، يجعلون «المجتمع» يدفع ثمن نقص الحب الذي عانوا منه في طفولتهم.

رأي لا يُلزم سوى صاحبه

إذا كنتم متردّدين في الانفصال عن شريك لا تحبّونه للمحافظة على ولدكم، فإنكم تسلكون بذلك طريق الخطأ. فلو لم يكن موجوداً لاستطعتم الانفصال وإعادة تكوين أسرة كلّ لوحده. وهذا الذنب الذي يشعر به الولد جراء ذلك يتحوّل مع الوقت إلى استياء وغيظ، وحتى إلى بغض وحقد تجاه المجتمع الذي ليس سوى صورة مكبَّرة عن والديه اللذين يريد أن ينتقم منهما في النهاية. هذا ما يفسّر الميل إلى الانتحار لدى الأولاد الطغاة وهو ميل أدركه جيداً الفاشيون من كافة الأنواع والمشارب ويجنون منه فائدة هائلة.

قلّة هي زيجات المصلحة التي تؤمّن للأولاد مستوى العاطفة الذي تؤمّنه زيجات الحب. فالأولاد في النهاية يحتاجون إلى الحب لكي ينموا ويصبحوا راشدين ومسؤولين في المجتمع الذي يستقبلهم. وغياب العاطفة عند الوالدين يولّد أولاداً طغاة. وربما من الأفضل للولد أن يعيش مع والدين مزّق أحدهما الآخر لأنهما اعتقدا أنهما متحابان، بدلاً من أن يعيش مع والدين كرها بعضهما من النظرة الأولى لأنهما أُجبرا على العيش معاً من دون حب.

الحجج التي قدّمتها الأم في مطلع هذا الباب لتبرّر غياب العاطفة هي حجج خادعة كليّاً، لكن العبارة التي تقضي تماماً على طلب الولد للحب هي «لحسن الحظ»، والتي تسدّدها الأم كشفرة المقصلة. هي فخورة لأنها لا تشبه أولئك النساء اللواتي يستجدين الحب من أزواجهن، وهو حب ترفض بشكل لا واعٍ إعطاءه لولدها لتنتقم لتفسّخ زواجها.

صباح الخير

«قل صباح الخير للسيّدة!» «سلِّم على السيّدة»

ما السبب الذي يدفعكم لتطلبوا من ولدكم الترحيب بتلك السيّدة؟ فالولد الذي يرفض أو ينسى قول صباح الخير أو إلى اللقاء لا يفعل ذلك لمضايقتكم، لكنّه يترجم فقط، وبصورة لا إرادية، انزعاجكم الخاص بين الناس وحتى نفوركم غير المعلن من أشخاص معيَّنين.

فولدكم يتصرّف وفقاً لتجربتكم الخاصة أو ما تشعرون به أنتم، فهو في النهاية نسخة مصغَّرة عمّا تمثّلونه في نظره. إذا كنتم أشخاصاً اجتماعيين، فإن ولدكم سيلقي التحية تلقائياً على السيّدة. وإذا كانت السيّدة المذكورة لا تعجبكم، فسيرفض ولدكم إلقاء التحية عليها.

ما الموقف الذي يجب اتخاذه؟

لا تقولوا له: «قل صباح الخير»، ولكن قدّموا ولدكم إلى السيّدة مهما يكن سنّه («أقدّم لك ابنتي شارلوت»)، إذا كانت لا تعرفه، ودعوا السيّدة تقوم بالخطوة الأولى. إذا تراجع ولدكم إلى الوراء عند اقتراب السيّدة منه لتقبيله، اقترحوا عليه أن يمدّ يده للمصافحة. أمّا إذا كان على معرفة مسبقة بالسيّدة ويرفض إلقاء التحية عليها، فلا تجبروه على ذلك. ترفض ابنتي الصغيرة (سنتان ونصف) في كل مرّة تقبيل الغرباء. وأنا أؤيّدها كليّاً (انظر القبلة، ص64). فالقبلة الاجتماعية تعبير عاطفي وليس مجرّد عادة روتينية. وبما أن للتحية الشفهية نفس القيمة بالنسبة للولد، فلا تجبروه على

الخضوع لعادة متوارثة من باب اللياقة تجاه أشخاص لا يعنون له شيئاً. فالولد لا يحيّي إلاّ أقرانه أو الذين يستلطفهم ويرفض إلقاء التحية على الأشخاص الذي يحسّ بأنّهم يتهدّدونه. ثقوا بحسّه الاجتماعي فهو لم يبلغ بعد درجة الرياء مثل حسّكم.

الاعتراف الاجتماعي

عندما تصبح التحية أمراً إلزامياً يتضح لنا أن الوالد (أو الوالدة) الذي يفرض على ابنه إلقاءها، يسعى بشكل خاص إلى إبراز نفسه والمحافظة على صورته الاجتماعية. فرأي الآخرين وحكمهم عليه يحدّدان تصرّفاته. ليس الوالد كوالد هو الذي يفرض على ولده إلقاء التحية، بل هو الكائن الاجتماعي الذي يسعى لتجنّب حكم الآخرين السيّئ عليه: «يا له من ولد عديم التهذيب! أباء اليوم يتغاضون عن كل شيء!». هو الكائن الاجتماعي الذي يسعى إلى أن يعترف به نظراؤه: «كم هي جميلة ومهذّبة!». فتصبح الصورة التي يتركها الطفل لدى الآخرين أكثر أهمية من شخصه هو، فتلقين فنّ الخبث هذا يضع الولد على طريق الخضوع والانقياد والاستسلام. والخبث هنا هو في الطريقة التي يتعلّم بها الولد التهذيب واللياقة. عبارة «قل صباح الخير» تشير إلى أن الولد يجب أن يطيع، حتى وإن كان غير راغب في إلقاء التحية على الشخص المزعج الذي يكشّر في وجهه مدّعياً اللطافة.

أهلَكَ نفسه

«يجب أن تهلك نفسك بالدرس لتنجح في الشهادة الثانوية».

- بونوا، هل رأيت دفتر علاماتك؟
- نعم، رأيته!
- ليس ممتازاً هذا الفصل. ماذا حدث؟
- مللت تلك الدروس!
- أفهم ألاّ تكون جميع المواد بالضرورة على ذوقك، ولكن هل تعلم ماذا ينتظرك في آخر السنة؟
- لم أنسَ!
- ستبدأ الامتحانات قريباً، يجب أن «تهلك نفسك لتنجح في البكالوريا!»
- أعلم!

الرسالة الضمنية رسالة عنيفة. سيضطر ابنكم، أو ابنتكم، إلى إهلاك نفسه فعلياً لكي يطيعكم وينجح في نيل تلك الشهادة اللعينة التي تحتاجون إليها. ثم، في وقت لاحق، بعد سنوات عدة، «سيهلك نفسه» مجدداً لإرضاء رئيسه في العمل (الوالد البديل) لئلاّ ينضم إلى قافلة المصروفين من العمل. «سيهلك نفسه بالعمل» حتى يُصاب بجلطة في القلب أو بورم سرطاني، لا سمح الله! هذه الرسالة هي بذرة الشعور بالذنب، والشعور بالذنب هو، وفقاً لبعض الباحثين في علم الأورام، أحد العوامل المساعدة على ظهور السرطان. ولكن ليس فقط السرطان! فمن يهلكون أنفسهم في العمل يمرّون بجانب الأشياء الممتعة في الحياة من دون أن يستفيدوا منها، فلا يرون ولدهم يكبر مثلاً. «كل ليلة، أحلم أن بابا يعود إلى البيت

قبل أن أنام ولكن عندما أستيقظ، لا يكون أبداً هنا»، هذا ما قالته فتاة صغيرة. «يهلك والدها نفسه في العمل» من شروق الشمس إلى مغيبها.

اختيار الكلمات

إذا كان ابنكم يحتاج «ليهلك نفسه بالدرس» لينجح في الشهادة الثانوية، فذلك لا يبشّر بالخير. إذ يعني هذا أنه لم يأخذ بزمام الأمور جيداً وانشغل بأشياء أخرى. ولكن لماذا لا تجلسون في أحد المقاهي وتناقشون الأمر معه بدلاً من توتيره (وتوتير أنفسكم) بدون جدوى؟ عندما يكون المرء في الثامنة عشرة من عمره، فلا أهمية كبيرة لسنة بالزائد أو بالناقص. ولكنكم تخافون ربما من خسارة هذه السنة من حياتكم أنتم. إنه التباس بسيط بين حياة ولدكم وحياتكم أنتم. هذه أمور تحدث.

حظ، لا حظ

«... عاد يبلّل فراشه مجدداً. حظّنا سيّئ حقاً». هذا ما تقوله إحدى الأمهات شاكيةً، وقد أحبطها تبولّ ابنها في الفراش.

آباء سيئو الحظ، أبناء تعساء!

تتلخّص المسألة كلّها بهذه الكلمات. الآباء الذين يشتكون دائماً من «سوء الحظ» يربّون أولاداً غير مرتاحين مع أنفسهم، ففي النهاية، الولد سرّ أبيه، أليس كذلك؟ مهما يكن سبب تبوّله اللاإرادي المستمر أو تبرّزه اللاإرادي المقزّز في الليل، فهو إشارة يحاول الولد إيصالها إليكم. إنه لا يحتمل سماعكم تندبون حظّكم طوال النهار بدلاً من أن تحيطوه بالأمان العاطفي الذي هو بأشد الحاجة إليه لكي يكبر وينمو. ولكن، قد لا ترغبون ربما في رؤيته يكبر. بشكل لا واعٍ، طبعاً!

اختيار الكلمات

بدلاً من «أن تلعنوا حظكم السيء وتندبوه» طوال النهار قولوا لولدكم الحقيقة. قولوا له مثلاً: «حظّنا سعيد جداً لأن وَلَدنا بصحّة جيدة». فما التبوّل في الفراش أمام مرض خلقي أو وراثي نادر لا علاج له؟ يجب تبديل غطاء السرير وتهوية الغرفة؟ أين المشكلة؟ قوموا بذلك من دون انتحاب أو شكوى. اطلبوا منه أن يساعدكم، فهذه طريقة لطيفة لجعله يحسّ بالمسؤولية. لا تضخموا الأمور وتجعلوا من الحبّة قبّة. يحتاج ولدكم للإحساس بقيمته؛ ويحلم بأن يطمئنه والداه قدر المستطاع. بعدم إيلائكم أهمية كبرى للتبوّل في

الفراش، تحصلون في النهاية على مفاجأة سارّة عندما يقضي أول ليلة له من دون بلل.

لكثرة ما يسمع الولد أن حظ والديه سيّئ معه أو بسببه، يتشرّب فكرة أنه مصدر إزعاج ومتاعب لوالديه أكثر مما هو مصدر رضا وسرور، حتّى يصيبهما بسوء الطالع، بشكل من الأشكال...

وقد تصبح هذه العبارة «مسبّباً للحوادث»، إذ يسعى ولدكم إلى معاقبة نفسه لكونه سبب سوء حظّكم أنتم.

> «الكلمة أقوى مخدّر يستخدمه البشر».
>
> روديارد كيلنغ

مقرف

«أنت مقرف حقاً!» تصرخ إحدى الأمهات وقد أغضبها إلحاح ابنها المتواصل في السوبرماركت.

سلطة والديّة ضائعة

من الضروري تفادي مثل هذه العبارات مهما كان الظرف، فهي تُنزِل مرتبة الوالد أو الوالدة إلى مستوى رفيق السوء.

الكلام البذيء هو تعبير انفعالي سلبي يريح قائله ولكنه لا يريح بالتأكيد الشخص المستهدف، ولا سيّما إذا كان هذا الشخص هو ولدكم.

يمكن استخدام الكلمة بصورة عرضية من دون أن يتسبّب ذلك بأضرار جانبية. أمّا جعل مثل هذا الكلام عادة لغوية، فناتج عن نقص في الوعي التربوي. وهو نقص سيقع على رؤوسكم عندما يصبح صغيركم في سن المراهقة. فمَن يزرع الريح يحصد العاصفة!

الإذلال ليس تربية

إن الوالد (أو الوالدة) الذي يستخدم كلاماً بذيئاً لإسكات ولده يخلق عنده شعوراً قوياً بأنه منبوذ، إضافة إلى شعور بالذل والخزي. ينبذ الوالد ابنه بعنف لأنه اعتمد سلوكاً أزعجه هو فيبعده عنه كشيء مقرف. «بما أنني مقرف، سأتصرّف بطريقة مقرفة!»، هذه هي الرسالة التي تنطبع في شخصية الولد الانفعالية. وقد يدخل الولد في دوّامة جهنّمية من الاستفزاز والتحدّي حيال أهله، قد تصل إلى حد معاقبتهم على إساءاتهم الكلامية تجاهه، فيرتكب جنحاً وجرائم يتحمّلون هم مسؤوليتها. فإذا أقدمتم على إذلال ولدكم، توقّعوا أن تدفعوا الثمن عاجلاً أم آجلاً.

عاطل عن العمل

لا يجب أن تُفرض الدراسة بل أن تُعرض في إطار حوار.

«إن لم تدرس، تصبح عاطلاً عن العمل!»

تهديدات تقضي على مصداقية الوالدين

إذا كان ولدكم ينال العلامات السيّئة بالجملة وينبذ المدرسة بشدّة فلا حاجة إلى أي تنظير أو تحليل من أجل معرفة الأسباب الكامنة وراء فشله: إنه يعاقبكم. يعاقبكم لأمور شتّى، منها عدم إمضائكم الوقت الكافي معه وذلك بخدش أنانيتكم الأبوية. وهذه أول مظاهر تلاعب الولد بأهله.

«إذا حصلت على علامات جيّدة سنكون فخورين بك»، يقول ذلك الأب بكل زهو وأنانية. والمعنى المضمَر هو: «تملقّني ولا تجرح كبريائي!». لكنّ الولد، الذي يطالب بحقّه في الحصول على مساعدة فاعلة من والديه، يعترض بقوله: «هذا آخر همّ على قلبي!». لم يؤخذ شعوره هو بالفخر في عين الاعتبار. وقد يكون مستعدّاً لتقديم هذه الهدية الصغيرة لوالديه إذا ما تصرّفا كوالدين مسؤولين. إذ يبدو لي واضحاً أن النتائج المدرسية تتوقّف بدرجة كبيرة على مدى الوقت الذي يكرّسه الأهل لأولادهم والجهد الذي يبذلونه في سبيلهم وعلى انفتاحهم على حوار حقيقي معهم. الأحكام المسبقة ليست كفيلة بتحفيزهم. والتهديدات السخيفة من نوع: «إذا لم تدرس، تصبح عاطلاً عن العمل»، تقلّل من مصداقية الوالدين. فابنكم المراهق يعرف جيداً أن الدراسة والشهادات لا تبعد شبح البطالة.

كيف نخرج من المأزق؟

يجب ألاّ نفرض موضوع الدراسة على الولد، إنما عرضه عليه في إطار حوار عائلي يهدف إلى تحفيز الولد أكثر ممّا يهدف إلى محاولة تحميله المسؤولية حيال مستقبل مهني هو بالنسبة إليه افتراضي مثل ألعاب الفيديو التي يلهو بها. ولكن ماذا عن الهدايا في كل هذا؟ عندما تقدّمون لعبة لولدكم، يجب ألاّ تكون مرتبطة بأي حال من الأحوال بشرط يُفترض به تنفيذه. المكافأة غير المتوقّعة أكثر تحفيزاً من «تلك» المُعلن عنها. إذا حصل على علامات جيدة نتيجة الجهد الذي بذله والوقت الذي خصّصتموه لمساعدته في واجباته المدرسية، وإذا أمسك بزمام أموره وانكب على دراسته من دون أن تضطروا إلى توبيخه، كافئوه من دون سابق إنذار! سيعلم بهذه الطريقة أن كل جهد يبذله سيُقدَّر بطريقة أو بأخرى، من دون إخضاع هذا الجهد لشرط مسبَق. إن هذا الولد الذي كان يعاني الأمرّين عند كتابة فرض الرياضيات أو الذي كنتم تخجلون من خطّه، سيغير سريعاً طريقة تصرّفه. سيقبل بلعب دور التلميذ بشيء من الرضى والسرور إن لم يكن بكل رضى وسرور. إن تحقيق الذات لدى ولدكم هو محرّك نجاحه المدرسي. هذا هو السرّ! فإذا حاولتم تحقيق ذاتكم من خلال ولدكم، فلن يحصد سوى الفشل أو أنصاف النجاحات، وهذا الفشل سيكون فشلكم أنتم وليس فشله هو. وسيعاقبكم على «عدم تقديم المساعدة لشخص في خطر»... الرسوب! وبالتالي سيعاقبكم بدلاً من أن يدعكم تتذوقون فرحة نجاحاته المدرسية.

اختيار الكلمات

كيف نحفّز الولد بالكلام؟ ابدأوا بإعلامه أنه إذا احتاج إلى مساعدتكم فأنتم مستعدّون لتقديمها. فمن الضروري أن يدرك ويستوعب أن دوركم هو مساعدته ودعمه وأنكم مهتّمون بما يفعله في المدرسة. يقول المثل: «في الاتحاد قوّة». ولأن ولدكم يعلم أن باستطاعته الاتّكال عليكم سيشعر بالطمأنينة. هذا أمر واقعي ملموس، يعد بنمو أكيد واحتمالات عديدة أكثر من المستقبل غير المؤكّد الذي كنتم تهدّدونه به: «إن لم تدرس، تصبح عاطلاً عن العمل». انطلاقاً من ذلك، يصبح مستعداً لمواجهة أي عقبات مدرسية. ليس الوقت الذي ستخصّصونه له مهمّاً بقدر نوعية المساعدة التي ستقدّمونها له. اهتمام الوالدين ومساعدتهما الفاعلة يؤمّنان الطاقة الأساسية التي تشغّل محرّك نجاح الولد.

واضح

«هل هذا واضح؟»

- لن تذهبي إلى السهرة. واضح؟ سيعلّمك هذا كيف تحضرين لي دفاتر علامات سيئة! ستبقين في البيت وتنظفين جميع الغرف. واضح؟

– ولكن، ماما، لا يمكنك أن تمنعيني من الذهاب...

– كلا، لن تخرجي، واضح؟

– ما...

– هل كلامي واضح؟ كلامي واضح؟»

تكرّر هذه الأم المستاءة هذه الجملة مرّتين في وجه ابنتها، وهي مراهقة في السادسة عشرة من العمر تعشق Star Academy.

لقد سمعت عدّة أحاديث من هذا النوع بين هذه الأم وابنتها، ويمكنني أن أقول لكم إنني لم أسمع أحداً في حياتي يكرّر كلمة «واضح» إلى هذا الحد. هذه العادة الكلامية شائعة جداً ولكن عندما يصل الأمر إلى هذا الحد، يصبح من المستحيل تجاهله. والمثير أكثر للدهشة هو العلاقة بين تصرّفات الأم وهذا الفيروس الكلامي. فهي لا تتمتع على ما يبدو بالكفاءة اللازمة في مهمتها التربوية ولم تعد تعرف كيف تتصرّف لتحفيز ابنتها على الدراسة.

العمى العاطفي

«هل هذا واضح؟» عبارة اصطلاحية تصبح من أعراض التشوّش الذهني، عندما تتكرّر باستمرار. تحاول الأم تلمّس طريقها في الضباب التربوي بقدر ما تسمح الرؤية. وتكرار كلمة «واضح» هو مؤشّر إلى وجود علاقة متوترة بين الأم وابنتها. فتتأرجح هذه

الأم بين الاستبداد والتساهل فتمنع ابنتها حيناً عن هوايتها المفضّلة، وتقدّم لها حيناً آخر المال اللازم لمتابعة دروس في الغناء، مع أن سنتها الدراسية لم تكن جيدة إطلاقاً. لن تأتي أي من هذه التصرّفات المتطرّفة بالنتائج المرجوّة، ولن تتحسّن النتائج المدرسية. باستخدامها لتلك العبارة الاصطلاحية، تمتنع الأم كليّاً عن إعادة النظر في تصرّفاتها. فالصيغ الكلامية من نوع «هذا بديهي» و«بالتأكيد» و«تماماً»، هي محطّات كلام لا طعم لها ولا رائحة، تعيق كافة محاولات التواصل. وهذا التلوّث الذي يلحق بخطاب الأم يؤدّي إلى «حوار طُرشان». وتبقى الصلات بين الأم وابنتها سطحية ومن دون أي مشاركة في الانفعالات والعواطف. يعود أصل مشكلة هذه الأم وابنتها إلى وجود عمى عاطفي حقيقي.

اختيار الكلمات

الأمر واضح، ولكن هل يكون واضحاً فعلاً؟ في إطار كلام مشوّش وحكم غير واضح على الأمور تصبح هذه العبارة محطّ كلام عند الأهل الذين يستمعون لأولادهم بشكل سطحي. لذلك فمن الضروري أن يتوقّفوا عن تكرار هذه الجمل («هذا واضح، «هذا بديهي»، «بالتأكيد»، «تماماً») في سياق كلامهم لكي يتمكنوا، أخيراً، من الرؤية بوضوح والعودة مجدّداً إلى الطريق المؤدّية إلى تواصل عاطفي يعزُّز الجو العائلي. احرصوا على عدم التفوّه بهذه العبارة كلّما اندفعت إلى شفاهكم، فتختفي بشكل طبيعي وتدريجي من كلامكم! فالكلمة توجّه السلوك. وبإلغاء الكلمة، نلغي تدريجياً السلوك. لا شيء أبسط من ذلك!

مِثل

«ستصبح أصلع مثل أبيك»
«إذا استمرّيت في التهام السكاكر، ستصبحين بدينة مثل أمك!»

اللعنة العائلية

تشكّل هذه العبارات جزءاً من كلاسيكيّات اللعنة العائلية. إنها لعنات تهدف إلى التلاعب بطبيعة الولد العميقة. وفي الكثير من الأحوال، يؤدّي تكرار هذه الرسائل للأسف إلى مآسي حقيقية في سن الرشد.

«اللعنة على الكلمات التي ننطق بها»

«ستصبح أصلع مثل أبيك» تعني في الواقع أن الأم تلوم نفسها على زواجها من رجل أصلع وتحمّل ابنها مسؤولية فشلها. والمعنى الضمني لهذه الجملة هو: «إذا أردتَ أن أحبك، لا تصبح نسخة طبق الأصل عن والدك الغبي». إذا نظرنا إلى الأمر من هذه الزاوية، نرى أن هذا الكلام ليس مجرّداً من الخطورة. فالكلمات التي نطقت بها الأم ملعونة بالنسبة إلى الولد الذي تلقّاها. فإذا أصبح شبيه والده، فَقَدَ حبّ أمه. والتلاعب الذي تمارسه الأم هو قاس وشرير.

«إذا استمرّيت في التهام السكاكر، ستصبحين بدينة مثل أمّك»

هذه العبارة شبيهة بسابقتها. فالأب هنا يوضح لابنته أنه لم يعد يحب أمها. وإذا كان الوالدان منفصلين فتأثير هذه الرسالة يكون أقل ضرراً، في المبدأ. بالمقابل، إذا كان الوالدان يعيشان تحت

سقف واحد، فالأضرار النفسية التي تنتج عن هذه العبارة جسيمة جداً. يهدّد الأب ابنته بالنبذ والإبعاد إن حدث وأصبحت مثل والدتها، مع سكاكر أو بدونها. فيشعر الولد بهذا النبذ كانفصام عاطفي مساوٍ لحالة طلاق. لا سيّما أن الوالد هو الرجل المثالي بالنسبة إلى ابنته، ويشكّل تلقائياً مثال الرجال الذين قد تقع في حبّهم في المستقبل.

إنه ابتزاز بارع يمكن أن يؤدّي في الحالات المتطرّفة إلى إصابة الفتاة بفقدان الشهية المرضي anorexia أو إلى اعتماد عادات غذائية مضرّة بالصحة هدفها التعويض عن نقص العاطفة عند الأب. ليست الكلمات مجرّد خواء. وما يدخل في أذن لا يخرج أبداً من الأذن الأخرى لأنه، بين الأذنين، هنالك دماغ يفكّر وآخر يحسّ.

«تمثّلي بي، أنا أمّك!»

«كنَّ مئة امرأة، من أعمار مختلفة وأوساط مختلفة، لكنهن كنّ جميعهن متفقات على أمر واحد: لقد سجنتهنّ أمهاتهن بكلمات وأي كلمات!! (. . .) لقد سجنتهن بشكل لا واعٍ بواسطة أحلامهن الشخصية في ما يتعلّق بالأنوثة».

تلك الكلمات التي تسجننا

هذا يعني في الواقع أن الأم قد نقلت إلى ابنتها المثال الأنثوي الذي تريدها أن تتمثل به وقد جعلت من ذلك انعكاساً لمبادئها وقيمها العاطفية والذهنية الشخصية التي تعتبرها أساسية ولا يمكن تجاوزها. كيف يمكن للأمر أن يكون غير ذلك عندما ترى الأم نفسها من خلال ابنتها؟ ما تقوله ليس موجّهاً فقط للطفلة التي أنجبتها ولكن أيضاً للطفلة التي كانتها: «أنا أمّك، إذن أنا هي أنت!».

«هذه اليخنة لذيذة! كلي! بدلاً من أن تحلمي»، هذه جملة يمكن فهمها بطريقة أخرى: «لقد طبختُ هذه الوجبة اللذيذة لنا نحن الاثنتين ومن المفروض أن تحبّيها، لأن ما يسعدني يجب بالضرورة أن يسعدك». يجب أن يأكل الولد بشهية مكافأةً لجهد أمّه في الطهو وتطلب الأم مقابل عملها اعترافاً بالجميل وتشجيعاً. هذه الرغبة لدى الأم في أن يعترف ولدها بجميلها تخبّئ وراءها رغبة أخرى، وهي أن يسعى ولدها إلى التشبّه بها. هي تحلم بأن تكون مثالاً لولدها، ونموذجاً يُقتدى به. يجب أن يشعر الولد بالإعجاب والتقدير حيال أمّه وألاّ يتمنّى سوى شيء واحد وهو بلوغ المثال الذي تجسّده. أمّا الأب فيبقى صامتاً يتناول بسرور اليخنة «اللذيذة»، وهو يشاهد في الوقت نفسه نشرة الأخبار المسائية. هو ليس معنيّاً بما يدور بين الأم الطاغية المتعسّفة والابنة الواقعة ضحية سوء المعاملة. إنه التشبّه القسري! ليست الابنة سوى نسخة عن أمها، شخص مستنسخ عن الأم. ليس لها الحق في أن تكون شخصاً كاملاً، بل ينحصر حقّها في أن تشبه صورة ساذجة لأمّها.

اختيار الكلمات

أنت لست المثال الذي يجب أن يُقتدى به وابنتك ليست كائناً مستنسخاً عنك بل شخصاً آخر فريداً في كلّ مكوناته. إذا كنت عاجزة عن التسليم بهذه الحقيقة، استعدّي (عاجلاً أم آجلاً) لمواجهة تمرّد قد ينتهي بإقصائك من حياتها. عندما تصبح ابنتك راشدة ستقطع جميع الجسور التي تربطها بك كيلا تضطر بعد ذلك إلى التشبّه بك. لن يقتصر الأمر فقط على عدم رؤيتك لابنتك، فأنت أيضاً لن تسمعي بعد ذلك أي شيء عنها. امدحيها على ما تختلف فيه عنك، على مؤهّلاتها التي لم يسعفك الحظ في امتلاكها! أظهري

لها فخرك بتفرّدها وتميُّزها ولا تقولي لها بعد اليوم إن ما يعجبك أنت هو أيضاً مطابق لذوقها من دون أن تستشيريها مسبقاً. وأهم من هذا كلّه، لا تجعليها تتبع مثالك. كوني النموذج الذي لها الحرّية في التشرّب منه ولكن الذي يحظًّر عليها أن تنسخه.

ستفهم

«أنا أجد أن القول لطفل «ستفهم عندما تصبح كبيراً» هو أمر رهيب!»

«ستفهم عندما تصبح كبيراً!»

هل يجب قول كل شي للأولاد بحجة أنه يجب عدم إخفاء أي شيء عنهم، من الهموم الصغيرة إلى المآسي الكبيرة في عالم الكبار؟ هل يرغب الأولاد في معرفة كل شيء؟ هل هم مسلّحون لسماع كل شيء؟

«الولد الذي يطرح سؤالاً في موضوع معيّن ليس في أي حال من الأحوال أصغر من أن يتطرّق لهذا الموضوع، لكنّ الأم تكون عجوزاً في ذهنها بحيث لا تتذكّر أنها هي أيضاً أرادت أن تفهم... وأنها هي أيضاً قد طرحت الأسئلة...».

كان فرانسوا وماري كلود مستغرقين في حديث هام. فقد أخبرت ماري كلود زوجها للتو أنها حامل. وكانت ابنتهما مورغان (3 سنوات) تلعب في الغرفة المجاورة، حيث التقطت بعض مقتطفات من حديثهما. فسألت والديها وقد ثار فضولها: «ماذا يعني حامل»؟

– يعني أنني سأنجب طفلاً، يا مورغان. سيصبح لديك أخت صغيرة أو أخ صغير، يا حبيبتي!

– طفل! ولكن، أين هو الطفل؟

– في بطني، يا حبيبتي.

– في بطنك! أريد أن أراه.

– يجب أن نصبر عدّة أشهر قبل أن تريه، يا صغيرتي. لكنّك ستتمكنين بعد وقت قليل من الإحساس به وهو يتحرّك.

– كيف فعل الطفل ليدخل بطنك؟

قاطعها الوالد وقد نفد صبره لهذا السيل المتواصل من الأسئلة:

– مورغان، يا حبيبتي، إني منهمك في الحديث مع الماما. إنها مسائل تخصّ الكبار. أنت ما زلت صغيرة جداً، ستفهمين عندما تصبحين كبيرة! عودي للعب في غرفتك.

هل الذكاء حكر على الراشدين؟

هذا النوع من العبارات: «أنت صغير جداً، ستفهم عندما تصبح كبيراً»، يُنزل الولد إلى مستوى الأبله. بهذه الكلمات، نكبت فضوله الطبيعي. وتعبّر هذه الصيغة الكلامية عن رفض اعتباره كائناً يتمتّع بملكة الذكاء. عبارة «أنت ما زلت صغيراً جداً» عبارة تُدخل في ذهن الطفل فكرة أنه لم يصبح بعد كبيراً بما فيه الكفاية ليطّلع على سر والديه. ولأنه صغير، ينبذه الكبير. تُظهر هذه الرسالة بشكل واضح عدم وجود إرادة لدى الأهل لتنشيط فضول أولادهم. لا يبذل الوالد من نفسه لكي يكبر ولده، لأنه في الواقع لا يرغب في رؤيته يكبر. لماذا هذه الفرملة؟ للحؤول دون تباري الولد مع والديه ومقارنة نفسه بهما، لئلا يضاهي الولد أهله ويصبح ألمع منهم. تدلّ الجملة على أن الوالدين لا يريدان النزول من عليائهما وتعني ضمناً أنك إذا كنت صغيراً فأنت غبي لأن الذكاء حكر على الكبار. الكبير هو بالتالي أعلى مقاماً من الصغير ومتفوّق عليه. ولا جدوى من أن يُنزل من مقامه لتفسير أي شيء لشخص غير قادر على فهم كلامه.

الخوف من التعرّض للسخرية

يُبعد الكبير الولد كيلا يخجل من قلّة مهارته التربوية. فهو لا يريد أن يبدو مثيراً للسخرية في نظر ولده. لذلك، فمن الأفضل، وإرضاءً لغروره وكبريائه، القول بأن الطفل غير قادر على الفهم بدلاً

من الإجابة على سؤاله بـ«لا أعلم!». يتفادى الوالد (أو الوالدة) الإجابة عن السؤال كيلا يواجه عدداً كبيراً من الأسئلة قد تجعله في حالة ارتباك. لا يريد أن يجازف بفقدان مكانته بانكشاف أمره أمام نفاذ بصر الولد؛ ولا يريد الإساءة إلى صورته أمام نفسه. لذلك، سيبقى الولد دائماً أصغر من أن يقدر على الفهم. إنها صيغة كلامية نموذجية لدى الوالدين المستبدّين اللذين لا يهتمان مطلقاً لنمو شخصية ولدهما.

فضول مكبوح

الطفل الذي لا يُعطى الحق بأن يكبر هو طفل لا مستقبل له. تأمّلوا في هذه الجملة: «ستفهم عندما تصبح كبيراً»، إنها تحمّل مسؤولية كبيرة للوالدين اللذين يستخدمانها «للتخلّص» من هذا الفضول الطفولي. عندما أرسل والد مورغان ابنته إلى غرفتها بدلاً من أن يشرح لها ما الذي جعل بطن أمها يكبر، فقد طردها من الجنة. ويصعب تقدير عواقب هذا التصرّف. إن الوصول إلى المعرفة هو حجر الزاوية في الديموقراطية. ومنع الوصول إلى الحقيقة يعزّز تشكّل المجتمعات المغلقة على تطوّر الإدراك. الولد الذي يُمنع من إشباع فضوله المشروع، يصبح في ما بعد راشداً غير مهتم بمشاكل مجتمعه، فيستسلم ولا يقوى على التمرّد في وجه الظلم ويصبح في الكثير من الأحوال أولى ضحاياه وعندما يحين موعد الانتخابات، سيمتنع عن الإدلاء بصوته لأنه لن يكون قد كبر بما فيه الكفاية لفهم اللعبة السياسية.

اختيار الكلمات

اشرحوا لابنكم أنكم منشغلون في الوقت الحاضر وطمئنوه

بأنكم ستعطونه جواباً عن سؤاله ما إن تنتهوا من الحديث!

«لا يمكنك أن تفهم»

المعنى الضمني هنا هو: ما زلتَ صغيراً جداً، أو قليل الخبرة، لكي أتكبّد عناء تفسير الأمر لك. وبكل بساطة يتفادى الكبير مشقّة الشرح الطويل. خصوصاً وأنه يمكننا أن نتساءل كيف كنتم ستدبّرون أمركم لشرح المسألة لولدكم في حين أنكم لم تفهموا أنتم أنفسكم أي شيء منها. ما استوعبتموه فكرياً، يمكنكم بسهولة إعادة وضعه في متناول الجميع. ولكنّ الأمر الذي لم تفهموه جيداً أو الذي يشعركم بالخجل سيؤدّي بالضرورة إلى هذا النوع من الدفاع برفض الإجابة عن السؤال. «ماما، هل صحيح أن بابا يصنع الأطفال «بحمامته؟» في ذهن الولد، بول الأب هو العنصر المخصب في حين أن البول وسخ في النهاية.

اختيار الكلمات

كيف نشرح له أن هنالك قناة منوية تسدّ مجرى البول وتسمح للمني بالمرور عبر فتحة، مما يسمح بتكوّن أخ صغير له أو أخت صغيرة؟ ربما يمكننا أن نرسم له صورة، بكل بساطة. لستم ماهرين في الرسم؟ هنالك كتب ممتازة مناسبة لعمره يمكنها توجيه شروحاتكم المرتبكة. إذا كنتم تشعرون بالخجل حيال كل ما يتعلّق بالجنس، فهذا ما سيشعر به ولدكم أيضاً. إذا رفضتم الإجابة عن أسئلته، قد تعيقون آلية الفهم عنده، وهي أداة لا غنى عنها لتسهيل عملية التعلّم في إطار المدرسة. هكذا، تصبحون في أساس إخفاقاته اللاحقة، لأنكم غير قادرين على أن تشرحوا له كيف ولماذا.

«أحاول أن أفهمك»

المحاولة هي إيلاء أقل قدر ممكن من الاهتمام والجهد، إن لم نقل إنها الفشل بحد نفسه. فالوالد (أو الوالدة) الذي حاول فهم ولده هو الذي يقتصر جهده على قول هذا الكلام ولا يتعدّاه إلى فهم ولده. إنه يريح ضميره. إذا حدث لكم أن حاولتم فهم ولدكم، أدركوا الخداع الكلامي الذي تنطقون به، وقولوا له عوضاً عن ذلك أنكم ترغبون في فهمه. اعترفوا بجهلكم وسيقدّركم لهذه الصراحة.

كانت أمي تردّد كثيراً هذه الجملة على مسمعي: «أحاول أن أفهمك». لم نفهم بعضنا يوماً ولا بد لي أن أقول أنه لم يكن هنالك الكثير من التفاهم والحب بيننا. كانت أمي السبب الأساسي في جميع الحماقات الكبيرة التي ارتكبتها في فترة مراهقتي.

اعتمدَ، اتكّل (على)

«إني أعتمد عليك»

- حبيبتي، لدي موعد مع المحاسب في الرابعة، وليس لدي وقت كاف لإفراغ صناديق الكتب وترتيبها في المكتبة. هل يمكنك إكمال العمل من دوني؟
- أجل، ماما!
- الآن وقد أصبحت تتقنين القراءة، سيكون ذلك سهلاً بالنسبة إليك! قد تجدين أيضاً قصة تعجبك! هل يمكنني الاعتماد عليك؟
- طبعاً، ماما!
- لا تنسي أننا مدعوون الليلة للعشاء عند آل لوفيفر.
- أجل، لم أنسَ!
- ستكون سهرة ممتعة! حسناً، يجب أن أذهب وإلاّ سوف أتأخّر. أعتمد عليك بخصوص المكتبة. إلى اللقاء!

تحايل لطيف

الوالد (أو الوالدة) الذي «يعتمد على» ابنه أو ابنته، بغضّ النظر عن العمل الذي يجب القيام به، تهمّه في الواقع الفائدة التي يجنيها هو من هذا العمل أكثر من الفعل أو التصرّف الذي يقوم به الولد: سواء أكانت هذه الفائدة توفير الوقت، أو التخفيف من العمل أو التخلّص من المسألة المعيقة، الخ. يعتبر الوالد ابنه ندّاً ومساوياً له، ويكافئه بالاعتماد عليه، فيفوّضه بعضاً من المسؤوليات التي تؤول عادة إليه (إلى الأب) ويعتبره أهلاً بالثقة في حين أنه لا يزال طفلاً. في عملية التلاعب والتحايل اللطيفة هذه، المهم هو الفائدة التي سيجنيها الشخص الراشد من العمل الذي يقوم به الولد وليس

الولد بحد ذاته. من دون مساهمة الابنة في العمل، لن تتمكّن الأم من إتمام برنامج عملها في ذلك اليوم. ولو اعترفت لها أنها بحاجة فعلاً إلى مساعدتها بدلاً من قول «أعتمد عليك»، لكانت كافأت ابنتها بدلاً من التلاعب بها بهذه الطريقة الدبلوماسية. كما أن جملة «أعتمد عليك» قد تبدو أحياناً كإنذار نهائي: إن لم ترضيني تماماً، لن أطلب منك أي شيء بعد اليوم.

اختيار الكلمات

الاعتماد على شخص يعني أيضاً الاستفادة من خدماته من دون الاضطرار إلى مكافأة جهده إلاّ ببعض التشجيع. الوالد (أو الوالدة) الذي يعتمد على ولده من دون أن يقرّ بحاجته إليه، أو من دون أن يكافئه بشكل عملي ملموس، يتصرّف مثل المحتال في المسرحيات الكوميدية: يريد كل شيء من دون مقابل، وهو لا يساوي شيئاً على الإطلاق. بدلاً من أن تقولوا لولدكم: «أنا أعتمد عليك يا بنيّ»، قولوا له: «إني أحتاج إلى مساعدتك»، فيرى طلبكم للنجدة كواجب مقدّس.

أبله، مغفّل، غبي

«هل أنت بلهاء أم ماذا؟»

يتعلّم الأولاد سريعاً استخدام هذه الكلمة. عندما يصرخونها لبعضهم البعض في ملعب المدرسة، لا يؤدّي ذلك إلى أي عواقب خطيرة. ولكن عندما تجعل الأم منها محطّ كلام لتتنزل من قيمة ابنتها، في السرّ أو في العلن، تصبح هذه الرسالة أشبه بقنبلة موقوتة تتحمّل كل من الأم والابنة أضرارها عندما يحين وقت انفجارها.

احزروا من هي الأكثر «غباء» بين الاثنتين؟

إن الإكثار من استخدام كلمة «غبي» أو «أبله» يشير إلى وجود اضطراب عاطفي نفسي عند الوالدين، يمكنه أن يؤدّي إلى إصابة الولد بنقص عاطفي شديد الخطورة. في وقت لاحق، ستملأ الفتاة جسمها لملء هذا الفراغ من خلال البوليميا bulimia، (الشراهة المرضية) أو تجبر نفسها على التقيّؤ لإفراغ الحِمل الزائد الذي تشكلّه كلمات «بلهاء» و«مغفّلة» و«غبية» التي أمطرتها بها أمّها (من خلال فقدان الشهية المرضي anorexia). لا أحد براء من الكلمات التي يستخدمها، وما من أب (أو أم) براء من الاضطرابات النفسية التي يعاني منها ولده. وكما الفتاة كذلك الفتى، فالفتى الذي يسمع والده يصفه بالأبله ليس بحال أفضل من الفتاة. إلاّ أن العواقب تكون مختلفة على الصعيد النفسي المَرَضي، حيث إن المصدر الأبوي لهذه الرسالة يخلق الجو المثالي لنمو العنف والتوتر في العلاقة بين الأب وابنه، وهي مواجهة لن يخرج منها الأب منتصراً. ولا الابن أيضاً، على كل حال! فالبلاهة، أو الغباء، وصمة تولّد الكثير من

المشاكل. وسرعان ما يتوجّه هذا العنف ضد كافة أنواع السلطة التي يواجهها الولد: المدرسة، اللباس الموحَّد، القوانين، إلخ.

لقد شهدت بنفسي علاقة من هذا النوع بين أم وابنتها، التي تبلغ السادسة أو السابعة من العمر. لو كانت عينا الفتاة بندقيّتين لكانت الأم خرّت صريعة من حينها. انعصر قلبي ألماً لما حدث لتلك الفتاة، ولكن هل كان من حقي أن أتدخّل؟ كنت أودّ حقاً أن أتدخّل، وما كنت لأمنع نفسي لو أن الأم رفعت يدها لتضرب ابنتها. لكنّ عدوانية الأم كانت محض كلامية. ولم أستطع سوى أن أتفرّج على ما حدث وأهتمّ بشؤوني.

اختيار الكلمات

يمكنكم ربما استخدام مثل هذه المفردات بخصوص الزملاء في العمل أو بعض الرفاق ولكن يجب الامتناع كلياً عن استعمالها للإشارة إلى أولادكم، أيّاً تكن الصعوبات التربوية التي تواجهونها معهم. فعلى هذا الصعيد من التواصل، تكون عبارة «أبله» أو «غبي» كلمة قاتلة.

ضد

مَن ليس ضدّك، فهو ليس بالضرورة معك.

«لست ضد...»

دعا ابنكم صديقته الجديدة إلى الغداء في البيت يوم الأحد القادم. وقد سرّكم الخبر، فقد يكون قد وجد أخيراً نصفه الآخر. خصوصاً وأنه يبلغ قريباً السابعة والعشرين من العمر وتحلمون برؤيته متزوجاً. جرى الغداء على خير ما يرام. وقد راح الجميع يطرحون الأسئلة التي تُطرح عادة في مثل هذه الحالات:

– ماذا تعملين في الحياة؟

– ما هي مشاريعك؟

– أين تسكنين؟

وهنالك سؤال لا يبارح ذهنك وتتردّد في طرحه، لكنّك تطرحه أخيراً ببعض الارتباك:

– كم سنّك؟

– 37 سنة!

الشابة ممتازة على جميع الأصعدة، فهي جذّابة وذكية ووضعها المهني جيّد وتبدو مغرمة جداً بابنكم: إنها الكنّة المثالية ـ أو شبه المثالية. ولكن عندما يأتي الشاب إلى أبيه ليسأله رأيه سرّاً، يجيبه هذا الأخير: «ليس لدي شيء ضدها! إنها فاتنة!»

ليس لديكم شيء ضدّها، سوى السنين العشر التي تفصلها عن ابنكم. عشر سنين هي في ذهنكم الصحراء الكبرى أو المحيط الأطلسي! لقد رسمتم لنفسكم صورة مختلفة لكِنّة المستقبل لكنكم لا تجرؤون على قول ذلك، فسعادة ولدكم على المحك.

ماذا يعني هذا الخداع الكلامي؟

لستم ضد وضع أو فكرة أو مشروع أو ثقافة أو شخص، الخ. فلماذا إذن لا تعطون موافقتكم الصريحة؟ في الحقيقة، أنتم لا تؤيّدون تماماً هذا الوضع. فلماذا إذن لا تؤكّدون معارضتكم له؟ «لست ضدّ» تساوي «لست مع». ليس لديكم أسباب تجعلكم تقفون مع هذا الوضع. ليست لديكم أي مصلحة شخصية في هذا المشروع وليس لديكم أي شيء مشترك مع الثقافة المذكورة ولا تشعرون بأي صلة أو تناغم مع ذلك الشخص، الخ. لكنّكم لا تملكون أيضاً أي أسباب تجعلكم معارضين لهذا الوضع، فلا أحد يسيء إليكم ويقلّل من احترامكم أو يشك بمعتقداتكم ونزاهتكم، الخ. في أعماق أنفسكم، كنتم تتصوّرون الأشياء على نحو مختلف.

وعندما تخرج من شفتيكم «لست ضد» تحصل خيبة الأمل من دون سابق إنذار، وتحطّم آمالكم وتهشّمها. لذلك فإنكم تموّهون خيبة الأمل هذه بقول «لست ضدّ» التي تعني «لقد خاب أملي لكنّي هادئ مطمئن». كيف يمكن للمرء أن يكون هادئاً مطمئناً وخائب الأمل في آن؟ إنهما شعوران لا يتساكنان مطلقاً! لا يبقى أمامكم عندئذ سوى الغش وركن تطلّعاتكم جانباً ولعب دور المتسامح المتساهل: «أنا لا أشاركك رأيك، لكنّني منفتح الذهن واسع الأفق!». إنكم تخفضون أعينكم بدلاً من النظر مباشرة في عينَي قناعاتكم وآرائكم الراسخة. طريقة تصرّفكم خادعة احتيالية.

ما لا تقولونه صراحة ينم عن إحباط. إنها وسيلة الدفاع الوحيدة المتوفّرة لكم التي تسمح لكم بطرد شعوركم بعدم الرضا أبعد ما يمكن عنكم. وإذا أضفتم إلى تلك الجملة كلمة استدراكية على نحو: «لست ضد **ولكن**...» يخنق التلوّث الكلامي الذي

يخرج من فمكم حماسة ولدكم على الفور.

اختيار الكلمات

«أنا لا أشاركك الرأي لأنني أجد هذه المرأة كبيرة بالنسبة إليك». يمكنكم أيضاً التعبير عن عدم موافقتكم أمام الفتاة، لكنّكم بذلك تجعلون منها عدوة لكم. أظن أن هنالك طريقة أسهل لحل المشكلة التي تواجهونها. إذا كان ولدكم قد تعلّق بامرأة تكبره بعشر سنوات، فهذا لأنه يشعر ربما بالحاجة إلى الدخول في علاقة تسمح له بالنضج العاطفي مع أم بديلة. هذا أيضاً برهان على حبّه لأمه. بزواجه من هذه المرأة الأكبر منه سناً، يتزوّج بديلة عن أمه. وماذا في ذلك؟ إن الشعور بالأمان العاطفي هو أحد العناصر الأساسية التي تؤمّن تماسك العلاقة العاطفية وديمومتها وبقاءها. فالمرأة التي تؤمّن الأمان العاطفي لشريكها يمكنها أن تتأكّد من أن هذا الأخير لن يتركها أبداً من أجل فتاة لعوب، أيّاً تكن الظروف التي قد تواجه الزوجين. ويصحّ ذلك أيضاً عندما تتزوّج امرأة شابة برجل في سن والدها أو عندما يكون الزوجان طبعاً من الجيل نفسه.

تشجَّع، قوِّ قلبك

«تشجَّع يا حبيبي!»

- وليام، ارتدِ معطفك بسرعة، يجب أن نذهب يا حبيبي!
- إلى أين، ماما؟
- سأصطحبك إلى المدرسة، طبعاً!

أنزلت الأم ابنها أمام صفّه بعدما حضنته وقبّلته. وقالت له مثل كل يوم: «تشجَّع، يا حبيبي!»

تشجَّع، أو قوّ قلبك: إنها العبارة المفضّلة لدى الأشخاص الميّالين إلى الاكتئاب الذين يُلبسون الآخرين مشاعرهم. وهي أيضاً لازمة كلامية يردّدها الراشد المراهق، الذي خرجت حياته من حلم الطفولة غير الناضج لتدخل مباشرة في عالم رشد غير متوقَّع وغير مشجِّع، فاكتشف أن الحياة لا تعطي أي شيء مجاناً. «تشجَّع لأنني لم أعد أملك الشجاعة!» فهل تعيد هذه العبارة للمرء قواه في فترات الأزمات؟ لقد لاحظت أن هذه العبارة تُستعمل أكثر فأكثر منذ بعض الوقت، ولكن لا يمكن اعتبار ذلك حقيقة عامة. الأمّهات اللواتي يستخدمن «تشجّع» بشكل متكرّر هنّ بالطبع نساء ميّالات إلى الاكتئاب. هذا الاكتئاب سببه رد فعل محدود على أزمة معيّنة: انفصال، مرض، فقدان الوظيفة أو إفلاس الخ. العبارة هي إسقاط المشاعر الشخصية على الغير، هي طلب مقنَّع للمشاركة في الصعوبات.

اختيار الكلمات

إذا كنتم ممن يستخدمون هذه العبارة، فمن الضروري إلغاؤها

من حديثكم مع ولدكم، فهي تؤثّر سلباً على طاقته. تمنّوا له مثلاً أن يقضي نهاراً طيّباً، ولكن لا تذكروا الشجاعة التي تنقصكم. فقد تأتي عواقب هذه العبارة الصباحية ضارة جداً بالنسبة إلى رغبات ولدكم (حوافز، طموحات). فهو معرّض إلى رؤية حياته كشخص راشد عبر زجاج اكتئابكم، ومطابقة حياته المستقبلية مع المحنة الشديدة التي تعيشونها. ولا أظن أن هذا هو نوع الهدايا التي ترغبون في تقديمها له.

آمَنَ، اعتقد، صدّق

«إني مؤمن بقدرات ابنك»

آمَنَ، الفعل ذو الوجوه المتعدّدة

لا يحمل هذا الفعل دائماً المعنى نفسه، فأحياناً يكون محمّلاً بطاقة إيجابية وأحياناً أخرى يكون محمّلاً بطاقة سلبية محطِّمة ومحبطة إذا ما استُخدم هذا الفعل بالنفي وحمل معنى الشك.

ماتيو شاب يحمل شهادة في القانون والأدب الحديث واللغات الأجنبية، يبحث عن مجال مهني يتمكّن من النمو فيه وكسب رزقه. لقد أمضى ستة أشهر في مكتب كاتب عدل وأربعة أشهر في مركز لإعادة تأهيل الشباب الجانحين وإعادة دمجهم في المجتمع، وثمانية أشهر في شركة معلوماتية، وهو لا يزال متعطّشاً لتوسيع معرفته لكنّه لم يجد بعد المهنة المناسبة له. فتسجّل في صف للمسرح ليأخذ استراحة قصيرة من بحثه المتواصل. وفجأةً سطعت موهبته في التمثيل وفرضت نفسها عليه. أمّا أستاذه فرانسيس، وهو ممثّل قديم مخضرم، فلم تسعه الفرحه: أخيراً وجد اللؤلؤة النادرة. برهن الأستاذ لتلميذه «بالوقائع والأرقام» أنه قد خُلق للتمثيل وأقنعه بدخول عالم الفن. تقول والدة ماتيو، التي لم تكن ترى أبداً مستقبل ونَدها من هذه الزاوية: «إنها مهنة غير مستقرّة! كيف سيكسب رزقه؟ هنالك الكثير من البطالة في هذا المجال!»

– سيّدة لوروا، توقّفي عن القلق، إنها حياة ابنك لا حياتك أنت، وقد نجح تماماً في تدبّر أمره حتى الآن! لديه قدرة مدهشة على التكيّف، أنت تعرفين ذلك أكثر مني. بالمقابل، ما لا تعرفينه هو أن المسرح يجري في عروقه، إنه ممثّل بالفطرة، لقد خُلق لهذه المهنة! أنا أدرّس التمثيل منذ أكثر من عشرين سنة ولقد مرّ عليّ

ممثلون مقبولون وآخرون رديئون جداً، ولكنّ الممثلين بمثل موهبة ابنك لا يتعدّون عدد أصابع اليد الواحدة! سيّدة لوروا، إنّي مؤمن بابنك! وبالموهبة التي لديه وإني مقتنع كليّاً أنه بالتدريب المناسب، سيلقى مستقبلاً باهراً!

رضخت والدة ماتيو لرغبة ولدها، فيَقين الأستاذ الراسخ قد تغلّب على اعتراضاتها. تركت السيدة لوروا ابنها يرتقي خشبات المسارح في جميع أنحاء البلد طوال سنوات عدّة. وقد وصل ماتيو إلى مصاف الكبار في هذا المجال وأصبح مخرجاً يكتشف بدوره المواهب الجديدة.

عندما ينقل فعل «**آمن**» الإيمان ويبثّ اليقين يصبح عندئذ محمَّلاً بطاقة منتِجة. لكنّ هذه الطاقة المنتجة يمكن أن تصبح طاقة محطِّمة بمجرّد أن يكبت فعل «آمَنَ» الإيمانَ ويستبدله بالشكّ: «لا أؤمن بقدرتي على النجاح».

موازين القوى الكلامية

على غرار أي وضع آخر تتواجه فيه شخصيتان مسيطرتان، تسيطر إحدى الشخصيتين فيما تضطر الأخرى إلى الخضوع. ويصحّ هذا عند الحيوان وعند الإنسان على حد سواء. ويخضع أيضاً عالم الكلام لهذه القاعدة نفسها. إذ لا يمكن لفعلين يحملان طاقة منتِجة مسيطرة أن يتواجدا معاً في الجملة نفسها من دون تشويهها. وذلك لأن أحدهما يجب أن يسيطر والآخر يجب أن يخضع. وهذا ما يحدث في مَثَلنا: «أعتقد أني سأنجح». يتحوّل فعل «أعتقد»، الذي يحمل طاقة منتجة إلى فعلٍ مشكك بمجرّد وجوده قرب فعل «نجح»، فيعطي معنى الشك. ويُترجم ذلك بـ: «أعتقد أنني سأنجح ولكنّني، في قرارة نفسي، لست أكيداً من ذلك إطلاقاً. إلاّ أنني أفضّل الاعتقاد بدلاً من مواجهة شكوكي.

«أعتقد أني على حق!»

– أعتقد أني على حق!

– أنت متأكّدة أم تعتقدين؟

– لا أفهم الفرق. بالطبع أنا على حقّ بما أني أعتقد أني على حق.

فما كان من الأمر إلاّ أن زاد الطين بلّة!

– سأترجم وضعك النفسي: لستُ متأكّدة إطلاقاً مما أقول. أحاول أن أبدو مقتنعة، حتى وإن كنت لا أعرف الكلمات المناسبة. إذا كنت فعلاً على حق، فلماذا أشكّ بذلك؟

من دون تعليق!

«لا أصدّق!»

كلّما أصيبت تلك الأم بالدهشة، صرخت: «لا أصدّق!» للتعبير عن اعتراضها واستيائها. يرتكب ولدها الحماقات بالجملة وهي تكرّر دونما كلل: «لا أصدّق». فهي ترفض كلامياً أن تصدّق ما تراه، أمّا ابنها فيرتكب الحماقة تلو الأخرى لكي تتمكّن أمّه أخيراً من أن تصدّق. فالأولاد لا يحبون أن نجعلهم غير واقعيين باستخدام هذا النوع من العبارات. ما يفعله الولد جدير بالانتباه، هذا ما يعتقده هو. وعندما ترفض والدته تصديق ما تراه، وتقول ذلك بصوتٍ عال، يضطر إلى تكرار الحماقة لكي تبدّل رأيها. (انظر أيضاً في معقول «غير معقول!» ص228).

«صدّقني، لن تنجح أبداً إذا لم تعمل جيداً»، يقول الأب للمرّة الألف موجّهاً كلامه لابنه الكسول

إن استخدام فعل «صدّق» على هذا النحو محبط جداً، حتى وإن كانت بقية الجملة تنطوي على حقيقة. صحيح أنه يجب أن

نعمل لكي ننجح، لا شك في ذلك. ولكن لماذا يضيف الأب إذن كلمة «صدّقني» المثيرة للشفقة؟ يتكلّم الأب في الفراغ، وهو يعلم ذلك. فابنه يعيد سنته الدراسية لكنّه لا يبذل أي جهد لتعويض تأخره الدراسي. واستخدام فعل «صدّق» في مستهلّ توبيخه يعزّز الشكّ في ذهن ولده. إنه يحثّه بطريقة خرقاء تفتقر إلى المهارة على العمل لتعويض النقص لكنّه يعني في الوقت نفسه: «صدّقني، لن تنجح...». وتفرغ بقية الجملة من تأثيرها نتيجة إدراك الشاب حقيقة الأمر. فوالده يريده أن يعمل لكنّه لا يُرفق هذا الفرض الواجب بطريقة عمل أو مساعدة فعّالة تسمح له بالدرس بشكل فعّال. ينتظر الابن من أبيه أن يتدخّل مباشرة، أمّا الأب فيشبك أصابعه غير مصدّق أو مؤمن بإمكانية النجاح، ويتجاهل طلب ابنه للمساعدة. إنه يُبعد عن نفسه أي شعور بالذنب، مثل جميع الآباء الذين لا يفعلون سوى إسداء النصح، أولئك الآباء المخادعين.

اختيار الكلمات

كيف نتجنّب التصادم المباشر؟ ننصحكم باستبدال «صدّق» بـ: «يبدو لي أن...». يمكنكم مثلاً القول: «يبدو لي أنك مخطىء»، فهي جملة أقل عدوانية حيال ولدكم وأقل خبثاً بالنسبة لقناعاتكم. يجب حماية ما نؤمن به والتخلّص من صيغة المتكلّم لتفادي التصادم مع شخصية الشاب العنيدة. «يبدو» فعلٌ لا فاعل محدّد له (الأب مثلاً) وفعل «بدا» أقل إكراهاً وإلزاماً من فعل «صدّق» الذي يثقل حمله. أعلم ماذا ستقولون... لكنّ هذا ليس مكراً أبوياً بل دبلوماسية عائلية.

نتساءَل

«أتساءل لماذا لم تقل لنا الحقيقة»

- قل لي، بيار، عيد ميلاد صديقك جان سيُقام بين عيد الميلاد ورأس السنة، أليس كذلك؟
- مم! أجل بابا، لماذا؟
- لأنك قلت لي أمس إنك ذاهب إلى بيته للاحتفال بعيد ميلاده! أذكرّك أننا ما زلنا في شهر أيلول!
- أنا، قلت ذلك؟! مم...! لا بد أنني لم أعبّر بشكل جيّد. اتفقنا أنا وجان على الذهاب معاً إلى حفلة عيد ميلاد صديق لنا... وذهبت إلى بيته لأصطحبه... هذا كل شيء.
- جاء جان إلى هنا البارحة بعد الظهر ليمضي بعض الوقت معك... أتساءل لماذا لم تقل لنا الحقيقة، بيار؟

الشخص الذي يتساءل بهذه الطريقة، لا يطرح أبداً أي سؤال على ولده، إنما على نفسه فقط، ويستشير نفسه في حلقة مقفلة، نافياً أي اهتمام بالشخص المعني بالدرجة الأولى: ألا وهو ولده. «أتساءل لماذا لم تقل لنا الحقيقة». يسأل الوالد نفسه بصوت عال، وينتظر الإجابة من نفسه. وإذا حاول الولد الإجابة أو التدخّل فلن يأخذ الوالد ذلك بعين الاعتبار لأنه لم يطلب رأي ولده بشكل صريح. الوالد (أو الوالدة) الذي «يتساءل» يدور في فلك ذاته. والحقيقة الوحيدة التي تهمّه هي كبرياؤه.

«كنت أتساءل إذا...»

- كنت أتساءل إذا كان بمقدورك أن تساعدني... جوليان.
- كنتُ أودّ ذلك بابا، لكنّك أتيت في وقت غير مناسب! اتفقنا أنا والأصحاب على الذهاب إلى السينما.

افترّت شفتا المراهق عن ابتسامة هي أقرب ما تكون إلى التكشيرة. ابتسامة حملت شيئاً من الازدراء! ثم أدار ظهره لوالده وراح يحدّق بزجاج نافذة المطبخ المغشّى بالبخار. لم يقل الأب شيئاً، بل نهض عن الطاولة وارتدى سترته القديمة قائلاً في نفسه إن سلطته على ابنه معدومة تماماً.

لا يتصوّر الأب لا من قريب ولا من بعيد أن عادته الكلامية ـ «أتساءل» ـ هي في أساس هذا الوضع. لا يجرؤ الأب على فرض شخصيته وطلب مساعدة ابنه بصورة مباشرة. إنه ينطلق من ذاته (أتساءل) ليجد الشجاعة اللازمة لمواجهة ابنه. وهذا ما يفسّر الرفض القاطع الذي ردّ به المراهق!

مشكلة في التواصل

إن الولد الذي يكبر بين والدين يتساءلان دائماً من دون أن يتوجّها إليه بالكلام، يواجه في ما بعد مشكلة تواصل حقيقية، وصعوبات كبيرة في التعامل مع محيطه. سيبدو له المجتمع كياناً هائلاً يتفاعل داخلياً مع نفسه ولا يعيره أي اهتمام. فينعزل في عالم موازٍ يقوم فيه بفحص مشاعره وحالاته الداخلية ويغرق في أحلامه. إلاّ أن الأهل من هذا النوع هم، لحسن الحظ، نادرون. فنرى دائماً أحد الوالدين يهتم بالمتاعب والمشاكل الصغيرة في الحياة اليومية. أمّا الشريك الذي «يتساءل»، فينبذه أولاده عاطفياً في مرحلة المراهقة.

كيف نغيّر مسار الأمور؟

إذا كنتم تعتقدون أن هذه الصورة تنطبق أحياناً عليكم، انتبهوا جيداً لما تقولونه بدلاً من التكلّم بصورة آلية. أصغوا إلى أنفسكم

جيداً عندما تتكلّمون قبل أن يفوت الأوان! في الوضع المثالي، يجب أن تظهر كل كلمة وكل جملة تتفوّهون بها على شاشتكم الذهنية قبل أن تنطقوا بها. هذا في الوضع المثالي، لكن الواقع بعيد، بعيد جداً عادة عن هذا المثال.

نصيحة أخيرة

تجنّبوا التساؤل والتكلّم مع أنفسكم، فنتيجتها الوحيدة هي الانقطاع عن أولادكم. افتحوا أذنيكم جيداً عندما يتحدّث ولدكم إليكم، فالكلمات التي تتجاوز حدود شفتيه موجّهة إليكم فقط. تلقّوها بكل الانتباه والاهتمام الذي تستحقّه.

> **الخطأ الكلامي ليس مجرّد خطأ بحق الكلام نفسه، إنما هو خطيئة بحق النفوس.**
>
> **أفلاطون، فيدون**

عجّل، أسرع، بسرعة

«أسرِع وانهِ طعامك! أسرعِ سيفوتك الباص! عجِّل! يجب أن نعود إلى البيت!»

- آدريان، أسرِع والبس ثيابك، ستتأخّر على المدرسة.
- أجل، ماما.
- هل انتهيت؟
- على وشك!
- أسرِع، اذهب إلى المائدة.
- حالاً ماما.
- آدريان، يمرّ الباص بعد ربع ساعة، أنهِ طعامك بسرعة....

السيّد «فعل سريع» والسيدة «عمل رديء» أنجبا ولداً

يسرّ بابا «فعل سريع» وماما «عمل رديء» إعلان ولادة ابنهما: «أسرِع!»

عندما نسرع في عمل الأشياء، لا نهتم بالتفاصيل وننفّذ الأمور عادة بشكل سيّئ. الوالدان المستعجلان هما والدان متوتّران مضغوطان، قطعا خط الوصول قبل أن ينطلقا في السباق، الذي لا يشترك فيه سواهما. يجب الإسراع دائماً معهما، الإسراع للتقيّد بالوقت وعدم التأخّر على المواعيد. ولكن عندما نسرع ونركض، ننسى دائماً شيئاً مهمّاً. «آخر مرّة، نسينا مفاتيح الشقة في الداخل بينما كنّا جميعاً على الدرج». الوالدان «فعل سريع وعمل رديء» هما ساعتان بشريتان. لكنهما دائماً متأخّران وعادة مستعجلان خوفاً من عدم الوصول إلى مواعيدهما في الوقت المحدّد. لا يحتاج الأهل الذين يعرفون كيف ينظّمون وقتهم إلى دفع أولادهم وحثّهم

على الاستعجال، فهم يستبقون الأمور ويتركون دائماً هامشاً للمناورة. ويصلون عادة باكراً إلى مواعيدهم.

اختيار الكلمات

لكثرة ما تستعجلون الأمور، تفسدون إيقاع ولدكم، وهو إيقاع لا يتطابق بالضرورة مع طريقتكم في فهم الوقت. إذا أردتم أن يحترمكم ولدكم، احترموا إيقاع حياته ولا تفرضوا عليه أبداً إيقاعكم الخاص. ويعني هذا أنكم يجب أن تتكيّفوا مع إيقاعه هو، لا أن تجبروه على اللحاق بكم. «أسرع» و«استعجل» فعلان ينتميان إلى مفردات عدم الإنجاز. إذا اعتبرتم أنه من الأفضل لولدكم أن يكون مبادراً وفاعلاً في حياته، توقّفوا عن توتيره ودعوه يقوم بمختلف شؤون الحياة بإيقاعه هو.

آسِف، متأسِّف

«آسفة، لكنني لن أقبل بأن تترك غرفتك في مثل هذه الفوضى!»

الأسف مرادف للألم والحزن والأسى. ولغة الأسف والأسى هي لغة أحد الأمراض العصابية، ويظهر هذا المرض على شكل اضطرابات في وظائف الجسم. الأهل الذين يتأسّفون بانتظام يطالبون أولادهم بسلوك مسؤول، ما إن يصبح هؤلاء قادرين على التواصل بالكلام. يحاولون التعويض عن كل حماقة يرتكبها الولد كما لو أنها حادثاً شديد الخطورة. والولد الذي يخضع لهذا النظام يصبح غير قادر على المبادرة ويسعى للامّحاء من أمام والده (أو والدته) المتأسّف، أو لمحو كلام هذا الأخير كلّما وجّه إليه الكلام.

اختيار الكلمات

لا تتأسّفوا كلّما كان لديكم ما توبّخون عليه أولادكم. «آسف، ولكن يجب أن ترتّب غرفتك» يمكن أن تُقال بطريقة أخرى: «أريدك أن ترتّب غرفتك». اثبتوا في مواقفكم، ولا تلجأوا إلى التأسّف. فالفوضى في غرفته لم تصبكم بالتأكيد بأي ألم أو أسى أو أسف! افرضوا عليه ترتيب غرفته وسيطيعكم! في جميع الأحوال، حتى وإن لم يطعكم فعلى الأقل لن يحمي نفسه منكم لكي يتمكّن من أن يكبر.

قال

«أقول لك إن الحق معي!» قال الوالد غاضباً

فعل عدم الثقة بالنفس

إذا كان الحق معكم، فما الداعي لأن تقولوا له ذلك؟ يكفي أن تقولوا: «معي حق!» أمّا إذا كنتم تشعرون بحاجة ملحّة إلى «قول» ذلك، فذلك لأنكم غير مقتنعين في قرارة أنفسكم بأن الحق معكم. ربما لم تُظهروا ما يكفي من الاقتناع لكي يصدّقكم ولدكم ولا يطعن في صحة ما تقولونه. لم تؤثّر فيه حججكم، وتشعرون بأنه لم يسمعكم والأسوأ من ذلك أنه لم يصغِ إليكم حتى. لكنّكم تصرّون! فتلجأون إلى فعل «قال» لتسندوا كلامَكم به. وحتى وإن كان الحق معكم فعلاً، فإن إضافتكم لهذا الفعل تبثّ عدم الثقة فيكم. فتذهب حججكم سدى، سواء كنتم على حق أم لا.

القول أو عدم القول، هل تلك هي المسألة؟

إذا كنتم على حق، فلا جدوى من تأكيد ذلك بالكلام. قولوا له ما يجب أن يسمعه واتركوا له الخيار ليصدّقكم أو لا. الشخص الذي «يقول» هو عادة غير واثق من نفسه، ولديه الانطباع دائماً بأن مُحادِثه يسمعه من دون أن يصغي إليه فعلاً. «أقول لك أن تكتب فروضك»، يصرخ الوالد بابنه غاضباً. استخدام غير مجدٍ هنا والوالد لا يدرك إلى أي حدّ يُضعف هذا الفعل الأمر الذي أصدره. يهدف الوالد باستخدامه هذا الفعل إلى تعزيز سلطته في نظر ولده، لكنّ هذا الأخير لا ينخدع بكلام والده، وما يستشعره هو ضعف سلطة

والده. يدرك الولد المعنى المزدوج لكلام والده ويفك رموزه، فيعي أن والده قال له أن ينجز فروضه لكنّه لم يأمره بذلك. ما يُقال لا يجب أن يُنجز بالضرورة. وما يجب أن يُنجز لا يحتاج إلى أن يُقال. الأمر بسيط جداً.

قال في نفسه

«قلت في نفسي إن الأمر لا يستأهل أن أقلقكم»

- متأسّفة جداً على التأخير! بهذه الكلمات اعتذرت الأم اللاهثة من معلّمة ابنها.

- كان بإمكانك أن تعلميني سيدتي، جُنَّ ماكسيم من القلق عندما لم تأتي لاصطحابه.

- كان من المفترض أن أتأخّر بضع دقائق فقط وقلت في نفسي إن الأمر لا يستأهل أن أقلقك بسبب خمس دقائق.

- خمس دقائق! لا بد أنك تمزحين! لقد تأخّرت نصف ساعة.

- ظرف طارىء طال أكثر من المتوقّع!

تتكلّم الأم مع نفسها مثل ذلك الذي «يتساءل». هذه طريقتها في التفكير. فهي عاجزة عن التفكير في سكون ذهنها وتفرض على الآخرين سماعها فتفكّر بصوت عال. يدلّ هذا النوع من التفكير على شخص مرتبك مشوّش تجتاح قدراتِه الفكرية فوضى مستمرّة. وَصَلَت متأخّرة نصف ساعة على خروج ابنها من المدرسة لكنها لم ترَ من المناسب أن تُعلم المدرسة بتأخّرها في حين أن لديها هاتفاً محمولاً. الأشخاص الذين «يقولون في نفسهم...» نادراً ما يكونون جديرين بالثقة ولا يمكن الاعتماد عليهم. يتواصلون في حلقة مقفلة ويفكّرون بأنفسهم في المقام الأول. يقيمون مناجاة داخلية مستمرّة مع نواياهم لكنّهم لا يتصرّفون أبداً بما يتوافق مع واجباتهم.

«أقول لك أن ترتّب...»

تبدو غرفة ستيفان دائماً وكأن عاصفة هوجاء مرّت بها، وقد طلب منه والداه أكثر من ألف مرّة أن يرتّب غرفته. لكن ستيفان (15 سنة) يعترض ويرفض الانصياع. غرفته هي مجاله، هي أرضه، ويفعل بها ما يشاء. عاد جورج (والد ستيفان) من المكتب حوالى الساعة السابعة كالعادة ودخل غرفة ابنه ليقبّله. لكنّه، اليوم، لم يستطع وضع قدمه على الأرض.

– مساء الخير، بنيّ، هل أمضيت يوماً جيداً؟ هل جرت الأمور على ما يرام في الصف؟

– مرحباً بابا، نعم، لا بأس!

– قل لي، هل رأيت غرفتك؟ هل تنوي العيش في هذه الفوضى اللعينة طويلاً بعد؟

انتفض المراهق غاضباً وقال: «لا دخل لك في ذلك! على أي حال، إنها غرفتي وأفعل بها ما أشاء!»

– قبل أن تفعل ما تشاء كما تقول، ابدأ بترتيبها!

ثم غلب الغضب الوالد الذي وبّخ ولده بعنف وصرخ قائلاً:

– ستيفان، أقول لك أن ترتّب غرفتك!

«حسناً!» أجاب ستيفان من دون أن ينهض عن سريره. لقد انعزل في قوقعته.

– ستيفان، إني أقول لك....

صورة أبوية فاقدة لقيمتها

يحاول هذا الوالد إظهار الحزم في التعامل مع ابنه، لكنّ نبرته العالية الآمرة لا تعبّر إلاّ عن خشيته من عدم طاعة ابنه له. يريد تعزيز سلطته الأبوية بترسيخ قدرته ونفوذه وقوّته: «بسلطتي كرب العائلة، أقول لك أن. . .» لكنّه بذلك يُظهر فقط عدم قدرته على فرض هذه السلطة. القول ليس فعلاً، والمراهق يفهم ذلك تماماً.

لذلك فإن ما قاله له والده ليس له أي قيمة، فقد قال له فقط أن يرتّب غرفته ولم يأمره بترتيبها.

اختيار الكلمات

توقّفوا عن «قول» ما تنتظرونه من ولدكم، عندما يتخذ موقفاً معارضاً. اشطبوا هذا الفعل من قاموسكم، فهو يسيء إلى مصداقيتكم ويضعف سلطتكم. يحترم الولد سلطتكم عندما تعبّرون عنها بوضوح وبالتالي تتحمّلون مسؤوليتها: «أريدك أن ترتّب غرفتك». في أكثر الأحيان، يجب تكرار الشيء نفسه أكثر من مئة مرّة لكي يحرّك المراهق أخيراً جسمه الكبير الأخرق، ولكن حتى وإن اضطررتم إلى تكرار الشيء نفسه أكثر من مئة مرّة، افعلوا ذلك من دون أن «تقولوه»، فتوفّرون عليكم بذلك توتّراً غير مجدٍ وسيأتي خطابكم بثماره. تدريجياً، سيقلّ عدد المرّات التي تكرّرون فيها كلامكم وستصطدمون أقل فأقل برفض ولدكم.

ستخفّفون بهذه الطريقة تواتر الخلافات المتكرّرة لأنكم ستتوقّفون عن القول بدلاً من دفعه إلى القيام بما تطلبونه.

«قلت لك إني لا أريدك أن تلمس هذا!»

يستكشف طوم (سنتان ونصف) مكتب والديه منذ خمس دقائق، بحثاً عن شيء سحري. لقد وجده أخيراً! إنها قطّاعة ورق قبضتُها على شكل رأس حصان!

- أريد هذا!

- كلا يا حبيبي، لا أريدك أن تأخذ قطّاعة الورق. ليست لعبة وأنت لا تزال صغيراً. إنه غرض خطير! قد تجرح نفسك.

- أريد هذا! قال الولد مصرّاً ورفع نفسه على رؤوس أصابعه للإمساك بقطّاعة الورق.

– كلا يا حبيبي، لا أريدك أن تمسكها وقد شرحت لك لماذا.

– ماما، أريد هذا! قال طوم مزمجراً.

– كلا!

– هذا! قال طوم ضارباً الأرض بقدميه أمام حزم أمّه، وذهب لإحضار مقعد صغير.

– طوم، كفى!

– أريد هذا! صرخ وهو يتدحرج على الأرض.

– طوم، قلت لك «لا»! صرخت الأم غاضبة.

– بلى، أريد هذا!

– قلتُ لك إني لا أريدك أن تلمس هذا!

انفجرت الأم غاضبة بعدما فرغت حججها. تشبّث طوم وهو يبكي بطاولة المكتب في حين صرخت والدته وقد بلغ بها الاستياء حدّه: «طوم، أقول لك بأن تخرج حالاً من هذه الغرفة، هذه ليست غرفة لعب!».

رفض طوم الخروج وبقي في مكانه، حتى أمسكته أمه ببنطلونه، وقد خرجت عن طورها، وأخرجته من غرفة المكتب.

امتحان الإلحاح

هل يبدو لكم هذا المشهد مألوفاً؟ ابنكم، الذي يبلغ من العمر سنتين أو ثلاث سنوات، يلحّ عليكم للحصول على غرض ممنوع عليه، فينفد صبركم وتستثار أعصابكم. لا يتراجع ولا يكفّ عن إلحاحه، وأنتم تنفجرون غاضبين: «أقول لك إني لا أريدك أن...»، الخ. لقد نجح على الأقل في شيء واحد وهو إخراجكم عن طوركم. تلك كانت غايته: امتحان سلطتكم.

وإذا اكتفيتم «بالقول» بدلاً من الأمر، داس الولد برجليه على سلطتكم المتهاوية. إنكم تعبّرون عن عجزكم عن جعله يتراجع، لا

سيّما وأنكم مثلما سترون بنفسكم، عندما تبدأون «بالقول»، تفقدون عادة رباطة جأشكم وتتركون الانفعالات تسيطر فلا تعودون أسياد الموقف.

كيف نتصرّف في مثل هذه الحالات؟

ابقوا على موقفكم الرافض: «كلا، لا أريد، لأن ذلك خطر عليك». نقطة على السطر... ولدكم يسمعكم، حتى وإن اضطررتم إلى تكرار الشيء نفسه ستين مرّة، ولا جدوى من استخدام فعل «قال»، فهو يترافق دائماً، بل يتلازم حتماً، مع تهيّج في الأعصاب. قد يكون ردّكم أن «القول» أسهل من الفعل. إني أقرّ بذلك بالطبع. لكنني أستطيع أن أؤكّد لكم، بناء على تجربتي، أن الحزم فعّال جداً. فبهذه الطريقة، يحترمكم ولدكم ويحترم سلطتكم. هنالك، بالطبع، احتمال كبير أن تنتابه بعض نوبات الغضب الشديد قبل أن يستسلم. لكنّ هذا جزء من اللعبة! وقد يحدث أحياناً أن يبوّل على الأرض لشدّة تكدّره... ليس لأنه لم يحصل على ما كان يريده في الأصل، ولكن لأنه اصطدم بسلطتكم التي لا يمكن نقضها. من المفروض أن يتراجع هو، لا أنتم. قد تعكّرون مزاجه وتخدشون كبرياءه، لكن سلطتكم تبقى كاملة وسليمة. بهذه الطريقة يتضاءل حدوث هذه المواقف الخلافية، لأن ولدكم لن يحتاج بعد ذلك إلى معارضتكم لتحدّي سلطتكم، إذ يكون قد فهم حدوده.

الغضب ليس شعوراً سلبياً

لا تشعروا بالذنب كلّما خرجتم عن طوركم لأن ولدكم أثار أعصابكم وأفقدكم الصبر. فردُّ فعلكم شرعي تماماً في النهاية أنتم بشر. وليس من السلبي على الإطلاق أن يشعر الولد أن أباه (أو أمه)

يمكنه هو أيضاً أن يشعر بنفاد الصبر والغضب وبانفعالات عنيفة. بل على العكس تماماً، من المهم أن يعلم أنه ليس الوحيد الذي يشعر بهذه الانفعالات التي تخرج أحياناً عن السيطرة. ومن المهم أيضاً ألاّ يصطدم بوالد لا يهزّه أي انفعال! ليس الغرض أن تجعلوا من ولدكم شخصاً راشداً غير قادر على التعبير عن انفعالاته، بل أن تعلّموه أنه يمكن التعامل مع هذه الانفعالات والسيطرة عليها مهما كانت عنيفة وجيّاشة. والطريقة الفضلى لنقل رسالتكم هي في تجنّب «قولها» قدر المستطاع. ولدكم ليس أصمّ وسيصغي إليكم ويطيعكم أكثر عندما تأمرونه بفعل شيء ما بدلاً من إضعاف كلامكم بمجرد «القول».

الدمية/اللعبة المفضّلة، الغرض المفضّل

«ستضيّعها إذا أخذتها معك إلى المدرسة»

كل الأشياء التي تحملونها أو ترتدونها تنتمي إلى عالمكم الجسدي والنفسي الحميم ولها قيمة عاطفية كبيرة مثل اللعبة أو الدمية المفضّلة التي يحملها طفلكم أينما ذهب: «ستضيّعها إذا أخذتها معك إلى المدرسة» أو أسوأ من ذلك: «الفتيان الأشرار سيسرقونها منك»؛ وهكذا يولد الشعور بعدم الأمان. وكلما قوي هذا الشعور، زاد تعلّق الطفل بلعبته أو دميته المفضّلة.

الشعور بالأمان

بشكل عام، تُعتبر اللعبة أو الدمية المفضّلة بالنسبة إلى الطفل أشبه بتعويذة جالبة للحظ، حيث إنه يحمّلها رائحته. وتشكّل الرائحة عنصراً أساسياً في الحياة الحيوانية. والطفل البشري لا يكون بعيداً جداً عن ذلك طالما أنه لا يمتلك بعد العناصر الأولى للتعبير الكلامي، ويفسّر ذلك سبب أهمية اللعبة المفضّلة لدى الطفل والتي يستحوذ عليها هو وحده. إنه غرض يحوّل إليه الطفل عاطفته، فهو يستخدم هذا «الغرض الانتقالي» ليُطمئن نفسه عندما يخرج من محيطه المألوف ويجد نفسه في محيط غريب يكون فيه بعيداً عن أمّه. غالباً ما يضطر الوالدان إلى إرسال ولدهما إلى الحضانة بسبب عملهما خارج البيت. ويجب التعويض عن هذا الانفصال المؤقّت بطريقة أو بأخرى، فتظهر فائدة الدمية المشبَّعة برائحة الطفل التي سيحتفظ بها هذا الأخير مهما أصبحت بالية ورثّة.

دور هذه الدمية أو الغرض الذي يتعلّق به الطفل لا يقتصر

على ذلك فحسب، فبفضل هذه اللعبة، يتعلّم الطفل كيف يتحكّم بانفعالاته السلبية، من قلق، وغضب، وخوف، إلخ... ويصبح مستقلاً في طمأنة نفسه. لا تتردّدوا في شراء قطعتين أو ثلاث من اللعبة نفسها التي يختارها طفلكم، لأنه لا بد أن يضيّعها يوماً! وعندما تختفي اللعبة، تبدأ النوبات العصبية التي تُتعب الوالدين وترهقهما.

فقدان اللعبة

في ذهن الطفل، يرتبط فقدان لعبته المفضّلة بتغيير المرحلة التي يعيشها في سياق نموّه. فيتجاذبه شعوران متناقضان: فمن جهة، يريد أن يكبر ويصبح مستقلاً. ومن جهة أخرى يريد الاحتفاظ بالامتيازات العاطفية التي يحظى بها الرضيع المتّكل كلياً على والديه. هذا التناقض أمر طبيعي جداً وعلى الأهل عدم انتقاده أو السخرية منه. فالولد هنا طفل كبير! يمكننا أيضاً رؤية الأمور من زاوية أقل مثالية، فبعض الأولاد يفقدون لعبتهم المفضّلة عن قصد. لأن فقدان هذه اللعبة يتخذ أهمية كبرى عند الوالدين اللذين يضخّمان الأمر، بحيث أن الطفل يتخلّى إرادياً عن لعبته للتلاعب بهذا الهلع وإثارة أعصاب والديه. لا ضرر حقيقي من فقدان اللعبة. ولكن إذا أحبّ الطفل رؤية تأثير فقدانه للعبة على والديه وجعل من ذلك عادة متكرّرة، فيجب الانتباه إلى عدم الدخول في لعبته وتحويله إلى طفل مستبدّ (انظر قبَل، ص69).

في المرّة الثالثة، يجب أن تتجاهلوا الأمر! علّموا طفلكم أن يتحمّل مسؤولية الحفاظ على أغراضه. يجب ألاّ تصبح هذه اللعبة موضع ابتزاز بينكم وبين طفلكم. إنها الشيء المثالي لتعليمه تحمّل المسؤولية.

اختيار الكلمات

لا تخلقوا عند الطفل خوفاً من فقدان لعبته المفضّلة بلعب دور العرّافين: «ستضيّعها...»! كونوا إيجابيين! اطرحوا عليه أسئلة عن النشاطات المفترضة التي اشتركت فيها لعبته المفضّلة. هل كانت لطيفة و«عاقلة»؟ هل أخذت قيلولتها؟ هل لعبت مع الدمى والألعاب الأخرى؟ هذه اللعبة المفضّلة هي شخصية مهمة في حياة طفلكم، فهي ترافقه أنّى ذهب. وفي أي وقت كان علّموا طفلكم، إذا أمكن، أن يضعها في مكان محدّد بحيث لا يضيّعها أبداً! تصوّروا أن هذه اللعبة هي أشبه بحقيبة اليد التي تحملها معها أمّه أينما ذهبت! نسيان الحقيبة هو تصرّف شبيه بفقدان اللعبة المفضّلة. يجب أحياناً نسيان جزء من أنفسنا من أجل اكتشاف جزء آخر. هذا هو برأيي معنى فقدان اللعبة باستمرار.

شكّ

«لا أشكّ في أنك قادر على...»

- ماما، دعاني صديقي في عطلة نهاية الأسبوع القادم للمشاركة معه في سباق الماراتون للصغار الذي تسجّل فيه. هل أستطيع الذهاب؟
- هل أنت متأكّد من أنك تملك اللياقة البدنية اللازمة للاشتراك؟
- طبعاً ماما، وإلاّ لما طلبت منك أن أشترك في السباق!
- لا أشكّ في أنك قادر على بلوغ خط النهاية، ولكن عليك أن تعلم أن الماراتون سباق مرهق جداً، حتى وإن كان مخصّصاً للصغار.
- ما جوابك ماما؟ هل يمكنني الاشتراك؟
- نعم، يمكنك، ولكن لا تأتِ للتذمّر بعد ذلك.
- شكراً ماما!

تشكيك لا حد له

لِمَ لا نقول: «أعتقد أنك قادر على...»؟ فصيغة النفي المستخدَمة في عنوان هذا المقطع هي أشد ضرراً بالنسبة إلى ثقة ولدكم بنفسه من الشكّ الحقيقي الصادق. لأننا إذا قلنا «أشك في أن تكون قادراً على...» نتحدّى الولد كي يثبت لنا أننا على خطأ. لكنّ الذين يستخدمون صيغة النفي بشكل مستمرّ ودائم يرفعون راية تشكيكهم عالياً ولا يهدف ذلك إلى التنبيه ولكن إلى التدمير. يمكنكم التشكيك صراحة بقدرات ولدكم ولكن لا تتظاهروا أبداً أنكم «لا تشكون فيها». الوالد (أو الوالدة) الذي «لا يشكّ» هو شخص محبَط نتيجة عدم مثالية أولاده وعدم كمالهم. كان يريد ولداً

كاملاً، ولداً ينتقم لإخفاقاته الشخصية. لكنّه للأسف رُزق بولد غير كامل، ولد ناقص. عندما ينهال الوالد على ابنه بشكوكه، يتعزّز هذا النقص أكثر فأكثر.

اختيار الكلمات

إذا كنتم من مستخدمي هذه الصيغة في التعبير، يجب أن تجهدوا لتغيير طريقتكم في الكلام وتصبحوا من المناضلين من أجل الإيمان والثقة: «إني متأكّدة من أنك قادر على إنهاء هذا الماراثون. ستفعل ما باستطاعتك فعله. المهم أن تتسلى وليس بالضرورة أن تربح». عندما نتكلّم بهذه الطريقة، تصبح الرسالة أكثر إيجابية. النفي هو عكس التأكيد والإيجاب والموافقة. هل خطر في بالكم أن استخدام النفي في توجّهكم إلى ولدكم هو شكل من أشكال الإعاقة؟ لا «تنفوا» أبداً ولدكم أو تنكروه، لا بالكلام ولا بغيره.

جَهْد/مجهود

«أنت سمينة جداً، لماذا لا تصلحين جسمك؟ حاولي أن تبذلي بعض الجهد!»

أشكال أخرى:

«يجب أن تبذلي بعض الجهد»

«يمكنك أن تبذلي بعض الجهد، في النهاية»

تقول ماريا مونتيسوري: «لا شيء يخمد عند الطفل الرغبة في بذل الجهد مثل الذل والإهانة اللذين يشعر بهما أمام قوّة الشخص الراشد».

الجهد! الكلمة الخادعة التي يتفوّه بها الوالد (أو الوالدة) الذي لا يبذل أي جهد حيال ولده. فالذي يدعو أولاده إلى بذل الجهد، هو غير قادر كليّاً على بذله بنفسه. فيطلب من ولده أن يكون القاطرة التي تجرّه. وغالباً ما يكون الفعل المستخدم مع كلمة «جهد» من نوع: حاول، وجب، أمكن. فالانتقاد والاتهام والتوبيخ تجعل الوالد (الوالدة) يتّخذ نبرة الرجاء. فهو لا ينصح، بل يتشكّى وينوح. إنه الوالد البكّاء الندّاب! حسّ الجهد هو أمر نكتسبه أو يتطوّر بالتشرّب. الوالد (الوالدة) الذي يوبّخ ولده وهو يركّز انتباهه على شاشة التلفزيون هو والد وهمي بقدر الصور التي تمر على شاشته. فالجهد الذي يطلبه من ولده يضيع في رمال خطابه المتحرّكة، وهو خطاب خال من القدر الأدنى من الانفعال الضروري لإيقاظ ميزة حسّ الجهد في الولد.

الأولاد الذين يُطلب منهم بذل الجهد هم أولاد يريدهم أهلهم كاملين، أولاد يكتظ برنامج أوقاتهم اليومي بالأنشطة والاهتمامات. الولد الذي يبقى جالساً في صفّه طوال النهار، ويعود إلى البيت لكتابة واجباته المدرسية، ثم ينصرف بعد ذلك إلى دروس الكمان وقراءة الموسيقى هو ولد ينتهي به الأمر إلى الانهيار. ليس لهؤلاء الأولاد أي لحظة قد يستسلمون فيها للملل، أو ثانية يحلمون فيها. فأهلهم يحرصون على ذلك، لكنّهم ينسون أخذهم إلى طبيب الأسنان للتحقّق من سلامة نمو أسنانهم.

اختيار الكلمات

يعيش الولد كل جهد يُطلب منه كضغط نفسي سلبي. تحدّوه لإنجاز شيء ما ولكن لا تطلبوا منه جهداً: «أقترح عليك تحدياً، مباراة، مسابقة...»؛ هذه الكلمات خاضعة أكثر للسيطرة وهي خصوصاً أقل توتيراً وضغطاً. المهم هو الاشتراك وليس إحراز النصر. فيصبح الجهد الوقود الضمني للتحدّي ولا يعود الهدف الصريح الواضح الذي يجب بلوغه. هل رأيتم الفرق؟ في النهاية، المسألة هي مسألة اختيار كلمات.

> «أعْطِي الكلام للإنسان ليقنّع به أفكاره»
>
> تاليران

أولاد

«هذا ليس للأولاد»

لا يوجد دائماً تبرير مقنع للحماية المفرطة التي تحيطون بها ولدكم في ما يتعلّق بالمشاهد التي يجب أن يراها أو لا يراها مما قد تعتبرونه (عن حق) مضرّاً له. وهو يشاهد مثلكم في التلفزيون العنف وعري عارضات الأزياء واستخدام الجنس في الإعلانات وموت ضحايا العمليات الانتحارية وجميع تلك الأشياء التي تشاهدونها «بلا حياء» على شاشتكم خلال نشرة الأخبار. كل هذا افتراضي، طبعاً!

ولكن لو تعلّق الأمر بفيلم خيالي مع ممثّلين، لحظّره القانون على من هم دون سنّ معينة. قولوا لابنكم: «لا أريدك أن تشاهد هذا في عمرك! ستنتابك الكوابيس». برّروا الخطر، كونوا واضحين، مهما يكن مستوى فهمه أو سنّه. لا تتحدّثوا معه وكأنه ساذج! يحتاج ولدكم إلى احترامكم، يحتاج إلى أن تأخذوا الوقت اللازم لتشرحوا له سبب منعكم إياه من مشاهدة شيء ما في التلفزيون. صيغة «ليس هذا للأولاد» جملة مقتضبة أكثر من اللازم وغير مقبولة. ومثلها عبارات: «هذا ليس للفقراء» أو «مكان محظور على السود»، فجميعها ناتج عن مبدأ الاستبعاد والإقصاء نفسه. وكثيراً ما تبدأ العنصرية باكراً جداً في الحياة. تكفي جملة واحدة أُسيء فهمها.

على بالي أن (أحلم أن)...

«على بالي أن أقول لك...»
«على بالي (أحلم) أن تنجح»

من ضعف الإرادة إلى التشكيك

على بالي لا تعني أريد! الأشخاص الضعيفو الإرادة (لديهم إرادة في النية ولكن ليس بالفعل) يستخدمون هذه العبارة بإفراط وعلى حساب فعل «أراد»، فيعرّضون إرادتهم الضعيفة إلى نيران أحلامهم التي تُطلق من جميع الاتجاهات. عندما نقول: «طبعاً على بالي، **ولكن**...» تغرق عادة بقية الجملة في سراديب التفسيرات الغامضة. يجب أن نبقى منطقيين: «على بالي أن تنجح» تعبّر ضمناً عن قلّة ثقتي في نجاحك. وتشير هذه العبارة أيضاً إلى أن هذا النجاح هو وهم يستحيل حصوله: «على بالي كثيراً... لكنني أعلم أني أحلم بصوت عالٍ».

ضعيف الإرادة لا ينتقل أبداً إلى الفعل، بل يستخدم ما على باله كثمار محرَّمة عليه. الوالد (الوالدة) الضعيف الإرادة لا يبذل من وقته ومن جهده لضمان نجاح ولده في المدرسة، فهو لم يفعل ذلك لضمان نجاحه هو. هل يكون السبب أنه لم يهضم قط فشله الشخصي في المدرسة؟ وبما أنه لم ينجح في التسامي فوق فقدانه الإرادة واستخلاص التصميم اللازم لتحقيق النجاح، فهو لا يرغب في أن يتفوّق عليه ولده. عندما يكون «على باله» فقط أن ينجح ولده فهو يتعرّض لاحتمال أقل في أن يُشعره ولده (بنجاحه) بالخجل لفشله الشخصي.

هل نحلم وننسى أن نعيش؟

يجب أن تتعلّموا مجدّداً تصريف فعل «أراد» في المضارع. فما على بالكم لن يبثّ على الأرجح النشاط والقوّة في ولدكم. استخدموا هذه العبارة عندما ترغبون في بعض الحلوى أو لرغباتكم الحسّية ولكن لا تستعملوها أبداً للتعبير عمّا ترغبون فيه لأولادكم!. كثرة تكرار «على بالي أن. . .» أمام الولد ستجعل منه عندما يكبر شخصاً حالماً وميّالاً إلى الشرود أو كما يقول الإنكليز daydreamer أي (حرفيّاً، «حالم في النهار»)، يحلم في حياته بدلاً من أن يعيش أحلامه. إنه يستحق أفضل من ذلك.

ولكن يمكننا أيضاً تفسير هذه العبارة في سياق آخر.

«على بالي أن تجرّبي هذا الثوب»

يجب عدم الخلط بين «على بالي» و«أرغب» أو «أريد». «على بالي» هي جملة نموذجية لدى أصحاب التفكير غير الناضج. «على بالي» هي بكلام آخر «كنت أودّ لو»!. الوالد (الوالدة) القلق والعصبي والعصابي بعض الشيء هو والد تخطر أمور كثيرة «على باله. . .» لكنّه لا «يريد» صراحةً أيّاً منها. تصوّروا هذه الجملة التي قالتها امرأة شابة تزوّجت حديثاً: «على بالي طفل»، ألاّ تصدمكم الجملة؟ تبدو وكأنها تريد قطعة حلوى.

وما يكون على البال يكون مدعاة غيرة وحسد. الأم التي على بالها أن تجرّب ابنتها ذلك الثوب تنقل رغباتها إلى ابنتها؛ على بالها أن تكون مكانها. إنها أم تملّكية متسلّطة تخبّئ خلف صلابتها وقسوتها في أغلب الأحيان هشاشة نفسية عاطفية كبيرة. قد نشعر أنه على بالنا أن نقوم بشيء يُسعد صديقاً، أو ندلّل أولادنا، الخ. هذه

الرغبات ليست سوى نوايا حافزها الحاجة إلى إرضاء الذات في المقام الأول. وتأتي مصلحة الآخر في المكان الثاني. الحسد هو الشعور بالأسف لأننا لسنا في مكان الآخر، لا تنسوا ذلك!

ولكن إذا شعرتم أنه على بالكم أن تقولوا لي إني أعقّد الأمور، قولوا لي ذلك من دون اتخاذ أي مواربة بالعودة إلى مثلنا الأوّل. «على بالي أن تجرّبي هذا الثوب» تعني أيضاً: «إني أحسدك لأنك قادرة على تجربة هذا الثوب». قد تفهم ابنتكم الرسالة على هذا النحو.

اختيار الكلمات

لا تقولوا أبداً «على بالي» بل «أريد» أو «أتمنّى» أو «أرغب» وأفضل من كل ذلك: «سوف يسرّني (أو يسعدني) أن تقيسي هذا الثوب».

تجنّبوا نقل رغباتكم إلى أولادكم بالإفراط في استخدام هذه الجملة التي قد نسمح بها للأطفال ولكن لا ننصح بها أهلهم. الأشخاص الذين يشعرون أن «على بالهم...» أمراً ما هم في أكثر الأحوال محبطون ويشعرون بالحرمان حيال كل ما لا يستطيعون امتلاكه. إنهم أولاد في أجسام راشدين.

أهلك، أَنْهكَ، أَتعبَ

«جون! لقد أنهكتني» (أهلكتني)

«جون، لقد أنهكتني! توقف عن الحركة وكفّ عن الصعود على الأثاث من فضلك! هذا الولد ينهكني دكتور، إنه لا يتوقّف أبداً عن الحركة. ثم إنه يصبح أحياناً خَطِراً على أخيه الصغير. يجب أن نفعل شيئاً. لم أعد أعرف ماذا أفعل خصوصاً وأن والده قد تركنا. لقد تخلّص من المشكلة بكل بساطة».

جون موجود في الغرفة. إنه يسمع كل ما تقوله أمه للطبيب. لكنّه لا يأتي بأي ردّة فعل في الوقت الحاضر. إلاّ أنه فهم جيداً المضمون غير المُعلَن لرسالة أمه. ولكن ليس في يده حيلة! يجب أن يعاقب محيطه لكي تنتفض أمّه وتُقدم على فعل ما. لكنّها، للأسف، لم تعد قادرة على إقامة حوار مع ابنها ولا تعطيه ما هو بأمسّ الحاجة إليه: الحب من دون حساب. لذلك فإنه يضطرب ويهتاج ويتحرّك باستمرار.

الولد المفرط النشاط هو ولد متلاعِب(*)

يترافق عادة النشاط المفرط بشيء من الطيش. يتعثّر الولد بسهولة أو يصطدم بالأثاث، ويبدو وكأنه لا يدرك حركاته الخرقاء أو إخفاقاته. فقد تعوّد على الإخفاق. وكثيراً ما يترافق النشاط المفرط بنقص في التركيز. هذه الحالة هي بالطبع مرض نفسي سلوكي

(*) لمزيد من المعلومات يمكنكم مراجعة كتاب «ولدي ذكي، ولكن!» الصادر عن دار الفراشة.

يتطلّب متابعة من قبل اختصاصي أطفال. ولكن، بحسب الباحثين، يبقى العلاج في هذه الحالة بيد الوالدين فقط، ذلك أن هذا الولد هو في أكثر الأحوال قنبلة موقوتة حقيقية قد تفجّر في النهاية العائلة أو تؤدّي إلى توقّف الوالدين عن حب أحدهما الآخر.

«لا يتوقّف عن الحركة، عن لمس كل شيء، عن التكسير! يكفي أن نمنعه عن شيء لكي يفعل العكس. يضرب باستمرار أخاه الصغير من دون سبب، لم أعد أعرف ماذا أفعل»، تعيد الأم وقد نفدت جميع وسائلها.

ترك الوالد البيت ورحل. لقد أخلى السفينة بعد أن ملّ وتعب من الجو المرهق الذي فرضه مرض الولد. فهذه الحالة هي مرض حقيقي ولسيت حالة ناتجة عن ولد مدلّل و/أو نزوي متقلّب. ماذا يمكن لهذه الأم التي فقدت كل مرجع وسند أن تفعل هنا؟ لا شيء أو تقريباً لا شيء! ولكن هل ما زال هناك فسحة أمل بين لا شيء وتقريباً لا شيء؟ ربما حلّ أو بصيص أمل؟

الحركة الزائدة عند الأولاد

الولد المفرط النشاط ولد متلاعِب بامتياز لا يعترف بأي سلطة ويتصرّف كولد انفعالي مزاجي.

يجب إذن إيجاد وسيلة للتلاعب بالمرض بشكل مضاد. بحسب بعض الخبراء، يرتبط أصل هذا الاضطراب بمشكلة عصبية تحدث خلال الحمل. ولكن لا شيء مؤكّد في هذا الصدد. الولد المفرط النشاط هو ولد كثير الهياج والحركة، يلمس كل شيء ويتنقّل من عمل إلى آخر ومن مكان إلى آخر مثرثراً باستمرار، غير قادر على التركيز. بحسب المحلل النفسي الشهير نوربرت سيلاّمي، تكثر نسبة الخلل أو عدم الاستقرار النفسي الحركي عند الفتيان، حيث إن

هذه الحالة تطال حوالى 4 إلى 10٪ من الأولاد في المدارس. ويؤكّد سيلّامي أن عدم الاستقرار هذا هو جزء من بنية الطفل وتكوينه لكنّ حدوثه وظهوره يتعزّزان نتيجة الظروف الحياتية والاجتماعية العاطفية التي ينمو فيها هذا الطفل: من نقص متراكم في النوم، وشعور بعدم الأمان ناتج عن عدم اتفاق الوالدين... وفي أغلب الأحوال، يشكّل هذا الإفراط في الحركة أحد أعراض اضطراب عاطفي أو يعبّر عن حاجة إلى جذب الانتباه إلى غياب صورة الأب أو عن صراع ضد حالة اكتئابية عند الولد. العلاجات النفسية التي تعتمد على الأدوية لا تأتي بالفائدة والنتائج التي تحقّقها المعالجات النفسية البحتة ليست أفضل منها. فالمشكلة تكمن بشكل أساسي في عدم إدراك أهمية دور الأب أو في سوء توزيع دور الوالدين. فتفوّض الأم سلطتها للأب الغائب، وعندما يحضر الأب، يعيد إلى الأم مسؤولياتها التربوية. في المثل المذكور أعلاه، أدّى هجر الوالد إلى تفاقم اضطراب الطفل الذي أصبح يتلاعب بأمه من أجل معاقبتها على هجر والده له. إنه يجعلها تدفع ثمن ابتعاد والده، من خلال تحويل حياتها إلى جحيم.

«لا يمكنكِ الانفصال عني لأني من لحمك ودمك»، هذه هي الرسالة العِقاب التي يبعثها الولد الكثير الحركة. للانتقام لنفسه بسبب هجر والده له أو ضعف سلطة الأب، يقوم بتعذيب مَن هم حوله، ويستخدم مع إخوته وأخواته الألم الجسدي. فمع غياب الأب، سيتمكّن من إعادة التعبير رمزياً مع إخوته وأخواته عمّا كان ينتظره من والده: موقفاً ينمّ عن سلطة قد يكون قادراً على تهدئة العاصفة التي تضج في داخله. حب الأم وسلطة الأب هما المكوّنان الضروريان لتحقيق التوازن العاطفي عند الولد. غياب أو استقالة

إحدى هاتين الدعامتين المؤسِّستين مأساة أكثر مما يمكننا أن نتصوّر.

إن البنية النفسية للطفل المفرط النشاط تجعل الاضطراب الذي يصيبه يتفاقم ويتفاقم باستمرار.

ما هي الحلول؟

إذا كان هنالك من حل لهذه الحالة المرضية، فهو الإبداع. يجب توجيه الطاقة الفوضوية التي نجدها في حالة فرط النشاط نحو النشاطات الموسيقية أو الرقص أو المسرح أو الرسم. الرياضة ليست حلاً هنا، لأنها تشمل قواعد لا يستطيع الطفل التقيّد بها. بالمقابل، يمكن للطفل أن يعبّر عن نفسه بحريّة في الرسم مثلاً، حتى وإن اضطررتم للتضحية بغرفة من البيت ليتمكّن من التحرر من الانفعالات التي تسكنه.

حلّ آخر: الولد المفرط النشاط يحبّ «الخربشة» ورسم الخطوط التي تميّزه عن غيره. أمّنوا له أربعة جدران ودعوه يتصرّف على هواه! ألوان مائية وألوان تُدهن بالأصابع!

اختيار الكلمات

يبقى العلاج الأول في هذه الحالة بيد الوالدين ونوع العبارات التي يستخدمانها مع ولدهما الكثير الحركة. عليهما أن يجعلا الولد يشعر بمدى فخرهما به عندما ينجح في التغلّب على الصعوبات التي تعترضه. يشعر الولد المفرط النشاط تماماً بانزعاجكم عندما تتحدثون عنه وهذا الانزعاج بالذات هو الذي يزيد حالته سوءاً. لذا على الأهل أن يعيدوا النظر في كلامهم، من خلال التحدث إلى معالج نفسي، فلا يمكن التغاضي عن هذه الحالة لأن الولد يتعذّب

من جرّائها كل يوم. يبدو لي بالتالي أنه من الضروري أن يتعلّم الأهل كيف يتكلّمون مع أولادهم بلغة بنّاءة وعدم تحميلهم سبب اضطرابهم وانزعاجهم. لنعد إلى كلام والدة جون للطبيب، فيمكنها أن تقول: «جون ولد نشيط جداً، إنه يتحرّك باستمرار ويحتاج إلى أن يشغل نفسه باستمرار» بدلاً من: «... هذا الولد ينهكني، حضرة الطبيب! لا يتوقّف أبداً!».

ويمكن استبدال: «ثم إنه يصبح أحياناً خطِراً على أخيه الصغير» بالجملة: «يحب اللعب مع أخيه الصغير ولكن يحدث أن يتصرّف ببعض الحيوية الزائدة وينسى أنه أصبح فتىً كبيراً».

أما عبارة «يجب فعل شيء. لم أعد أعرف ماذا أفعل...» فيمكنها أن تصبح: «اقترحت عليه أن نأتي لرؤيتك لكي تساعدنا في معالجته والاعتناء به».

يجب على الأم ألاّ تقصي نفسها عن المشكلة التي يعاني منها ابنها. استخدام صيغة الجمع «نحن»، «نا» هو طريقة تشير بها لابنها أنها تشعر أن مرضه هو من شأنها هي. وبدلاً من القول «خصوصاً وأن والده قد هجرنا. لقد تخلّص من المشكلة بكل بساطة...» يمكنها أن تقول: «لقد انفصلت عن زوجي لكنني أتحمّل أي مسؤولية تتعلّق بمرض ابني وأريد أن أساعده على الشفاء».

يجب ألاّ نكتم أبداً عن الولد المفرط النشاط أنه ضحية المرض وليس مسؤولاً عنه. لا يمكن، بالطبع، تعلّم هذه الجمل عن ظهر قلب، إنها نتيجة إعادة برمجة لغوية يقوم بها الوالدان مع محلّل نفسي أو معالِج نفسي متخصّص في العلاقات بين الأهل وأولادهم.

ليست الكلمات مجرّد أصوات يمكن فهمها وإدراكها، فهي قد

تتشوّه نتيجة انفعالات المتكلِّم. فالعبارات السلبية تؤجّج الاضطرابات عند الولد وتشوّش العلاقة بين الأم وابنها، في حين أن الخطاب الإيجابي قادر على تهدئة المشاعر المتناقضة التي تضجّ في ضمير الولد. ومن الضروري، في هذه الحالة، التحلّي ببعض الصبر لمراقبة التغيّرات الحاصلة في سلوكه المعتاد. تقول إحدى الأمهات منهارة: «لكنني أشعر بالإحباط!». الإحباط وفتور الهمّة ليسا، بالطبع، الموقف الذي يجب اتخاذه، لأنهما لا يحلّان شيئاً سوى أنهما يبرّئان ذمتنا... «لقد حاولت كل شيء، دكتور!» وهنا نقطة الضعف! المحاولة هي الفشل!

حاولَ، المحاولة

«حاول! وسترى. لن يكون هنالك ما تلوم نفسك عليه!»

- أبي، لقد قرأت ملف كلية الهندسة التي نصحني بها برتران، وأرغب في أن أتسجّل فيها.
- هل هي جيدة؟ هل تناسبك مواعيد الدروس؟
- وفقاً لما قرأته، يبدو مستواها عالياً جداً. وقد قال لي برتران إنها تحظى باعتبار هائل بين المهندسين. ولكني لست متأكّداً من أن لدي المستوى المطلوب!
- حاول التقدّم لامتحانات القبول! سترى. على كل حال، لن يكون هنالك ما تلوم نفسك عليه. ثم إنها ليست كلية الهندسة الوحيدة في البلد!
- كلا، لكنها الأفضل.

جرثومة الفشل

مَن يحاول لا يخاطر بأي شيء. إنه لا يلتزم، ويعرّض نفسه لخيبات كثيرة. يحمل فعل «حاول» في طيّاته جرثومة الفشل. فهو يزعزع ثقتنا بنفسنا ويُضعف قناعاتنا ويعيق قدرتنا على بذل الجهد والوقت اللازم لتحقيق ما نريده. إنه يجنّبنا تحمّل مسؤولية نجاح مربِك، ويجنّبنا التوتر والضغط الناتجين عن ضرورة النجاح دوماً.

اختيار الكلمات

أيها الأهل المهتمّون المتيقّظون، ارموا في سلّة المهملات كل النصائح الفَطِنة من نوع: «يمكنك أن تحاول»، فهي تضمن لأولادكم الفشل.

هل تريدونهم أن ينجحوا؟ استبدلوا هذا الثوب البالي، ثوب الخسارة والمحاولة، بثوب النجاح. يكتب المحاولون (الذين يحاولون ليروا) قصّتهم بالقلم الرصاص. يستخدمون فعل «حاول» كممحاة تمحي طموحاتهم من جذورها. النجاح يعني أن نكتب بقلم حبر، أن نلتزم. عندما «نحاول» نتيح لأنفسنا إمكانية الفشل، إمكانية إضعاف ثقتنا بأنفسنا أو بتحقيق هدف معيّن.

«يمكنك أن تحاول! مَن لا يخاطر...» هي النصيحة التهكميّة التي يسديها المتلاعِب الذي يعلم أن فشل المشروع أكيد في نهاية الطريق.

«لقد حاولت كل شيء!»

لازمة أخرى معروفة تعني ضمناً: «لم أنجح في نهاية المطاف».

المحاولون أناس دجّالون يعدون بالسعادة لكن وعودهم لا تتحقّق أبداً. وينقصهم بشكل خاص حسّ الإنجاز حيث إنهم لا يُنهون أبداً (أو نادراً) ما يبدأون به. إنهم خبراء في التأجيل، يُرجئون نجاحاتهم المحتملة إلى أوقات لاحقة كيلا يضطرّوا لمواجهة عاقبة النجاح. أن تنجح لا يعني أن تصل ولكن أن يدوم نجاحك. والمحاولة لا تدوم في الزمان، إذ لا تعيش إلاّ في لحظتها العابرة. يؤجّل «المحاوِل» عمله إلى مستقبل غير أكيد يسمح له بتأجيل التزامه.

إنه إرجاء عملي يسمح له بتجنّب أي التزام أو تورّط. فهو لم يعد بشيء، وكل ما فعله هو أنه فكّر في احتمال نجاحه أو حصول أمر معيّن ولكن لا شيء أكيد!

استئصال!

المحاولات المجرّدة من أي التزام ليست حججاً فحسب لكنها أيضاً أفخاخ حقيقية، لا سيّما لمن يلجأون إليها بكثرة. فإذا كان ولدكم «يحاول» أكثر من اللازم، افرضوا على أنفسكم مراجعة ذواتكم ومشاعركم! مَن هو «المحاوِل» الذي دلّه على الطريق؟ هذا الفعل جرثومة قد لا تدركون أذاها. لم ينجح قط أي «من المحاولين» الذين قابلتهم في حياتي بحلّ مشكلتهم. كانوا جميعهم من المبذّرين في إنفاق المال وعانوا من الكثير من الصعوبات المادية. أهلهم أيضاً حاولوا طوال حياتهم. ففي النهاية الأشواك لا تُنبت وروداً، أليس كذلك؟

جنّبوا أولادكم هذه المعاناة! وابدأوا باستئصال فعل «حاول» من خطابكم كأهل! قولوا له بدلاً من ذلك: «لا تحاول، إفعل ذلك أو تخلَّ عن الأمر!»

احتمال، يُحتمل، من المحتمل

«هنالك احتمال أن أوافق على ذهابك إلى عيد ميلاد صديقتك السبت القادم»

«يبقى الاعتذار احتمالاً متاحاً»

«أفكر باحتمال أن أصطحبك إلى ذلك الاستعراض»

الاحتمال شبيه بالوهم، فالأمر المحتمل هو حدث يمكن أن يحصل أو لا يحصل. كأن تحدّدوا موعداً مثلاً بالقول: «يُحتمل أن يستقبلك هذا الخميس عند الساعة كذا». الوالد (الوالدة) الذي يكثر من استخدام معنى الاحتمال هو والد يميل إلى الهروب. يغيّر رأيه كما يغيّر ملابسه ويخلّ بتوازن ولده لكثرة تقلّبه. إن الإفراط في استعمال هذه الكلمة ما هو إلاّ إثبات على أن مستخدمها يعيش في حالة الخوف من أن يُهجر.

اختيار الكلمات

الغوا كلمات «الاحتمال» من معجمكم قبل أن يهجركم ولدكم فعلاً، فكل ما هو محتمل ليس إلزامياً. وإذا كنتم والديه، فأنتم لستم بالضرورة أهل بكل معنى الكلمة. أن يكون الإنسان أباً أو أمّاً هو أمر يجب أن نستحقّه في نظر أولادنا، حتى وإن بدا لنا مكتسباً قانوناً.

فَعَلَ، عمل، صنع، قام بـ

«ابنتي لا تفعل سوى الحماقات»

المعنى الضمني لهذه الجملة هو: ابنتي رائعة ولكنها غبيّة تماماً. إنها تتصرّف بغير حكمة لكنني أفضّل أن أضحك من الأمر أمامكم بدلاً من أن أبكي. إنها تشعرني بالخجل وتجعلني أبدو غبياً.

سوء المعاملة يبدأ بالكلام

إن تكرار هذا الانتقاد الذي يبدو بريئاً في ظاهره هو علامة على نبذ الوالد (الوالدة) لابنه. يعبّر الوالد عن خيبة أمله وشعوره بالإحباط لاضطراره إلى إطعام وتربية ولد لا يشبهه كثيراً. إن إضحاك العائلة كلّها بتسمية الولد «دعبول» لأنه يعاني من بعض السمنة، أو الفتاة «هبّولة» لأنها تعاني من بعض المصاعب في المدرسة هو شكل من أشكال سوء المعاملة. «ماذا فعلتُ لِربّي لكي يكون عندي ابن بهذا الغباء؟» هي طريقة أخرى للسخرية من أولادنا، وللتقليل شيئاً فشيئاً من احترامهم لأنفسهم. هل يمكن للوالد (الوالدة) الذي يسيء كلامياً إلى ولده أن يحبّه في الوقت نفسه؟ ربما، أو يحبّه حبّاً أنانياً: ابني يشبهني إذا كنت فخوراً به لكنه لا يمتّ لي بصلة إذا تصرّف بحماقة.

«بعد كل ما فعلته من أجلك!»

جلس رومان، مسترخياً على الكنبة، مشدوداً إلى لعبة الفيديو الإلكترونية الجديدة كمن وَقَع تحت تأثير التنويم المغنطيسي. وقد مضى عليه وهو يلعب بها أكثر من ساعتين.

– رومان، كفَّ عن اللهو بهذه اللعبة، لا يمكن احتمال الضجّة

التي تحدثها!

دون أي تأثّر، أخفض رومان صوت التلفزيون.

- أليس لديك ما تفعله أفضل من البقاء ساعات أمام هذا التلفزيون تلعب بهذه الألعاب المفسِدة للعقل؟ رومان، أنا أتكلّم معك!

- ماذا! ماذا هناك؟

- اعتقدت أنك ستجد لنفسك عملاً خلال الصيف!

- لم أجد شيئاً بعد.

- هل تعتقد أنك بالاسترخاء على الكنبة ستنجح في إيجاد عمل؟

- سأجد، ماما، لا تقلقي!

- لدي جميع الأسباب الموجبة لكي أقلق. لقد رسبت في امتحانات الثانوية السنة الماضية، ولم ترد إعادة صفّك بحجة أن عدم حصولك على الشهادة لن يمنعك من إيجاد عمل. فلنتكلّم عن العمل! ماذا فعلت منذ ذلك الحين؟ لا شيء!

- آه! لقد دوّختني!

- تحرّك، رومان! في الحياة، إن لم تتحرّك، لا يحدث شيء. بعد كل ما فعلتُه من أجلك، يمكنك أن تتصرف بأفضل من هذا، أن تكافح لتنجح في حياتك! ولكن يبدو أن ذلك يتجاوز إمكانياتك! ستبقى هنا منتظراً أن يهبط العمل في حضنك!

تقول ليليان لورسا، التي تجد في التلفزيون وألعاب الفيديو ضرراً يعيق اكتساب الحرية: «كثيراً ما تكون شاشة التلفزيون وألعاب الفيديو آسرةً لعقول المشاهدين بحيث يصعب على فرائسها أن تبتعد عنها. والمشكلة هي أن الطفل لا يشعر أبداً بالملل منها، في حين أن الملل مرحلة ضرورية لإيجاد الحلول الفاعلة. إنه يخسر إمكانية أن يشغل نفسه بشيء آخر».

التضحية

«بعد كل ما فعلته من أجلك» صيغة كلاسيكية تشير إلى التضحية التي يبذلها الأهل. في هذه الرسالة، يعطي الوالد (الوالدة) قيمة مضخَّمة لتفانيه وإنكار ذاته لكي يخفي شعوراً مؤلماً داخله هو نتيجة فشله على الصعيد التربوي. ولكي يبرّئ نفسه، يتصرّف كضحية: «لقد ضحّيت بنفسي من أجلك وفشلك يُشعرني بالخجل! أنا ضحية حسن نيتي وتفانيّ!» ففي النهاية من الأسهل على المرء أن يكون مدعاة للشفقة من أن يكون مدعاة للّوم!

عندما نكون الضحية، يمكننا تفادي جميع أنواع اللوم والتأنيب. ولأن هذا الولد لا يتطابق مع الصورة المثالية التي كوّنتها الأم في ذهنها، فهي تحمّل ابنها شعورها بالذنب، لفشلها في جعله مثالياً. وبكثير من سوء النية، يسعى الوالد (الوالدة) الذي يختبئ وراء هذه العبارة إلى المفاوضة مع ضميره. «كل ما فعله» لم يفعله ربما في صالح ولده أوّلاً. ولو عادت في الواقع أفعاله وقراراته بالفائدة على ولده، لما اضطُرّ إلى التذمّر والشكوى بعد ذلك. عبارة: «بعد كل ما فعلته من أجلك» تُبرز بشكل واضح خواء الجهود التي أخذها الوالد على عاتقه. لقد بذل كل جهده ووقته للقيام بدوره وفقاً للتربية التي طبّقها عليه أهله، ومن دون إعادة النظر فيها، أو التساؤل حول فعاليتها أو ما إذا كانت مناسبة للطفل. تُظهر هذه الجملة عدم قدرة الوالد (الوالدة) على الإصغاء إلى ولده وإلى عجزه عن الشعور بما يشعر به ولده ووضع نفسه مكانه. هذه الجملة السامة: «بعد كل ما فعلته من أجلك»، تلقي الضوء على عدم قدرة الأهل على التكيّف مع أولادهم. إن الميزة الأساسية المفيدة والضرورية لكي يؤدي كل منا دوره كأب أو أم في أفضل الظروف،

تقوم على مراجعة تصرّفاتنا وقراراتنا وبتكييف التربية وفقاً لشخصية كل ولد من أولادنا. جميع الأمهات اللواتي أنجبن ولدين على الأقل سيقلن لكم إنه لا يمكن تربية ولدين بالطريقة نفسها، حتى وإن كانت المعايير التربوية الأساسية هي نفسها.

أنانية مطلقة

إن اعتماد هذه الجملة يُظهر أن مصلحة الوالد (الوالدة) تأتي قبل مصلحة الولد. ويشير هذا التعبير إلى الطبع الأناني للشخص الذي يستخدمه، حيث إن كرمه يتغيّر وفقاً للفائدة التي يمكنه تحقيقها. إنه شخص لا يعطي إلاّ من زاوية الحصول بالمقابل. يريد كلّ شيء من دون أن يعطي شيئاً في حين أنه لا يساوي شيئاً على الإطلاق! في منطقه، ليس هو من يفتقر إلى الجدارة والكفاءة، إنما الولد. ليس هو مَن ارتكب الأخطاء في تربية ولده، إنما الولد هو العاق وناكر الجميل.

هذه الجملة التي تقلّل من شأن الولد، تُظهر استقالة الوالد (الوالدة) من دوره: «هذه هي النتيجة، بعد كل التضحيات التي قدّمتها! أنت لا تستحق أبداً أن أستمر في الكدّ من أجلك!» وذلك يعني ضمناً: «من الآن فصاعداً، لا تعتمد عليّ أو كن تماماً ما أنتظره منك».

عندما يصل الأهل إلى الابتزاز العاطفي، يُضعفون قدرة ولدهم على الإنجاز. التواصل الواضح الصريح هو العلاقة الأكثر فعالية التي يمكن للأهل إقامتها مع أولادهم. فنحن مهما فعلنا من أجل أولادنا يبقى قليلاً، ومهما أحببناهم، يبقى حبنا قليلاً فالأولاد يغتذون بالحب ويكبرون به. ونقص هذا الحب هو ما يمنعهم من النمو والنضوج.

اختيار الكلمات

«بعد كل ما لم أفعله من أجلك، أفهم سبب مشاكلك المدرسية. أريد أن أساعدك في التغلّب عليها». هذه هي الرسالة التي يجب أن ننقلها إليه! ولكن مَن هو الأب (أو الأم) الذي سيتجرّأ على التعبير على هذا النحو؟

> «الإنسان الذي لا يتعاطى سوى مع الأشياء لا يعرف شيئاً عن الأفكار. فالأفكار موجودة في الكلام»
>
> الان، عناصر فلسفية

تدبّر الأمر، تدبَّر نفسه

«يجب أنٍ نحاول تدبّر الأمر لكي تنجح في سنتك الدراسية لئلاّ تعيد صفك مرّة أخرى»

«تدبّر الأمور» هو فعل الأشياء كيفما اتفق أو التظاهر بفعلها. يمكن لهذه الجملة أن تكون بنّاءة أكثر لولا وجود «أن نحاول» قبلها. إذا رجعتم إلى الفعل «حاول» (انظر ص136) سترون أنه على وزن «فشل». ذلك أن «المحاولة» لا تتطلّب جهوداً هائلة من الولد الذي تتوجّه إليه هذه الرسالة، فيعيد صفّه من دون أي مشكلة لكي يطيع الرسالة التي بعثها والده (والدته). «محاولة تدبّر الأمر للتوصّل إلى...» هي أشبه بإطلاق رصاص فارغ على هدف وهمي.

اختيار الكلمات

«سأساعدك قدر ما تحتاج لكي تنجح في سنتك الدراسية. سنبذل أقصى جهد ممكن كيلا تعيد صفّك مرّة أخرى!» يعلم عندئذٍ ولدكم أنكم توقّفتم عن التظاهر وأنه لا يغامر وحيداً في غابة مليئة بالنوايا السيّئة.

«تدبَّر نفسك وحدك، أصبحت كبيراً الآن؟»

- ماما، هل يمكنك أن تلبسيني ثيابي، لا أستطيع لوحدي!
- لكنّك في الأمس لبست وحدك! أنا مشغولة يا صغيري، تدبّر نفسك وحدك، أنت كبير الآن!

أنا لا أشكّك في أن «الصغير» قادر تماماً على تدبّر أمره وحده، ولكن ما يزعجني هو طريقة الأم في عزل ولدها وصمّ أذنيها

عن ندائه. هذا الولد وحيد في العالم. إنه يطلب المساعدة من أمه من دون جدوى. إنه يعرف ذلك تماماً لكنّه يأمل بأن يقدّم له أبوه أو أمّه يد المساعدة. ليس لأنه غير قادر على تدبّر أمر لوحده، لكنّه يطالب بمساعدة عاطفية لا فعليّة. وهذا أمر لم يفهمه والده أو والدته.

إن هذه العائلات التي يُترك فيها الأولاد لتدبّر أمورهم وحدهم هي عائلات لا تُنسج أي روابط عاطفية ثابتة ومتينة بين أفرادها. يتباعدون بعضهم عن بعض عندما يصبح الأولاد في سن الرشد ولا يلتقون إلاّ في الأعراس (أحياناً) وفي المآتم (دائماً)... بسبب الإرث. لا يكره بعضهم بعضاً كما لا يحب بعضهم بعضاً. إنهم ينتهجون اللامبالاة العاطفية وعدم الالتزام. من الناحية الاجتماعية، هؤلاء الأهل هم أسوأ مَن يسدي النصح. إذا صادفتموهم في طريقكم، غيّروا وجهة سيركم لأنهم يمتصّون الطاقة والنشاط من الآخرين.

اختيار الكلمات

«جان بول، أنا مشغولة الآن. بما أنك تعرف جيداً كيف تلبس وحدك، أقترح عليك أن تبدأ من دوني، حتى أنتهي. ثم آتي لأهتم بك!». إذا كنتم لا تستطيعون تلبية ولدكم على الفور، من المهم أن يعلم ذلك، لكنّ جوابكم يجب ألاّ يعطيه انطباعاً بأنه معزول بل يجب أن يطَمْئِن جوابكم الطفل الذي يحتاج إلى وجودكم عاطفياً أكثر من حاجته إلى مساعدة فعلية في ارتداء ثيابه. بهذه الطريقة يدرك الطفل أنكم موجودون للوقوف إلى جانبه وأنه يستطيع الاعتماد عليكم، حتّى وإن كانت قدرتكم على التواجد فعلياً معه تتغيّر وفق الظروف على مدى النهار.

وجب، لزم

لا يُصرَّف فعل وجب إلاّ في صيغة الغائب المفرد. إنه تصريف خبيث يجعل الفاعل مجهولاً. «يجب»، مَن «يجب؟»؛ ليس أنا أو أنت أو نحن!

«الفاعل» هو شخص وهمي ولكن واسع النفوذ والسلطة يفرض إرادته دونما أي إمكانية للمناقشة معه. هذه الطريقة في الضغط هي المفضّلة لدى الأهل المستقيلين من دورهم، فهم يتمترسون وراء هذا الشخص الغائب عن اللعبة لتعزيز سلطتهم. «يجب أن تعجِّل». لماذا «يجب» بدلاً من «أتمنّى» أو «أودّ» أو «أريد»؟ هل يخشى الأهل تحمّل مسؤولية كلامهم؟ «فاعل» «يجب» هو السلطة التي يختبئ الأهل وراءها ليفرضوا هيبتهم. استخدام فعل «وجب» يُظهر عيباً حقيقياً في الكلام. يرفع هذا الفعل المسؤولية عن الذي يستخدمه. إنه يتحدّث باسم المصلحة العليا، مصلحة العائلة التي يجب عدم خلطها مع المصالح الشخصية.

المسؤولية الشخصية، هل هي أثقل من أن يتحمّلها الأهل؟

«أسرع، يجب أن أشتري الحاجيات قبل الساعة السابعة»، تقول تلك الأم. ولكن لماذا لا تقول: «أريد أن أشتري الحاجيات...» أو «أنوي الذهاب...»؟ «الغائب المفرد» يقرّر مكاني «أنا»، وهذا يطمئنني إذ لست أنا مَن يؤول إليه اتخاذ القرار.

«يجب اصطحاب الصغيرة من المدرسة»، يقول ذلك الوالد الذي لا يرغب في الواقع في القيام بذلك. ويدلّ الاستخدام المفرط لهذا التعبير الكلامي على شخص غير مسؤول، غير قادر على اتخاذ

قرار من دون الرجوع إلى سلطة عليا هي «الغائب المفرد». يمكن للوالد (الوالدة) أن يكون كلّي القدرة أمام ولده ويتمتع بذكاء جيد، وأن يعاني مع ذلك من شعور بالدونية أو بعدم الاكتمال: بما أنني لست كاملاً، أرجع إلى سلطة عليا تغطّي قراراتي.

إن استخدام هذا الفعل بشكل متكرّر هو من الأعراض التي يسهل فك رموزها في الخطاب. إذا واجه الولد والداً (والدة) يسرف في استخدام «يجب» في حين أنه يستخدم هو صيغة المتكلّم، فسيشعر بضعف والده ويرفض تلقائياً سلطة هذا الأخير.

خيال صحراء!

«الغائب المفرد» هو الذي يقرّر عنكم، ولا يمكنكم على أي حال اعتراض السلطة العليا. فإرادته هي التي تنفَّذ وأنتم تظلّون في الخلف. لكنّ هذه الصيغة مضرّة ومفسِدة. أنصحكم بالاعتدال في استهلاكها إن لم تريدوا أن يتحوّل ولدكم إلى مجرّد منفّذ غير قادر على تحمّل عبء أي التزام شخصي.

إن فعل «وجب» هو أشبه بالعلقة التي تفرغكم من حسّكم بالمسؤولية، ومن روح المبادرة، ومن قدرتكم على بذل الجهد والوقت في سبيل تحقيق أمر معيّن، فتتحوّلون إلى أهل مقيّدين. حياتكم كلها قيود وواجبات: يجب أن أنهض، يجب أن أذهب إلى العمل، يجب أن أشتري الحاجيات، يجب أن أذهب لاصطحاب الأولاد من المدرسة، إلخ. هل تذكّركم هذه اللوازم بشيء؟

اختيار الكلمات

استبدال «يجب» ليس بالأمر المجاني. بعد إدراككم للوضع،

عليكم إيجاد الصيغ المناسبة لاستبدال هذا الفعل بالعبارة المناسبة مع كل حالة. لكنّ الأمر يستأهل كل الجهد الذي تبذلونه، خصوصاً عندما ترون أن ابنكم أو ابنتكم سينظر إليكم بفخر. تحمّلوا المسؤولية وقولوا: «أريد» أو تحرّروا من ذلك الفعل المستبدّ. مزّقوا القميص الجبري الذي سجنتم فيه أنفسكم والبسوا ثوب النور، ثوب الرجل الحرّ، أو المرأة الحرّة، الذي يلتزم ويتحمّل مسؤولياته اليومية. في النهاية، ليست الحرية ولم تكن يوماً في اختيار القيود التي تكبّلنا!

«سوف يتوجّب عليك أن تنكبّ على العمل بجديّة»

دخل بيار هذه السنة إلى المدرسة المتوسطة، وهو في الصف الأوّل متوسط. كانت نتائجه غير مرضية في السنة الماضية، ولكن ليس لافتقاره المؤهّلات اللازمة، إنما لأنه لم يشعر بحافز قوي للعمل فغلب ميله إلى الكسل. شرحت له أمّه أن الأمور قد أصبحت مختلفة هذه السنة، وأنه لن يتمكّن كثيراً من الاستغراق في الأحلام في المدرسة التكميلية. «سوف يتوجّب عليك أن تنكبّ على العمل بجديّة، يا بيار! لكي تنجح في سنتك، عليك تحمّل مسؤولياتك. الأساتذة موجودون لمساعدتك ولكن ليس للقيام بالعمل مكانك. لم تعد فتى صغيراً».

تعبير مثقَل بالمعاني

لقد سبق لنا أن ذكرنا أن «التسويف» مرادف للتأجيل والإرجاء. ويُظهر اختيار هذه الكلمة ميلاً عند مستخدمها للتأجيل الدائم. في هذه الجملة، تحثّ الوالدة التي تستخدم «سوف» ابنها على إرجاء بذل الجهد اللازم وذلك في تناقض واضح وكلّي مع معنى الكلام الذي تقوله. بشكل لا واعٍ، تحثّ ابنها على اعتماد

طريقة تصرّف مخالفة لطريقة التصرّف المعلَنة. «وجب» هو أحد أعراض عدم تحمّل المسؤولية. هذا الفعل، الذي لا يُستخدم إلاّ في صيغة الغائب المفرد، لا يستخدمه أيضاً سوى الذين يتجنّبون الالتزام وبذل الجهد والوقت اللازمين. إنه يميّز الأشخاص الذين يفضّلون الامتناع عن العمل، «والانكباب على العمل» يعني ضمنياً أنه لم يتم البدء بأي شيء في السابق، ثم إن المهمة ستكون شاقة. سيضطر الولد إلى إرهاق نفسه وبذل جهد جبّار لكي يصل إلى نتيجة. هذه العبارة هي من الناحية الانفعالية أشبه بعدسة مكبِّرة تشوّه الحقيقة وتضخّم الأمور. واستخدام هذا التعبير يعني التشكيك في قدرتنا على التكيّف.

مغزى الرسالة وتأثيرها

ماذا يشعر الولد الذي يتلقّى ضربة هذا الـ«سوف يتوجب عليك أن تنكبّ على العمل بجديّة»؟ ما هي عواقب هذا الكلام وتأثيره في سلوكه؟

لا تشكّل هذه الرسالة بأي حال من الأحوال تشجيعاً للولد، بل هي تقيّده تقييداً مزدوجاً. فمن جهة، تدّعي الأم أنها تريد من ابنها أن يبذل الجهد والوقت اللازمين في دراسته؛ ومن جهة أخرى، تثنيه عن ذلك. والأم هنا لا تنوي إطلاقاً مساعدة ابنها. «سوف يتوجّب عليك» تعبّر عن استقالة الوالدة من دورها لأنها تريد تجنّب الشعور بالمسؤولية حيال أي فشل محتمل قد يصيب ابنها. ولن تسمعوها أبداً تقول «أنا...». تُدخِل الأم في ذهن ابنها أنها غير معنية بحياته الدراسية، فالمدرسة مشكلة الولد وحده. وبالتالي فإن بذل جهداً في دراسته اليوم أو غداً أو بعد غد، فالأمر سيّان. إذن فلِمَ لا يكون ذلك غداً؟

«الدخول في الأول متوسط أمر صعب وجدّي، سوف يعاني الأمرّين لكي يتبع الصف». هل يتطابق ذلك مع ما يشعر به الولد؟ لماذا لا نتركه يكتشف بنفسه هذا الأفق الجديد من دون أن نضع له العصي في الدواليب؟ عندما نقول له مثل هذا الكلام نضيف إلى حقيبته ثقلاً يُتعبه، فيتساءل إذا كان على مستوى هذه المرحلة الجديدة من حياته. عبارة «سوف يتوجّب عليك أن تنكب على العمل» تُحدث ضغطاً لا جدوى منه. إن تقليل الثقة بمستقبله على المدى القصير يتفاقم باستخدام «بجديّة». تشير إضافة هذه الكلمة إلى أن الولد لم يقم بأي شيء جدّي حتى الآن. هذه الرسالة تجعل الولد يشعر بالخيانة؛ يشعر بأنه محروم من مساعدة أمّه. لقد هجرته وتركته وها هي تنسحب من اللعبة محَمّلة إياه عبء «الجدّية».

ما يُفترض أن يكون رسالة تشجيع في ذهن الأم، يبدو بالنسبة إلى الولد رسالة تثبيط وإحباط. ليس لدى بيار فرصة كبيرة للنجاح في مسيرته الدراسية، بوجود هذا الخطاب الاستقالي، الذي يشكّل كل المساعدة التي تقدّمها له أمّه. وسيصبح بيار رجلاً غير قادر على الالتزام وتحمّل المسؤولية. نوايا ونوايا ولا شيء سوى النوايا! مهما تكن هذه حسنة، فهي لن تتحوّل أبداً إلى أفعال. إنها رسالة عدم الإنجاز: الفشل المطلق!

ورسالة النجاح؟

«في الأوّل متوسط، ستكتشف طرقاً أخرى للعمل مختلفة عن تلك التي عرفتها حتى الآن. إذا شعرت بأنك ضائع بعض الشيء، فأنا هنا لمساعدتك! لا تتردّد في المجيء إليّ وإخباري بذلك». اتخذوا دور الأهل المسؤولين ولا تستقيلوا من أدواركم!

عبارات مشابهة:

«يجب أن تنكبّ على العمل»

«عليك أن تنكبّ جدّياً على العمل»

«حان الوقت لكي تنكبّ على العمل»

تُظهر هذه الرسائل، بالطريقة نفسها، استقالة الأهل من دورهم والإقلال من قيمة الولد، لكنّها تختلف عمّا سبق بأنها لا تحثّ على التأجيل باستخدام كلمة «سوف».

الكلمة هي التي تصنع الإنسان وليس العكس.

ابن، ابنة

«أنتَ حقاً ابن أبيك...»

«أنتِ حقاً ابنة أمّك...»

كلمات تحفر في القلب

تصوّروا أن يُقال لكم: «أنت حقاً والد ابنك»، بعد أن يكون هذا الأخير قد ارتكب آخر حماقة. فيصبح الابن عندئذٍ مثالاً لوالده وليس العكس. «هذا الشبل من ذاك الأسد»، هو القول الأكثر شيوعاً في العائلات. ولكن يمكننا هنا عكس الأدوار فهذه الجملة هي محاكمة للنوايا، حيث إننا نحكم على الابن بحسب الأفعال أو النوايا التي نعزوها للأب.

إن التشبيه بين الأب وابنه أو الأم وابنتها يمكن أن يتحوّل إلى لعنة عائلية. فلكثرة ترداد أنه ابن أبيه، ينتهي به الأمر إلى تقليد سلوك هذا الأب الذي ترفضه الأم أو أسرتها أو أصدقاؤها. ونظراً إلى أن الأب غالباً ما يكون بعيداً عن اللعبة وعاجزاً عن الدفاع عن نفسه، يجد الولد نفسه مكبَّلاً في سجن الأم، تُسدَّد إليه كلمات تحفر في قلبه. وبالتالي سيكرّر هذا الولد بشكل حتمي أخطاء والده، هذا الشخص المناقض للبطل، حتى وإن كان ذلك لمجرّد التأكيد على ما قالته له أمه. هكذا، يصبح الولد نسخة طبق الأصل عن والده بدلاً من تنمية شخصيته الفريدة واختلافه الخاص.

كما أنّ عبارة «أرغب في أن تكوني جميلة مثل أمك» تشكّل اتهاماً لعيناً لا يمكن لأحد تقدير أضراره الجانبية. مع ذلك، فإن

الأب الذي يستخدم هذه الجملة يبتسم ابتسامة عريضة ويعبّر عن مزاجه الفَرِح وابتهاجه عند مقارنة ابنته بزوجته. إلاّ أن الابنة ليست، للأسف، نسخة عن والدتها ولا تريد أن تشبهها. فتأتي عبارة الوالد هنا كشكل من أشكال المماثَلة القسرية التي تشعر الفتاة بأنها مضطرّة للخضوع لها، إذا أرادت الحفاظ على حب هذا الرجل المثالي.

بعض العبارات تبدو عادية جداً وبريئة في ظاهرها، كتلك التي أوردناها في هذا الفصل. ولقد عانى ابن زوجي البكر من الاستخدام المكثَّف لهذه العبارات فانتهى به الأمر إلى إلغاء هذا الأب من حياته، في الخامسة والثلاثين من عمره. ولم ينجح قط بعض رفاق طفولته في التخلّص من هذا التشبيه اللعين، ولقد فضّل أحدهم الانتحار بدلاً من قتل والده.

اختيار الكلمات

نادراً ما يُعتبر تشبيه الابن بأبيه مديحاً أو ثناءً، حتى وإن كان كذلك! ثم إن الأولاد لا يحبّون أن تُلصق بهم سمة تذكّرهم أن والدهم أو والدتهم أفضل منهم أو أقل شأناً.

«ابنتك هي التي مزّقت الكتاب! ابنتي هي التي رسمت هذا الرسم الرائع!»

«ارتكب ابنك حماقة... نجح ابني في الامتحان»

الأولاد الذين يُعاملون ككرة بنغ بونغ

لا يُعتبر الطفل هنا فرداً وشخصاً قائماً بحد ذاته، فلا يتم التمييز بينه وبين أفعاله (انظر أيضاً فتاة كبيرة، ص171). فيعجز

عندما يكبر عن التمييز بين شخصه ووضعه الاجتماعي أو المهني، أي أن أفعاله تصبح الإجازة التي تقرّ حقّه بالوجود بالنسبة إلى الآخرين. إذا ارتكبتُ حماقة، سينكر والدي أبوّته لي، أمّا إذا حظيت بإعجابه فيشبّهني بنفسه ويشركني في الصورة التي صنعها لنفسه. باختصار، ما أفعله يحدّد هويتي! فإذا ارتكبت حماقة، أُنبَذ من ذاتية أبي. أمّا إذا نجحت في الامتحان، فيعيدني أبي إلى ذاتيته. أن يكون الولد جزءاً من أبيه أو أمه أمر مريح بالنسبة إليه، كذكرى الحياة الجنينية التي انتهت إلى غير رجعة، أمّا أن يكون ذاته فتحدٌ يرفضه بعض الأولاد كيلا يضطرّوا إلى مواجهة العالم. خصوصاً هؤلاء الأولاد الذين هم أشبه بكرة البنغ بونغ والذين تتقاذفهم ذاتية والدهم وذاتية والدتهم وفق المزاج.

اختيار الكلمات

إن هذه العادة السيّئة في الاستئثار بمزايا ولدكم وفي نسب حماقاته إلى شريككم أو إلى الزوج (أو الزوجة) السابق، بالانتقال من «ابني» إلى «ابنك»، هي طريقة تجعل من ولدكم شخصاً تابعاً خاضعاً، لا يتمتع بالحريّة لا ذهنيّاً ولا في حياته. وسيُضطر دائماً إلى الاختباء وراء تصنيف أو وضع اجتماعي أو مهني أو وراء نفوذ الآخرين لكي يكون له وجود. بما أن لولدكم أباً وأمّاً أنجباه معاً، يمكنكم أن تقولوا: «لقد نجح ابننا في الامتحان» أو «رسب في الامتحان»، وخصوصاً في حضوره. وسيقدّر لكم إدخاله في هذا الـ«نحن».

ابن وحيد

«هذا ابني الوحيد. لقد تأخرتِ لأنجبه، إنه كنز حياتي، لكنّه يسبّب لي الكثير من المشاكل منذ أن أصبح في سن المراهقة»

يُحاط الولد الوحيد بكل الاهتمام والرعاية وغالباً ما يفرط الوالدان في حمايته. وتقول المحلّلة النفسية للأطفال، ڤارنكا مارك، «إن هذا ما يعطي الولد شعوراً عميقاً بالأمان وانطباعاً بقدرته الكليّة». الطفل ـ الكنز هو طفل كامل بنظر والديه. فيبني الوالدان طموحات على مستقبل ابنهما المدرسي ويتوقعان منه الكثير الكثير إلى أن يحدث الانفجار. فالضغط الذي يمارسه الأهل بشكل مستتر على ابنهم الوحيد يؤدّي إلى تفجير الوضع ما إن يصل الولد إلى سن البلوغ. فيفقد فجأة الولد ـ الكنز كل قيمته. يصبح الابن الوحيد في غالبية الحالات مراهقاً مستبدّاً. يتحوّل «الكنز» إلى غول رهيب يعذّب والديه الشجاعين الصابرين: «لقد فعلتُ كل شيء من أجل هذا الفتى!». إذا كان ابنكم، أو ابنتكم، ولداً وحيداً، لا تعتبروه أبداً كلوحة خالدة لرسّام عظيم، «فاللوحة» ستتبدّل ذات يوم وسيكون المستقبل مخيّباً للآمال.

افعلوا ما بوسعكم لكي يكون له، أو لها، الكثير من الرفاق والأصحاب! فمن الضروري التعويض عن غياب الإخوة والأخوات. ولكن قولوا له أيضاً إنه محظوظ لأنه غير مضطرّ إلى مشاركة غرفته وأغراضه مع أي دخيل، حتى ولو كان أخاه أو أخته. ويمكنه اختيار عائلته بعقد صداقات طويلة الأمد. فالعائلات الكبيرة تواجه صعوبات كثيرة في العلاقات بين أفرادها. لا نجد حبّاً جمّاً بين جميع الأخوة

والأخوات، وفي مثل هذه الحالة، تسود الغيرة بدلاً من العاطفة الصادقة. فإذا كان ولدكم يشتكي من الاختناق بين أبيه وأمّه، أعيدوا على مسامعه هذه الحقيقة المرّة تلو الأخرى! فتنطبع هذه الرسالة، في نهاية المطاف، في ذاكرته الانفعالية. الأولاد الوحيدون ليسوا بالطبع أولاداً كنوزاً!

جنَّن، أفقده عقله (صوابه)

«إنه يجنِّنني. سيبلغ قريباً السابعة من عمره، والأمور من سيّئ إلى أسوأ»، تقول إحدى الأمهات لأم أخرى أمام ابنيهما عند الخروج من المدرسة.

انهزامية مدمِّرة

إن «جنون» الأم ليس مصطنعاً أو مختلقاً ولكن من الخطأ أن تتكلّم عن ابنها بحضوره، مع شخص ثالث (انظر هو، ص178). إن الأم التي تشعر أنها غير كفوءة، بمواجهة ردود فعل ولدها غير المفهومة هي أم يتلاعب بها ولدها.

لقد نجح الطفل في قلب الأدوار. إنه يسيطر على والدته، ويُخضعها لضغط لا يمكن احتماله. وغالباً ما تنتهي هذه اللعبة عند المعالِج النفسي.

اختيار الكلمات

لا شيء أسوأ بالنسبة للطفل من والد، أو والدة، يختبئ وراء خطاب انهزامي كي لا يضطرّ إلى مواجهة مسؤولياته كمربّ. يشكو أحد الآباء لمدير الثانوية التي يتعلّم فيها ابنه، قائلاً: «لم يعد بإمكاني جعل ابني يطيعني. إنه يفقدنا عقلنا، أنا وزوجتي». وينتظر هذا الوالد من المدرسة أن تتولّى تسوية الخلاف القائم بين الولد ووالديه. إنه يستقيل من دوره في حين أنه يمسك بالحجة الوحيدة التي قد تؤدّي إلى تغيير سلوك ابنه: المسؤولية المادية لهذا الأخير. «إذا كنت لم تعد تريد الذهاب إلى المدرسة، يمكنك أن تعمل أي

شيء فتصبح عندئذٍ حرّاً لكي تتولى مسؤولياتك المادية. سيتوجّب عليك أن تذهب وتتبضّع بنفسك لكي تأكل وتلبس، حتى وإن كنت أقبل بتأمين المسكن لك مجاناً. أرفض أن أعيلك بعد الآن. بما أنك كبير، تدبَّر أمرك بنفسك! ولكن إذا كنت تريد أن أستمرّ في إعالتك، فعليك أن تقبل شروطي. هذه هي الصفقة! فكِّر فيها! أنا بانتظار جوابك».

أخ أكبر

«هل أنت مسرور؟ لقد أصبحت الأخ الأكبر الآن!»

رافق جون (5 سنوات) أباه وعمّه إلى قسم التوليد حيث تنتظره أمه والطفل المولود حديثاً.

– قل لي يا جون، هل رأيته؟

– مَن هذا؟

– أخاك الصغير بالطبع!

– كلا، لم أره بعد.

– هذا الطفل هو أخوك الصغير يا جون، قال أبوه.

وسأل عمّه بحماسة:

– هل أنت مسرور؟ أصبحت الأخ الأكبر الآن!

«أنا صغير، أنت كبير»

يشعر الفتى فجأة بالضعف كما لو أنه عاد طفلاً رضيعاً، فالأخ الأكبر يرغب في أن يكون محلّ الأخ الأصغر. إنه يشعر أن وضعه ككبير هو خديعة يصحبها احتلال غير مشروع لمنطقته هو. لقد عرف الآن أنه لا يستطيع أن يكبر إلاّ بتقاسم هذه المنطقة ـ الغرفة وحبّ الوالدين ـ مع دخيل. إنهم يحمّلونه مسؤولية لا يريدها ولم يطالب بها قط. وعلاوة على كل هذا، من المفترض أن يكون مسروراً؟ حسّ النكتة عند الكبار لا يُضحك الأطفال.

«يولد الناس أحراراً ومتساوين في الحقوق»

هذا بحسب القانون، ولكن ليس بحسب الواقع على الأرض! تجنّبوا صفات المقارنة: كبير وصغير. حدّثوه عن أخيه وليس عن

أخيه «الصغير»! لا تجعلوا منه بالقوّة الأخ «الأكبر» للطفل الصغير. تقوم الطريقة المثلى في الكلام على التوجّه إلى أولادكم بأسمائهم في جميع الظروف وعلى تجنّب التسميات التي تشير إلى وضعهم داخل العائلة (أخ أو أخت) أو التسميات التي تقارن بينهم وبين إخوتهم (كبير أو صغير). إنها الوسيلة الفضلى للتخلّص من الغيرة بين الإخوة والأخوات. «جون، هل يمكنك مراقبة أوليفييه بينما أنتهي من الغسيل؟» بدلاً من استخدام «أخيك الصغير». اجعلوا أولادكم على قدم المساواة بالتوجّه إليهم بهذه الهوية التي لا تخصّ سواهم والتي لا يتقاسمونها مع أخيهم أو أختهم، أي باسمهم. بهذه الطريقة، تتفادون إقامة علاقات تراتبية ضمن العائلة وخصوصاً في ما يتعلّق بالحب الذي تكنّونه لهم.

أخ أصغر

«لا بد أنك سعيد لأنه أصبح لديك أخ صغير»

سارة موجودة في دار التوليد برفقة زوجها وماتيو، ابنها البكر، وبنجامين، ابنها المولود حديثاً. ولقد توالى الأصدقاء والأنسباء للتهنئة في سيل متواصل شغل فترة ما بعد الظهر كلها. كان الجميع يدلّل الرضيع الذي لم يتعدّ عمره بضعة أيام، وقد أزعج ذلك ماتيو وضايقه. ولقد قالت له عمّته أيضاً شيئاً أذهله:

«لا بد أنك سعيد يا ماتيو لأنه أصبح لديك أخ صغير!»

لم يفهم ماتيو لماذا يُفترض بهذا الحدث أن يملأه سعادة وفرحاً: «ماذا تعرف هي عن الأمر، ليس لديها أخ صغير! هذا صحيح! لن تضطرّ هي إلى تقاسم كل شيء الآن!»

وتكتب كاترين ماتلين في هذا الموضوع بكثير من البصيرة فتقول: «عندما نعطي الوالدين كلمات جاهزة للاستعمال، نمنعهم من قول الحقيقة. إنها اللغة العائلية الخشبية التي تغلب».

إحساس بالذنب

«لا بدّ» عبارة تغلب التضحية فيها على الواجب. يجبر هنا الأهل ابنهم على المشاركة في سعادة لا يشعر بها. وتظهر عملية الخداع بوضوح على صعيد التواصل والمشاعر. عندما نُجبر الطفل على أن يبدو سعيداً لولادة ذلك المخلوق المجعَّد الذي نسمّيه أخاه، نجعله يشعر بالذنب لعدم إحساسه «بالمشاعر الطيّبة» ونرغمه على التظاهر والتمثيل. نعلّمه منذ الآن أن يتظاهر لئلا يختفي. إضافة إلى الغيرة المشروعة الملازمة لولادة الطفل الصغير، يتلقّى الولد، كصفعة مباشرة، صدمة الشعور بالذنب. إنه مذنب لأنه لا يشعر

بالحب تجاه أخيه. من المحتمل جداً أن يشعر الولد البكر بالبغض تجاه أخيه الصغير كونه مضطراً إلى مشاركته أمه وكل شيء آخر، إضافة إلى إحساسه بالذنب بسبب مشاعره (السيّئة). يُرسي هذا النوع من الرسائل أسس علاقة تنازع بين الولدين منذ البداية.

اختيار الكلمات

تجنّبوا إسقاط مشاعركم الخاصة على ولدكم. فإذا قلتم له: «لا بد أنك مسرور...» شعر الولد البكر بالقلق حيال هذا التغيير الكبير والانقلاب الحاصل في حياته، ومن حقّه أن يفعل فلا تزيدوا همّه همّاً وتطلبوا منه أن يكون مسروراً؛ إنه لا يشعر بهذه السعادة المطلقة التي تشعرون أنتم بها وقد يكون شعوره بالذنب شديداً إذا كانت مشاعره سلبية تماماً: عدوانية، غضب، رفض ونبذ، خيانة، شعور بالهجر، الخ. الرسالة التي يجب عليكم نقلها إليه هي أنه ليس مضطراً إلى الشعور بحب عارم تجاه أخيه الجديد والجميل، وأنه ليس مضطراً إلى القفز كالمجنون لإظهار فرح لا يحسّ به. بالمقابل، فمن الضروري أن يشعر أنكم معه من كل قلبكم، لا سيّما وأنه سيضطر لسماع السؤال نفسه الذي سيطرحه عليه حتماً أفراد العائلة أو الأصدقاء: «هل أنت مسرور أو فخور بحصولك على أخ صغير؟» لا تنسوا أنكم أنتم من أردتم هذا الطفل وليس هو مَن طلبه منكم أو مَن اختاره، إنها مسألة تخصّ الكبار. من الضروري إذن أن يعتبر نفسه حرّاً في أن تكون له المشاعر التي يريد حيال الدخيل الصغير. بهذه الطريقة يشعر الولد بأنه قد أُعطي قيمة وقدراً على الرغم من وجود الطفل الجديد الذي قد يخلّ بتوازنه. هكذا يتكيّف الولد بسهولة أكبر مع الوضع العائلي الجديد وتتفادون أي عِداء منذ البداية بين ولديكم.

فتاة صبيانية (حسن صبي)
وصبي جبان (خيخا)

إنهما تسميتان مهينتان جداً بالنسبة للأولاد الذين تُلصقان بهم، والأب الذي يلهو بوصف ابنه بالجبان هو عادة شخص معقَّد نفسيّاً يلبس ابنه آراءه وأحاسيسه الخاصة. لا تثقوا أبداً بضخامة جسم هذا الشخص أو بتبجّحه، فإذا رمقتموه بنظرة قاسية خاف وخانته الشجاعة.

«أنتِ صبي حقيقي (حسن صبي)»

ماري فتاة صغيرة في العاشرة من العمر مفعمة بالحياة وذكية، مزاجها مرح وضحكتها الرنّانة لا تفارق شفتيها. هي طويلة القامة وضخمة البنية وعندما يتعلّق الأمر بالرياضة تكون دائماً حاضرة. لا شيء يخيفها: التسلّق هو النشاط الرياضي المفضّل عندها. ونظراً إلى عدم وجود جبال حيث تعيش، فإنها تعزّي نفسها بتسلّق الأشجار. وهذا لا يروق كثيراً لوالدتها.

– ماري، هل رأيت حالة ثيابك؟ ما الذي اخترعته اليوم أيضاً؟!

– لا شيء، ماما، لقد تمرّنت على التسلّق.

– «التسلّق»، يبدو أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يهمّك. وماذا تسلّقت؟

– البوّابة الكبيرة في الملكيّة المهجورة قرب منزل جان.

– هذا غير معقول، أليس لديك شيء آخر تفعلينه؟ أنت صبي حقيقي يا ماري. كم من مرّة بعد عليّ أن أكرّر هذا؟

– ولكن، ماما، من حقي أن أحبّ التسلّق، أليس كذلك؟

– ولكن، ماري، هذه ليست لعبة للفتيات!

– هذه ليست لعبة، إنها رياضة!

ذهبت ماري إلى الحمام لتنزع ثيابها وقد اضطربت ملامح وجهها وعلت شفتيها ابتسامة حزينة. إنها لا تفهم تماماً لماذا تعتبر أمها التسلّق رياضة خاصة بالفتيان. غير أن ماري لا تدرك أن أمّها لا تنزعج من هذه الرياضة بالتحديد.

المثال المُهان

تُلصَق صفة الصبيانية «حسن صبي» بالعديد من الفتيات الصغيرات اللواتي لا يمضين النهار بطوله يلعبن بدميتهن بهدوء، إنما يبدين ميلاً للأنشطة غير المندرجة في فئة «المرأة الأنثوية». وإذا كان شكلهن الخارجي مختلفاً عن جميع أولئك العارضات الصغيرات اللواتي تغطّي صورهن غلافات المجلاّت، تصبح المسألة سهلة جداً وسرعان ما تُلصق بهن تسمية «حسن صبي». إن هذه الرسالة شائعة جداً لسوء الحظ ولها تداعيات دراماتيكية على الولد الذي يكبر ويدخل مرحلة المراهقة وفي ذهنه صورة سيّئة جداً عن نفسه. تبثّ هذه الكلمات السامة شعوراً قوياً بالنبذ والرفض لدى الفتاة التي تعتبرها والدتها بعيدة بُعد السماء عن الأرض من الفتاة الأنثوية الرقيقة التي كانت تحلم بها. لا تستطيع الأم تحميل ابنتها مثالها الأنثوي الخاص ولا تستطيع أيضاً مطابقة ابنتها مع هذا المثال، لذلك فإنها ترفضها وتنبذها.

على الفتاة الصغيرة أن تكون جميلة وأنثوية مثل أمّها. ولكن ليس أكثر من اللازم كيلا «تغطّي» عليها، ولا أقل من اللازم كيلا تُشعرها بالخجل. إلاّ أن شكل ماري الخارجي وتصرّفاتها لا تذهب أبداً في هذا الاتجاه. إنها تسعى إلى أن تكون على طبيعتها، من دون التقيّد بالضرورة برغبات ومطالب والدتها. تعرف الفتاة ماذا تريد وليست بحاجة إلى أن تنتظر أمّها لكي تشير عليها بما تفعله من أجل

شغل وقت فراغها. إنها لا تنتظر من أمها أن تملي عليها «تصرّفات الفتاة» الرسمية. ولا تسعى بأي ثمن إلى إرضاء والدتها، لكنّها تسعى إلى إثبات ذاتها.

ولد هجين

تبني الفتاة شخصيتها من خلال نظرة أمّها السلبية إليها. فعبارة «أنت صبي حقيقي» تضيّع الفتاة الصغيرة في طريقها لبناء هويتها الأساسية. ويؤدّي الانتقاد المتكرّر إلى تشويه العلاقات المستقبلية بين الأم وابنتها. ستجد الفتاة على الأرجح صعوبات في صداقاتها مع الفتيات الأخريات وأيضاً في علاقاتها مع الفتيان من حيث إغراء الآخر واجتذابه، وذلك لأن كلام الأم يُقلّل أيضاً من قدر الجنس الآخر. فإذا كان من المعيب على الفتاة أن تتصرّف «كالصبيان» فذلك يعني أن الفتيان سيّئو السلوك.

تسعى الفتاة في هذه الحالة إلى النجاح في الأنشطة التي تشبهه من أجل تعزيز ثقتها بنفسها، التي صدّعتها أمّها. وهكذا تصبح العلاقة بين الأم وابنتها علاقة تتسم بالنزاع والخلاف. كما أن الهاوية التي تفصل بين المرأتين تجعل من التواصل أمراً مستحيلاً.

اختيار الكلمات

ما هو الأهمّ في نظرك؟ ما ستصبح عليه ابنتك أو ما كنت تحلمين بأن تكون؟ إنها ابنتك ولا شيء يهمّها أكثر من تقدير أمّها لها. لذا لكي تساعديها على تحقيق احترامها لذاتها، من المهم جداً أن تكوني فخورة بها. لا تقوم رسالتك في الحياة على نبذها ورفضها لأنها مختلفة، ولكن على إعطاء قيمة لطبيعتها وحقيقتها وإمكانياتها

ومواهبها مهما كانت. إن الصورة الجيدة أو السيّئة التي ستكوّنها عن نفسها تتوقّف على كلماتك: إذا كانت كلماتك مشجّعة وتُشعرها بالرضا، فإنك تزودينها بالوقود الضروري لنموّها وانطلاقها.

> «كنتُ أنسى دائماً ما يقوله الناس لأن ما كان يهمّني ليس ما يريدون قوله ولكن الطريقة التي يقولونه بها، حيث إنها تكشف عن طبعهم أو عن سخافاتهم».
>
> مارسيل بروست، الزمن المُستعاد

الويل لك إذا... إيّاك أن..، إيّاك إذا...، حذارِ

«الويل لك إذا لمست هذا مرّة ثانية، سأقول لبابا!»

تعرفون طبعاً أولئك الأمّهات اللواتي لا يفرضن سلطتهن ونفوذهن إلاّ عند فرض العقاب. يقلن للولد: «سترى عندما يأتي بابا!»، فيتركن بذلك دور فارض القانون والعقاب للوالد الذي غالباً ما تقتصر علاقته بأولاده على التوبيخ والتأنيب في المساء بعد عودته من العمل. وتكون نتيجة هذه المناورة أن الطفل يعتبر أن لا أحد يحبّه، لا أبوه الذي يوبّخه ولا أمّه التي تشي به.

سلطة الغائب

من الصعب التخلّي عن هذه الطريقة التربوية الحمقاء إنما العملية جداً عندما تنقصنا الوسائل لفرض الطاعة.

في الواقع، هذا الوضع لا يقتصر فقط على علاقة الأهل بأولادهم فالسائق مثلاً الذي يتجاوز دائماً حدود السرعة المسموح بها يعرف الخطر الذي يواجهه، لكنّ هذا لا يمنعه من زيادة الضغط على دواسة السرعة. ففي النهاية، ما هي احتمالات أن يُعاقب لتجاوزه حدود السرعة؟ كل شيء في الحياة مسألة حظ، أليس كذلك؟ عبارة «الويل لك...» هي مجرّد تنبيه أو تهديد وليست عقاباً حيث إن الشخص الذي يُفترض به تنفيذ العقاب ليس موجوداً. إنها مجرد إشارة على قارعة الطريق تحمل تحديداً للسرعة. وفي أغلبية الأحيان، عندما يعود الأب إلى البيت لا ينفّذ بالضرورة التهديد الذي أطلقته الأم. لماذا عليه أن يعاقب الولد؟ وهكذا يصبح العقاب الذي أعلنته الأم توبيخاً ينقصه الحزم والجدّية، لا سيّما إذا فضّل الأب الجلوس أمام التلفزيون والتخلّي عن واجبه في فرض سلطته. كثيراً

ما لا يُنفَّذ التهديد فيتعلّم الولد أن مخالفة القواعد والقوانين لا تأتي عليه تلقائياً بالعقاب. ويمكنه أن يسمح لنفسه في المستقبل بارتكاب بعض التجاوزات في السرعة وراء مقود سيّارته الأولى، أو قيادة السيّارة بعد تناول الكحول. باختصار، قد يتصرّف بما فيه جهل أو رفض للقواعد الأساسية التي تسود الحياة الاجتماعية، وهذا أمر تندّد به السلطات العامة من خلال حملات إعلامية ضخمة على التلفزيون. هنا أيضاً، تُعتبر سلطة الدولة تهديداً من دون نتيجة.

إننا نخوض كالعادة المعركة الخاطئة. وبدلاً من الانقضاض على سبب المشكلة، ننقضّ على أعراضها التي هي في النهاية مجرّد عواقب ناتجة عنها. يكمن أصل المشكلة في التواصل اللفظي وغير اللفظي الذي يدور بين أفراد الأسرة. فإذا علّمنا الأهل أن يفكّروا قبل أن يحذّروا ويهدّدوا ويعاقبوا؛ وإذا فتحت السلطات العامة مدارس للتفكير حول تربية الأهل لأولادهم منذ صفوف الروضة، قد يشعر الجيل القادم بمزيد من المسؤولية والاحترام حيال المجتمع الذي يعيش فيه... وقد يسبّب هذا عدداً أقل من حوادث السير.

كفى تهديدات!

يجب أن يكون العقاب فورياً وألا يؤجَّل إلى إشعار غير مسمّى. فعبارة مثل «أحذّرك بأنني لن أتوانى عن ضربك على مؤخّرتك إذا استمرّيت بإزعاجي» تُعلِم الولد أن العقاب آتٍ لا محال. من الضروري ربط القصاص بالتصرّف السيّئ غير المرغوب به. يعتبر الطفل العقاب المؤجَّل ظلماً بحقّه. ويشبه الأمر قليلاً غرامة السير الذي تضطرون إلى دفعها ثلاثة أشهر بعد المخالفة! لكل عقاب يرتبط مباشرة بالمخالفة قيمة تربوية أكيدة. تذكّروا دائماً هذه القاعدة!

ضاق خلقي منك

«لقد ضاق خلقي منك»، تقول تلك الأم الغاضبة لابنها الذي لم يتوقّف عن إزعاجها لكي تشتري له لعبة جديدة.

نجد هذه العبارة عادة عند الأم المراهقة التي تتوجّه إلى طفلها الذي تجد صعوبة في اعتباره ابنها. الطفل الذي «يضيق خلقكم منه» هو طفل فُرض عليكم نتيجة صدفة أو ظروف خارجة عن إرادتكم. لقد شعرتم ربما أنكم أصغر سناً من أن تواجهوا المسؤوليات العائلية. هذا الطفل الذي ضاق خلقك منه قد ضاق به بطنك طوال تسعة أشهر. والاحتقار، أو حتى الرفض، الذي يظهر من طريقتك في التحدّث إليه أو في تأنيبه هو في أساس إلحاحه عليك وإزعاجه لك. اصغي إلى نفسك جيداً عندما تتوجّهين إليه بالكلام فشعورُك بالظلم والغضب يؤثر سلباً في كلامك معه ويسدّ الطريق أمام أي إمكانية حوار مع طفلك.

اختيار الكلمات

إذا رغبتم في تقديم مستقبل مختلف عن حاضركم لولدكم، تعلّموا أن تتكلّموا معه كشخص مسؤول، أيّاً يكن عمره. احترموه فيتوقّف عن إزعاجكم لأسباب تافهة.

فتاة كبيرة

«أنت رائعة، أنت فتاة كبيرة»

– حبيبتي، هل يمكنك أن تساعديني في غسل الأطباق من فضلك؟
– أنا آتية، ماما!
– أنت جفّفي الأطباق النظيفة وأنا أتولّى الأطباق القذرة! هل يناسبك هذا؟
– أجل ماما!

بعد الانتهاء من غسل الأطباق وتجفيفها، قالت الأم: «لقد انتهينا، أشكرك على المساعدة. أنت رائعة يا حبيبتي! إنك فتاة كبيرة».

حذار! قد تخبّئ الكلمةُ كلمةً أخرى

إن هذا النوع من الشكر الذي يوجّهه الأهل إلى أولادهم هو شائع جداً وكثير الحدوث. ربما تلجأون أنتم أيضاً إلى هذا النوع من المكافآت ولا تجدون أي ضرر في استخدام هذه الكلمات إلاّ أن هذه الصياغة غير مناسبة على الإطلاق وستفهمون السبب في الحال. عندما تطلبون معاونة ولدكم لإنجاز عمل ما، مهما يكن، وتشكرونه بعبارة «أنت فتاة كبيرة» أو «أنت فتى كبير» أو «أنت رائع (رائعة)» أو «أنت مدهش (ة)» الخ، فإنكم تصدرون عليه حكماً تقييميّاً. ويتعلّق هذا الحكم التقييمي بشخصية الولد في مجملها، وليس بالعمل الذي أنجزه. يستحق الولد بالطبع أن يتلقّى الثناء لإتمامه عمله ولكن ليس لشخصيته.

لغة الانفعالات

ما الذي يحدث عند الولد على الصعيد الانفعالي عند تلقّيه مثل هذه الرسائل؟ يشعر بالطبع برضا كبير، لكنّ هذا الشعور غير مطابق للواقع لأنه يمسّ طبيعة الولد وجوهره وذاته، وليس له أي علاقة بما فعله (غسل الأطباق...). هذا النوع من الجمل يكبت قدرته على الفعل والتصرّف ويكبح إمكانية تحقيقه لذاته. علماً أنكم إذا كنتم تستخدمون هذا النوع من التعابير لتشجيع ولدكم ومكافأته عند قيامه بعمل مفيد أو مستحسن، فهناك احتمال كبير بأنكم تستخدمون أيضاً عبارات مثل «أنت ولد سيّء» و«أنت أحمق» و«أنت غبي» و«أنت شرير» (انظر في «شرير»: «أنت شرير، لم أعد أحبّك!» ص200)، و«أنت لست موهوباً» وكافة الصيغ الأخرى من هذا النوع لتأنيبه وتوبيخه. هذه الصيغ التعنيفية غير مناسبة أو وافية بالغرض مثلها مثل الصيغ التشجيعية المذكورة آنفاً. في هذه الحالة أيضاً، ولدكم ليس أحمق أو شريراً، لقد ارتكب حماقة أو تصرف بشكل سيئ. إنكم تعبّرون مجدّداً عن حكم تقييمي يتعلّق بشخصية الطفل ككل ولا تأخذون بعين الاعتبار سوى الفعل الوحيد الذي ارتكبه.

أضرار الخطاب المعمّم

يتأرجح ولدكم بين الثناء من جهة والتوبيخ من جهة أخرى على شخصيته كفرد وليس على أفعاله. فمن البديهي أن يشكّ في النهاية بطبيعته وشخصيته. هذه الشكوك التي يستخلصها من كلماتكم تزعزع ثقته بنفسه وتمنعه من بناء صورة متوازنة عن نفسه. من ناحية أخرى، توحي له هذه الصيغ المعمّمة أن ما يهمّ ليس ما يفعله ولكن الطريقة التي يقدّره بها الآخرون. إنكم تبرمجونه على العمل

والتصرف بما يتناسب فقط مع رأي الآخرين. ستجعلون منه شخصاً راشداً متوتّراً يعاني الضغط النفسي Stress لأنه سيشعر دائماً أنه في وضع امتحان. إنكم تكيّفونه على البحث دون كلل أو ملل عن هذا الشعور بالرضا الذي يعطي قيمة لذاته («أنت فتاة كبيرة أو فتى كبير») من دون إيلاء أي اهتمام لطبيعته وشخصيته الحقيقية، ولما يستطيع إنجازه ولمواهبه الحقيقية. ستدفعونه إلى تعليق أهمية كبيرة على المظاهر، ولن يجد سبب وجوده إلاّ من خلال نظرة الآخرين إليه.

اختيار الكلمات

طلبتم من ابنتكم أن تساعدكم في غسل الأطباق، فإليكم كيف تشكرونها على مساعدتها: «لقد جفّفت الأطباق بشكل ممتاز، كل شيء نظيف تماماً! أحسنت يا حبيبتي! لقد عملت بشكل جيّد».

يتّصل الثناء بشكل مباشر بالعمل الذي تم إنجازه. ويجب أن تحرصوا على أن يبقى كذلك. يُقدَّر الولد هنا لعمله. إن المكافأة الملائمة للعمل المنجَز والتي تأتي في مكانها تحفّز الولد على تكرار ما نجح في تحقيقه بمبادرة شخصية منه. فيصبح، هو وهو وحده، الفاعل المسؤول عن نجاح ما يشرع في تحقيقه.

هكذا، تعزّزون ثقته بنفسه وتساعدونه على تكوين صورة جيّدة عن نفسه. بالطريقة نفسها، عندما توبّخون ولدكم، عليكم استهداف أعماله وتصرّفاته وليس شخصه. عليكم دائماً أن تتذكّروا أن أفعال الولد وحركاته وأقواله هي وحدها التي يمكنكم رفضها أو تأنيبه بشأنها. أما إصلاح الحماقات فهو في أغلب الأحيان أكثر فعالية من القصاص. إنه يجعل الولد يدرك عواقب أفعاله ويجعله مسؤولاً عن تصرّفاته.

رجل حياتي

«أنت رجل حياتي»، تقول تلك الأم غير مدركة الوقع النفسي السامّ للرسالة التي توجّهها إلى ابنها الصغير.

لم أسمع قط أباً يقول لابنته: «أنت امرأة حياتي». لكنّ الجملة المعاكسة، من الأم إلى ابنها، شائعة الاستعمال وتبدو عادية جداً. أعلنت مؤخّراً إحدى الأمّهات أمام ملايين المشاهدين الذين يتابعون برنامج ستار أكاديمي الفرنسي أن صوفيان، ابنها البالغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة، هو «رجل حياتها». ولقد بدأ «الفتى» بالبكاء كالطفل الصغير عندما اعتلت والدته الجميلة المسرح لتثير بكاء المشاهدين. عواطف تلفزيونية مهترئة تثير السخرية لكنّها مفيدة جداً للمعلنين، ولا شك أن فاصلاً إعلانياً بعد هذا المشهد يزيد الأرباح!

الحب المتناقض

هل إعلان الحب هذا لولدها الشاب يسمّم نفسيّته؟ تتحدّث الطبيبة النفسانية فرانسواز دولتو عن الأمّهاتِ اللواتي يقضين على رجولة أبنائهنّ. . . فلكي يحظى الفتى برضا أمّه، يعدُلُ عن التحوّل إلى «رجل». . . ويقبل بلعب دور الرجل الأنثوي امتثالاً لرغبة الأم غير المعلنة، مما يؤدّي إلى شذوذ جنسي (لواط) كامن أو فعلي. إن الحب المتناقض الذي قد تشعر به الأم تجاه ابنها هو شعور يعيق نموه على الصعيد العاطفي أو الجنسي.

نظرة أخرى حول العلاقات المحرّمة

عندما تعبّر الأم عن عاطفتها لابنها بهذه الطريقة، فإنها تؤكد

على وجود علاقة محرّمة مع ابنها، أي مخالفة للطبيعة. وارتكاب المحارم ليس بالضرورة مسألة علاقة جنسية محرَّمة. بل يمكنه أن ينتج أيضاً من عاطفة معيقة وغير جسدية تكنّها الأم لابنها، وهي علاقة شاغلة تدمّر عاجلاً أو آجلاً أي حب يشعر به الواحد تجاه الآخر. وقد أدّى تفكّك الأسر التقليدية إلى نشوء أسر قائمة على الأم وابنها.

لا بد من الإشارة أخيراً إلى تناقض ظاهري مثير للاهتمام: في مجتمعنا الأبوي، تتمتع الأمهات على ما يبدو بسلطة أكبر من سلطة النساء.

اختيار الكلمات

إذا حدث لك أن ضممت ابنك الصغير بين ذراعيك قائلة له إنه رجل حياتك «لمجرّد المزاح»، اعلمي أنه يأخذ كلامك جديّاً، خصوصاً إذا كنت منفصلة عن أبيه. قد يبدو لك هذا النوع من إعلان الحب مثيراً للضحك، لكنّه مضرّ ومتهوّر. لا بد أنكم سمعتم عن فتى صغير يرغب في الزواج بأمّه. هذا الاعتراف الظريف هو في قلب الطفل إعلان جادّ عن نيّته. تخيّلوا للحظة واحدة أن تجيب أمّ ابنها فتقول: «أنت رجل حياتي وسنكون دوماً معاً. لن يأتي أي رجل آخر للعيش معنا». هذا الوعد هو في الحقيقة اتفاق جهنّمي بين الأم وابنها. ولكن سيقول لكم الجيران كلّهم إن ابن هذه السيّدة ابن حنون يعبد أمه العجوز، وهو على كل حال لم يتركها أبداً. عندما لا تريد الأم أن يتزوّج ابنها وينجب لها الأحفاد، يعني هذا أنها تتصرّف مع ابنها كزوجة مثالية وعذرية، وليس كأم.

خَجَل، الشعور بالخجل، خَجِلَ

«لا تأتني بعلامات سيّئة فتشعرني بالخجل!»

- كيف تجري الأمور في المدرسة؟
- لا بأس!
- هل المعلّمة لطيفة؟
- لا بأس بها!
- ما الذي تفعلونه في الصف؟
- ندرس!
- إنك لا تتكلّم كثيراً! على كل حال، آمل أنك تدرس جيّداً، لا تجعلني أشعر بالخجل بإحضار علامات سيّئة!

الوالد (أو الوالدة) الذي يُدخل الخجل في ذهن ولده يجعل من نفسه بديلاً عن ضمير ولده ويجتاح مشاعره ويحرمه من حريّة الإحساس بها.

لا أسباب تخفيفيّة

يرتكب الولد غلطة عندما يشعر بانفعالات عنيفة أحياناً: «ألا تخجل من الشعور بالكره تجاه أختك الصغيرة؟». إنه مذنب لوجوده خارج الحدود التي تعيّنها المبادئ الأخلاقية الخاضعة لحكم الوالدين. على الولد إذن أن يشعر حتميّاً بالخجل لأنه لا يتوافق مع صورة الولد المثالي التي كوّنها والداه اللذان يهتمّان بصورتهما الاجتماعية أكثر مما يهتمان بنمو ولدهما وسعادته.

من الخضوع إلى الخجل

الخجل شعور مخيف بالنسبة للطفل الذي لا يعرف أبداً كيف

يحمي نفسه منه. ويتّصل الخجل في الكثير من الأحيان برفض الخضوع وبرفض الإحساس بمشاعر طيّبة تُعتبر مشروعة. الولد الذي يكره أخاه هو ولد مخجِل «قاتل» لأخيه، وذلك الذي يرفض تقبيل جدّته العجوز لأن رائحتها كريهة ليس سوى فتى عاق ناكر للجميل. أمّا الولد الذي يرسب ويضطر إلى إعادة سنته فهو عارٌ على أهله وعلى القرية. الخجل، أو الإحساس بالعار، هو شعور ملوِّث ثقيل للحمل. عندما تضغطون على ولدكم وتضيّقون عليه، فإنكم تجعلونه ابن العار وتدمّرون ببطء تقديره لذاته، وهو أمر يحتاج إليه للاندماج في المجتمع. لن يجد خياراً آخر سوى اللجوء إلى الحياء أو إلى الجنوح. شكراً بابا، شكراً ماما!

اختيار الكلمات

الخجل أو الشعور بالعار هو شعور قد اختبرتموه على الأرجح في طفولتكم، ولن تتحرّروا منه بهذه الطريقة. كل مرّة تذكرون فيها هذا الشعور الملوِّث تعودون إلى ماضيكم الشخصي. فالخجل قد لاحقكم إلى حياتكم كراشدين وهو يرفض إفلاتكم. والطريقة الوحيدة التي تسمح لكم بالتخلّص منه هي في نقله إلى ولدكم. وأنتم تقومون بذلك عن غير قصد! «آمل أن تعمل بجدّ» هي رسالة ملزِمة وتهديد شبه صريح وأمل كاذب لا يؤدّي إلاّ إلى غد باعث على الخجل والعار. إنها مشكلتكم أنتم وليست مشكلة ابنكم. الخجل أو العار شعور قذر والكلمة ليست بأفضل منه، بل قذرة مثله وكريهة الرائحة.

هو (صيغة الغائب المفرد)

عندما نتكلّم عن أحدهم في صيغة الغائب، يعني هذا أنه غير موجود.

«هذا الولد نهايته سيئة»

قالت المعلمة لكن للأم المفجوعة لسلوك ابنها المشين في المدرسة. وتتكلّم المعلّمة على هذا النحو في حضور الفتى، الذي يخفض رأسه ويكبت ابتسامة ساخرة. إنه مثال للفتيان الأشقياء! كان بإمكان الأم أن تعترض وتطلب تفسيراً: «علامَ تستندين لتوجّهي مثل هذا الاتهام؟» فتحمي بهذه الطريقة ابنها من الأمر غير المباشر الصادر عن شخص يمتلك سلطة أم بديلة. لكنّ الوالدة تؤيّد هذا الحكم وتستقيل من دورها فتلتفت إلى ابنها قائلة: «هل سمعت ما قالته المعلّمة؟». إنها تصطفّ مع الغرباء بدلاً من أن تتصرّف كأم تحمي صغارها. شعر الفتى أنه تعرّض للخيانة من قِبل الشخص الذي له الأهمية الكبرى في حياته: أمّه. فقد أيّدت الاتهام ودعمته بدلاً من أن تدافع عن ابنها في وجه تلك المرأة الغريبة التي تحاول تدمير احترامه لذاته. بعد بضع سنوات، كبر الطفل وتورّط المراهق في تجارة المخدّرات. أوقفته الشرطة ووضعته في تصرّف قاضي الأحداث ثم وصل إلى مكتبي بتوصية من المحكمة. كانت الأم قد نسيت المشهد المذكور آنفاً لكنّ ابنها لم ينسه، وقد أثّرت فيه هذه الحادثة إلى الأبد. كل ليلة، قبل أن ينام، يقصّ على نفسه الرواية نفسها بأشكال مختلفة، وهو حلم يقظة يغتصب فيه ويعذّب معلّمته في تلك المرحلة. ويحدث أيضاً أن يخلط بين وجه المعلّمة ووجه أمه. بعد البوح بحلمه السرّي، أنهى كلامه قائلاً: «إضافة إلى ذلك، كانت قبيحة جداً».

– ماذا لو كانت أمّك قد دافعت عنك في ذلك الوقت؟

- مستحيل! كانت أمي توافق على كل ما يُقال. تنحني أمام أي شخص له ذرة من السلطة. الشرير كان دائماً أنا، وليس الآخرون. أنا كنت «هو»! ذلك الذي لا وجود له.

في الأخبار الأخيرة عن ذلك الشاب، عرفنا أنه نجح في إصلاح أموره ولكنه لا يزال غير موجود، فقد أصبح كاتباً هزلياً ويستخدم اسماً مستعاراً.

اللعنة

لا جدوى من التأكيد لكم أن تكرار هذه اللعنة: «هذا الولد نهايته سيّئة»، سيؤدّي إلى تحقّق توقّعاتكم في 90٪ من الحالات. إذا كنتم لا تريدون خيره، فلا أعرف طريقة أفضل لقتل ولدكم. إذا كان جاركم العزيز هو مَن يكشف لكم عن حماقات ابنكم اصرفوه بخشونة وتخلّصوا منه نهائيّاً. يستحقّ ولدكم أن تتصرّفوا كأبطال لحماية مستقبله من التكهّنات السيّئة التي يطلقها ذلك الجار الأحمق الغريب الأطوار في الشقّة المقابلة. لا تدعوا أحداً أبداً ينتقد ابنكم أو ابنتكم في وجودهما من دون الردّ على الانتقاد فوراً... أو بعد حين إذا كنتم ممّن يحبون الطعام بارداً. هل تقبلون بأن يهينكم أحد من دون أن تردّوا عليه؟ وولدكم، أليس قطعة منكم؟

الأمر غير المباشر

«ابنتي لا تفعل سوى الحماقات»

(انظر فعل، ص140).

«لن يحقّق ابني أي شيء أبداً»

(انظر وصل إلى، ص44).

إن صيغة الغائب المفرد وسيلة ممتازة للتلاعب بوضع ميئوس منه. فالرسائل الأشد عنفاً هي الرسائل التي تُصرَّف في صيغة الغائب المفرد، وهو ما أسمّيه الأمر غير المباشر. تتوجه دائماً هذه الرسائل إلى شاهد (شخص ثالث) في وجود الولد أو الشخص المتَّهَم. ويقوم دور الشاهد على إعطاء الانتقاد مصداقية أكبر مما لو وُجِّهت الملاحظة للولد مباشرةً. ومثلما سبق لي أن أشرت، «لن تحقّق أبداً أي شيء» أو «لن تصل أبداً إلى أي شيء» هي رسالة مباشرة يمكن للمتلقّي أن يلغيها كلامياً أو ذهنياً. أمّا الأمر غير المباشر فآلية منوِّمة (بالتنويم المغنطيسي) وينطبع أثر هذه الرسالة في البنية السلوكية للولد ويتحوّل إلى سلوك ناشط.

«أهي فتاة أو صبي؟»

«أهي فتاة أو صبي؟» سألَ الطبيب العائلة التي استضافتني ذلك الصيف وهو يفحصني.

كنت أمضي عطلة الصيف في نادٍ لركوب الخيل وقد عضّني حصان شرس في صدري الذي لم يكن قد تكوّن بعد. إنها أخطار المهنة!

«10 سنوات» أجاب مُضيفاي. أتذكّر تماماً أني كدت أعضّ الطبيب بدوري، لشدّة ما جرحني سؤاله. كان الألم الذي اعتصرني أشدّ ألف مرّة من الألم الناتج من عضّة الحصان. كيف يمكنه أن يتردّد في تحديد طبيعة جنسي، خصوصاً وأن شعري الكستنائي الطويل ينسدل على كتفَيّ؟ لكنني لم أكن أشعر بالراحة مع نفسي في تلك المرحلة، إذ لم أكن أتقبّل جسمي بسهولة. جاء سؤال الطبيب كإهانة لي بالنظر إلى الصعوبات التي كانت تواجهني لإثبات ذاتي وإلى الصورة السلبية التي كوّنتها عن نفسي.

بعد مضي عدّة عقود على الحادثة، أدركت ما لم أسمعه أو أفهمه عندما كنت طفلة. لم يكن معنى كلمات الطبيب هو ما أهانني وجرحني، ولكن طريقته الاحتقارية في تجاهلي. كنت تحت ناظري

رجل يجسّني ويفحصني بدقة ويتكلّم عني كما لو كنت غائبة. لو حدث لي ذلك وأنا امرأة راشدة لأجبت على الأرجح بشيء من مثل: «خذ راحتك من فضلك، اعتبرني غير موجودة..!» لكنّ الأولاد ليس لديهم حسّ نكتة فعّال بما فيه الكفاية ليحتموا ويدافعوا عن أنفسهم في وجه من يلغون شخصيتهم وفرديتهم وذاتيّتهم.

لم ينجم الألم الحاد الذي شعرت به عن عدم قدرة الطبيب على تمييز طبيعة جنسي، فقد علّمتني الحياة أن الأطباء ليسوا دائماً مراقبين دقيقين ومحلّلين نفسيّين نافذي البصيرة، لكنّه أتى من الشعور بعدم الوجود الذي كان يحسّسني به. باستخدامه صيغة الغائب المفرد، محاني من الوجود وقضى من دون أي مراوغة على «الشيء» التافه الذي لا أهمية له الموجود تحت نظره. وبمنطق الأشياء، كيف يمكن أن يكون لي جنس إذا كنت غير موجودة؟ هذا العدم الذي كانت كلمات الطبيب تجذبني إليه قد سبّب لي ألماً عميقاً جداً.

اختيار الكلمات

الطفل كائن يتمتع بالذكاء، وقادر على الإحساس بالمشاعر والانفعالات تماماً مثل الشخص الراشد. وهو بالتالي كائن من الضروري احترامه. ويمرّ هذا الاحترام باستخدام صيغة المخاطَب (أنت) عندما تتوجّهون إليه.

> «لا نكذب إلاّ بكلمات وعبارات علّمونا إياها»
>
> ج.ج غولدمان

نيّة، نَوى

«أنوي أن أهديك آخر موديل من لعبتك الإلكترونية المفضّلة إذا...»

عندما تنوون القيام بأمر ما، يعني أنكم تتظاهرون بالقيام به. فالنيّة هي مثل الوعد الذي لا تفون به. في الواقع أنتم تكشفون عن مشروع معيّن، إلاّ أن هذا الكشف لا يلزِم أحداً سواكم.

في أغلب الأحيان، ينبذ الطفل والديه اللذين يعبّران دائماً عن نيتهما في القيام بهذا الشيء أو ذاك، لأنه يتألم بصمت من الوعود التي لا يفيان بها. إن عدم الوفاء بالوعد فعل مشين يُسدَّد ثمنه بعد وقت طويل ومع الفوائد. إن معظم الأهل المسنّين المتروكين في دور الرعاية بانتظار الموت والذين يشتكون من إهمال أولادهم لهم هم من أولئك الأهل الذين ينوون دائماً والذين نسوا جميع الوعود التي قطعوها لأولادهم ولم يفوا بها. إن الوالد (أو الوالدة) الذي يحترم دائماً (أو بشكل شبه دائم) تعهّداته لن يجد نفسه يوماً مركوناً في زاوية. يجب أن نتذكّر أن التربية هي بشكل أساسي مسألة تشبّع وتشرّب. المثال الذي تقدّمونه يتقدّم على الخطاب التربوي. إذا لعبتم دور الوالد (الوالدة) الذي ينوي من دون أن ينفّذ فلا تتعجّبوا إذا أدار لكم ولدكم ظهره عندما يصبح راشداً بدوره، وذلك في وقت أنتم في أمسّ الحاجة إلى دعمه المعنوي أو إلى مساعدته. ما لَم يُزرَع لا يمكنه أن يُزهِر. والوعود المهمَلة هي خيانات لن يسامحكم عليها ولدكم في حياته.

توأم

«كانت صوفي سعيدة قبل أن أنجب لها التوأم»

ظلال الذنب

شعور الأم بالذنب واضح هنا، فقد حمّلت ابنتها عبء ولدين جديدين وسبّبت لها التعاسة بتقليص حرّيتها. لقد ارتكبت الأم غلطة وهي تعلن ذلك لكل من يريد أن يسمع، خصوصاً في وجود ابنتها الكبرى التي تشعر أنها تتعرض أكثر فأكثر للإهمال بسبب أختيها التوأم. الرسالة واضحة كل الوضوح. لن تكون صوفي سعيدة أبداً في حياتها بعد اليوم بسبب أختيها التوأم اللتين أنجبتهما لها أمّها. وذلك لأن الصغيرتين ستستأثران بالمداعبات والملاطفات والقبلات وستحتلان كل المساحات وتجتاحان كل شيء، مثلما يستطيع التوائم وحدهم أن يفعلوا. فولدان صغيران يأتيان دفعة واحدة يسبّبان عشرة أضعاف من الهموم الصغيرة والمشاكل الكبيرة. ستجد صوفي نفسها مُبعدة عن الحلقة التي تشكّلها أختاها، أضف إلى أن حُكم أمّها قد أقصاها إلى الأبد عن السعادة العائلية.

اختيار الكلمات

إن طريقتك في الاعتراف بذنبك مثيرة للدهشة. يبدو وكأنّك كنت تغارين من سعادة ابنتك الوحيدة. فلماذا إذن فرضت عليها التوأمين؟ تعطين انطباعاً بأنك ارتكبتِ خطأً بإنجاب طفلين دخيلين، وفي الوقت نفسه عاقبتِ ابنتك الكبرى رغماً عنك. في الحقيقة، إن ملاحظتك تعني ضمنياً أنك كنت سعيدة قبل أن تنجبي هؤلاء

الأطفال الثلاثة. أليس ذلك معقولاً؟

يمكن ترجمة ملاحظتك بطريقة أخرى: «كنا سعيدتين جداً، أنا وابنتي الوحيدة، قبل أن أرتكب حماقة إنجاب ولد آخر». هذا التفسير الثاني ينفي عنك الذنب على الأقل في نظر ابنتك الكبرى. وماذا بالنسبة للصغيرتين؟ يجب أن تتحمّلي مسؤوليتهما بما أنهما موجودتان والأسوأ من ذلك كلّه هو أنك ستضطرّين أن تحبّيهما لكي تقبل الابنة الوحيدة بتقاسم عالمها مع أختيها. سوف تضطرّون إلى أن تتعلّموا كيف تكونون سعداء وأنتم خمسة (مع الأب) مثلما كنتم وأنتم ثلاثة (الأب والأم والابنة الوحيدة). ويعني هذا أن الملاحظات من هذا النوع ممنوعة منعاً باتاً، إلاّ إذا كنت تفضّلين فتح باب الكره والعداوة بين الأخوة تكونين أنت أول ضحاياها.

> «خلافاً لما يحصل في عالم الحيوان، لكل شيء في عالم البشر «معنى» حتى الحركات الأكثر سُخفاً تحمل معنى»

ترك، وَدَعَ

«دعني أقول لك رأيي فيك!»

«دعني أقول لك ما أظنّه بك»!

– سيمون، لقد طلبوا حضوري مجدّداً إلى مكتب مديرة المدرسة! هذه المرّة الرابعة منذ بداية السنة. أظن أن هذا قد تجاوز الحد! ماذا يجري، يا سيمون؟
– لا شيء، ماما، كل شيء على ما يرام!
– سيمون، هل تسخر مني أم ماذا؟
– كلا، ماما!
– سيمون، لقد شرحت لك، آخر مرّة استُدعينا فيها، أنه إذا ما واجهتك مشاكل، يجب أن تحدّثني عنها. أنا هنا لأصغي إليك، لأساعدك!
– ولكن، ليس لدي أي مشاكل، ماما!
– إذن، لماذا لا تدرس في الصف؟
– لا أدري!
– كيف هذا، لا تدري!
– ليس لدي رغبة في ذلك، هذا كل شيء! ما تقوله المعلمة لا يثير اهتمامي.
– لا يثير اهتمامك! لم يكن ينقص إلاّ هذا! سيمون، دعني أقول لك رأيي فيك: أنت كسول! الخ.

يجب أن تمتنعوا عن إصدار الأحكام من نوع: «أنت لا تصلح لشيء»، وهي ملاحظات تُنزل من قدر الولد وتجرّده من قيمته. يشير استخدام فعل «دعني» إلى أن الأم تطلب موافقة سيمون. فاستعمال هذا الفعل كنواة للجملة، يمحو سلطة الأهل. فهذا الفعل ينضوي تحت راية التساهل!

أمّا الفعل «قال» فهو مرادف لعدم الفعل، مثلما أشرنا سابقاً (انظر قال، ص112). ويؤكّد استخدام هذا الفعل رفض الأم (غير المعلن) الانخراط في تربية ابنها. من جهة أخرى، يشير هذا الفعل إلى ميل الأم إلى الخطابات التهذيبية التي ترضي ضميرها.

أمّا بالنسبة إلى مَن يعطي رأيه أو يعلن عن رأيه أو يظن، فهو عموماً لا يفكّر كثيراً ولا يفعل شيئاً يُذكر. إن استخدام فعل ظن أو إعطاء الرأي في الجملة يؤكّد أن الوالدة (أو الوالد) لا تسعى إلى فهم الأسباب الأساسية القائمة وراء فشل ابنها في دراسته. بل إنها تختبئ وراء أحكام مسبقة.

ليس الغرض من هذه الجملة حثّ الولد على العمل أو الحصول منه على ردّ فعل، ولكن رفع الذنب عن الوالدة (أو الوالد).

تنادي والدة سيمون ببذل الجهد اللازم وتطلب من ابنها إيلاء المدرسة كل اهتمامه ووقته، في حين أن خطابها كله يُظهر عدم قدرتها على بذل الجهد والوقت اللازمين لتربية ولدها.

اختيار الكلمات

أوّلاً، لا يمكنكم أن تطلبوا الإذن من ولدكم: «دعني أقول لك، أو أساعدك، أو أقوم به مكانك، الخ»، من دون أن تتخلّوا عن سلطتكم. ثانياً، لا «تقولوا» شيئاً ولكن إفعلوا! القول يعيق الانتقال إلى الفعل والتصرّف. ثالثاً، إن ما تظنّونه أمر يخصّكم أنتم، ولا دخل لولدكم فيه، بل ليس له أن يبالي به. ما يريده هو أن تساعدوه لاستعادة متعة التعلّم. وكلمة أخيرة! اعلَموا أن الأوان لن يفوت أبداً لإصلاح الأمور. والولد الذي يعيد سنته ليس ولداً خاسراً أو فاشلاً.

الولد الخاسر هو ذلك الذي يهجره والده (أو والدته) ويتركه وحده في قلب الغابة... مثل طفل الحكاية الصغير. عندما لا نستطيع «تغذية» فِكر ابننا أو ابنتنا، علينا أن نعود إلى مقاعد الدراسة لكي نتعلّم كيف نقوم بذلك.

مثلما أن الحركات هي كلمات الجسد،
فالكلمات هي حركات الشعور.

يــد

«صافح بيدك اليمنى!»

ولماذا نصافح باليد اليمنى؟ هل اليد اليسرى غير لائقة؟ مع أن اليد اليسرى هي جهة القلب. ولكنّ المزج بين اليد اليمنى واستقامة الخُلُق والطبع قد رفع من قيمة المصافحة باليد اليمنى على حساب المصافحة باليد اليسرى. هنالك حوالى 900 مليون أعسر في العالم مجبرون على مدّ اليد اليمنى للتعرّف بأشخاص جدد أو لاستقبال الأصدقاء. ولكن قد يكون هنالك صلة سببيّة بين موقع مراكز النطق وحركة المصافحة باليد المتّفق عليها. يقول دانيال لاكوت إنه عند 70٪ من الأشخاص العُسر يقع مركز النطق في نصف الدماغ الأيسر، مثلما هي حال 99٪ من الأشخاص اليُمْن (الذين يستخدمون اليد اليمنى)، مقابل 15٪ فقط من العُسر الذين يقع مركز النطق لديهم في نصف الدماغ الأيمن، وهو دماغ الانفعالات. وهذا ما يفسّر على الأرجح سبب اعتبار اليد اليمنى هي اللائقة أو اليد الميمونة. بغض النظر عن هذه الاعتبارات، يجب أن تترك لطفلك حرية اختيار اليد التي يعتبرها هو مناسبة لمصافحة السيّد. فتحديد اليد المناسبة يعني ضمنياً أن اليد الأخرى غير لائقة. والمنطق عند الطفل منطق لا يمكن دحضه وهو لا يرى إلاّ بالأبيض والأسود. فكل ما ليس حسناً هو شر وكل ما هو حسن لا يمكن أن يكون شرّاً. كل ما ليس جميلاً هو قبيح، حتى وإن تعلّق الأمر بيد بريئة. العنصرية منتشرة في كل مكان. وهي تبدأ في ذلك الدماغ البشري المقسوم إلى نصفين مختلفين اختلافاً كبيراً الواحد عن الآخر.

لكنّ المصافحة باليد اتصال يتطلب إدراكاً وتمييزاً، فمن الضروري إذن مدّ يد العقل والإدراك والدراية والتمييز أوّلاً، أي اليد اليمنى.

يأتي سحر الكلمة من الصوت الذي يشكلّها والمعنى الذي يُنسب إليها فهما يؤثّران معاً في الانفعالات التي تستقبلها

لكن، ولكن

«أنا متّفق معك تماماً... ولكن»

«لكن» حرف استدراك رهيب وعنيف يعمل عمل القمع في النفس. إنها مقصلة كلامية تسقط كشفرة حادة، أو منعطف حاد ومفاجئ! تلغي «لكن» الجزء الأول من الجملة. ويمكن أن يسبّب الإسراف في استخدام هذا الحرف إعاقة خطيرة لروح المبادرة لدى طفلكم. ولكثرة ما ترددون عليه هذه «الكلمة»، لن يجرؤ على التصرف من دون العودة إلى السلطة. سيعيش حياته خاضعاً لشرط معطِّل، ورأسه دوماً على خشبة المقصلة. «أريد... ولكن...» تعني أني لا أريد حقيقةً لكني أتردّد في الكلام بصراحة. ولكن... كلاّ! إن هذه اللازمة الكلامية هي في أساس المقاومة السلبية.

أجل، ولكن لا!

- ماما، لقد دعتني سارة للنوم عندها يوم الثلاثاء القادم، هل يمكنني الذهاب؟
- أجل، ولكن لا، أريد أوّلاً أن أعرف رأي والديها في الموضوع لأنكما ستستغلان الوضع لتسهرا حتى ساعة متأخرة!

كيف نترجم هذه الـ«أجل ولكن لا»؟

أجل، يمكنك أن تفعل ذلك، ولكن في النهاية، كلا، لا يمكنك ذلك. أو أجل، أنا موافق، ولكن في الحقيقة لست موافقاً. أو العكس بالعكس. ولكن مَن يقول أجل ومَن يقول كلا؟ أين تقع الحدود بين ما هو ممنوع وما هو مسموح؟ مَن رسم خط هذه الحدود؟ إنه صوت داخلي يتدخّل بمكر وتكتّم في الحديث ليعبّر عن

تناقض وتضارب بين ما أفكّر فيه وما أعتقده، وبين ما أقوله وما أظنه أو ما أسمح لنفسي بأن أفكّر فيه. إن أنصار الـ«أجل ولكن لا» أشخاص سُرقت منهم «حريّة التفكير».

الأمر المتناقض!

«أجل ولكن لا» هي جملة الضغط المزدوج. إن الإسراف في استخدام هذه العبارة المتناقضة يشير إلى شخص يعيش تحت ضغط خيارين يتنافى أحدهما مع الآخر ويفرض هذا الضغط على المقرّبين منه: «يمكنك أن تأكل قدر ما تشاء من الحلوى يا حبيبي، ولكن اترك منها للجميع». بالنسبة إلى صاحب هذه العبارة المتناقضة، يمكن تقبّل أي شيء ولكن لا يمكن السماح أبداً بأي شيء. «أجل، ولكن كلا، لا تستطيعين...» ليس المنع صريحاً وجريئاً. تسقط شفرة المقصلة في حال الجرم المشهود. يخلق هذا النوع من التربية أطفالاً متعارضين مع أنفسهم، غير قادرين على اتخاذ قرار، حيث إن كل موقف يفضي بالنسبة إليهم إلى اتجاهين ممنوعين. إن قلّة التهذيب أو الفظاظة التي تنتقدها وسائل الإعلام اليوم ليست سوى نتيجة لهذا «القبول الممنوع». «يمكنك أن تأكل حتى التخمة ولكن الويل لك إذا أكلت كل قطع الحلوى»، هذا ما تعنيه رسالة الأم. «أريد ولكن لا أستطيع»، هو المعنى الأوّلي لهذا الأمر المتناقض.

اختيار الكلمات

العادة الكلامية: «أجل - ولكن - كلا» هي أحد الأعراض الثانوية جداً لانفصام الشخصية، فلا تخافوا! لن تجدوا أنفسكم في مستشفى للأمراض النفسية لشيء بهذه التفاهة. إلاّ أن هذه العادة في التناقض قد تنال من مصداقيتكم في نظر أولادكم في مرحلة أولى، وتنقل إليهم عدم القدرة على اتخاذ قرار جازم في مرحلة ثانية.

يطالبكم ابنكم للمرّة الألف قائلاً: «أريدك أن تشتري لي لعبة جديدة». «أجل ولكن لا، لقد قلت لك إني أريدك أن تأتيني أوّلاً بعلامات جيّدة». ولكن لماذا لا يكون ردّكم: «كلا! أريدك أوّلاً...».

إن ترجمة عبارة «أجل ولكن لا» هي كالآتي: «أجل، أريد أن أشتري لك هذه اللعبة الجديدة بكل رِضى. ولكن كلا، فأنت لا تستحقّها». ضعوا أنفسكم لحظة مكان طفلكم! لقد أجبتم بأجل وكلا في الوقت عينه. إنها لطريقة عجيبة في التعبير! وسيقول طفلكم لصديقه: «لا تعرف أمي ماذا تريد. تقول دائماً «أجل ولكن كلا» عندما أطلب منها شيئاً. وأمّك؟» فيجيب صديقه، الذي قد ينفع طبيباً نفسانياً في المستقبل: «أمي تفعل الشيء نفسه! لا بد أن هذا يأتي من انقطاع الكهرباء في الرأس».

ماما، أم

«عانِق ماما!»

لقد انجبت لتوّي فتاة صغيرة رائعة. ولكن ليس هذا فقط ما حدث لي... فقد دخلت القابلة وسألتني: «كيف تشعر الماما الجديدة هذا الصباح؟»
ثم أظهرت أقصى درجات الإعجاب أمام وجه ابنتي النائمة على بطني، وأضافت قائلة: تبدو سعيدة جداً بالنوم على بطن الماما».
وهكذا فقد حزت على وضع جديد. وبمرور النهار، انهمرت علي كلمة «ماما» من هنا ومن هناك دونما انقطاع:
«ستأتي ماما معي لنحمّمك... ستلبسك ماما بيجامتك الجميلة، ستفعل ماما كذا، وستقوم ماما بكذا».
سيل لا يتوقّف! وقد أثّر فيّ ذلك حتى أني قلت لابنتي: «تعالَي إلى ذراعَيّ ماما»! هل كنت مختلفة قبل أن أدخل إلى دار التوليد؟ غمرني شعور غريب، كما لو «أنا» لم يكن لي وجود قط وها قد أصبح لي وجود فجأة بفضل كلمة «ماما»! هذه «الماما» التي تردّدت كالصدى، ظلّت ترنّ طويلاً في أذني بعد خروجي من دار التوليد، لدرجة أن «أنا» كانت تتحوّل تدريجياً إلى ظلّ «ماما».

عندما يظهر الوالدان

يصيب هذا الفيروس أيضاً الآباء، الذين يضيّعون «أنا» على طريق دار التوليد ويبدأون الكلام بهذه الطريقة المبتذلة عندما يظهر الطفل. ندخل في حلقة «الأهل» المتميّزة، فنركن رغماً عنّا الـ«أنا» (طبيعتنا وشخصيتنا) في زاوية منسية. ولكن هل يقتضي بذل النفس في دورنا كأهل أن نكبت بالضرورة هويتنا؟ هل تساءلتم عما ينتظره منكم طفلكم في الدور الذي أولتكم إياه الطبيعة؟ إن الخطاب الذي

تتوجّهون به لطفلكم يؤثّر في نموّه وتطوّره وفي العلاقات التي تنسجونها بينكم وبينه وفي الصورة التي يبنيها عن نفسه من خلالكم. فإمّا أن تقولوا له: «بابا مستاء» أو «تعال وعانق ماما» أو تختاروا أن تقولوا: «أنا مستاء» أو «تعال وعانقني».

كيف يشعر الطفل بالاختلاف في صياغة الجملة؟

إن إلغاء كلمة «أنا» من معجم مفرداتكم لإبراز كلمة «بابا» أو «ماما» بشكل دائم يجرّدكم من فرادتكم. إنكم تنزعون عن أنفسكم صفتكم الشخصية، وتتحوّلون من شخص إلى فرد يحدّده وضعه الاجتماعي. فيجد طفلكم نفسه أمام تسمية تمسك بالسلطة المطلقة وليس أمام رجل أو امرأة يحبّه من دون قيد أو شرط. يلتجئ الـ«أنا» وراء «بابا» أو «ماما» لإخفاء ضعف سلطته. يوكل «أنا» الأمر لـ«بابا» أو «ماما» ويعطيهما السلطة للحلول مكانه من أجل إعطاء الإذن أو المعاقبة، الأمر الذي يُدخل في ذهن الطفل أن «أنا» مختلف عن «بابا» أو «ماما». ويخلق هذا التبادل في الأدوار تشويشاً وإرباكاً في العواطف، لا سيّما في مرحلة المراهقة. لن يتمكّن الولد من اعتراض هذا الوضع، فيتمرّد على بدائل السلطة الأبوية، من مدرسة ومجتمع وسلطة القانون والدولة.

من الوضع الأبوي إلى الرسالة التربوية

إن تثبيت سلطتنا الأبوية باستخدام صيغة المتكلم بوجه ولدنا ليس أمراً سهلاً أو مريحاً. يحتاج الطفل إلى تمييز الرجل والمرأة الحقيقيين في صورة والديه، لكي يتمكّن من مواجهتهما ومعارضتهما و/أو التمثّل بهما. كلمّا بذلتم جهداً واهتماماً لـ«أنا» في علاقتكم مع ولدكم، سهّلتم التواصل معه وتجنّبتم خطر النزاعات بينكم وبينه.

تخيّلوا للحظة أن يأتي ولدكم إليكم ويقول لكم: «ابنك يحبّك»...

«كرمى لماما» «إرضاءً لماما»

تلتجئ الأم، بكل نيّة طيّبة، وراء وضعها كأم لتتلاعب بعواطف ولدها. فهذا النوع من الطلب هو جبري قهري. وإذا لم يخضع له الولد فستعاقبه شخصيته: «إن لم أطع طلب ماما، ستحرمني من حبّها».

العواقب المترتّبة على الشخص الراشد

في وقت لاحق من عمر الولد تأتي الجملة التالية بالنتائج نفسها: «افعل ذلك من أجل مستقبلك المهني! يتوقّف مستقبلك المهني على نجاح هذا يا صديقي العزيز!». تحلّ هنا الحياة المهنية مكان الأم، فتصبح ضرورية بقدر حب الأم. هذه هي إحدى الوسائل التي يفضّلها أرباب العمل. ينتهجون سياسة التلاعب بانفعالات موظفيهم من أجل إعادة تحفيزهم. «يجب التضحية في سبيل الوطن» هو أمر أو طلب آخر ينجم عن النموذج الكلامي نفسه.

«الشركة (الأم) بحاجة إليك. أنت عنصر أساسي في حسن سيرها. كرمى لي، ابذل أقصى جهدك!».

ويُضطر الشخص الذي وقع ضحية التلاعب إلى القبول بهذه الحجة وإلاّ تعرّض للرفض والنبذ والإبعاد. عندما ننظر إلى هذه الطريقة في التواصل من هذه الزاوية بالذات يظهر لنا بوضوح مدى انحرافها وفسادها.

ماذا إذن؟ بابا أو أنا؟

تقع المشكلة في طريقتكم في إثبات ذاتكم كشخص هو «أنا» وليس كفرد وضعُهُ «بابا» أو «ماما» كلّ مرّة تتوجهون فيها إلى طفلكم. هنالك فرق شاسع بين: «تعال واجلس قربي» و«تعال واجلس قرب بابا». سواء أعجبكم ذلك أم لا أو أرضاكم أم لا، فإن وضع الفرد كأب يبدو معيقاً ومقيِّداً في ذهن الطفل. وهذا شبيه تماماً بالهاوية العميقة التي تفصل بين الكلام العادي اليومي الطبيعي الذي يقرّبكم من أصدقائكم من جهة والكلام المتحفّظ الرصين الرسمي الذي يبعدكم عن رؤسائكم في العمل من جهة أخرى.

أتخيّل ابنتي تقول لي: «تعالي واجلسي بقرب ابنتك» فأفكّر في إرسالها إلى طبيب نفسي لتقييم حالة الفُصام (انفصام الشخصية) التي تعاني منها. وأنا لا أبالغ كثيراً هنا!

يقع جميع الأزواج ضحايا هذا الانفصام في الشخصية العائلية، حتى أن بعضهم يتوصّل إلى التخاطب في ما بينهم باستخدام الكلمة التي تشير إلى وضعهم العائلي، فتقول الزوجة لزوجها: «هل أخرجت الكلب، يا بابا؟» - أجل، يا ماما!» إنه سخف مطبق!

اكتفى، سئم، ضاق ذرعاً

«اكتفيت منك!» «ضقت ذرعاً بك!» أو «سئمت منك»!

في ما يلي مشهد أذيع في تقرير لبرنامج تلفزيوني حول العلاقات الصعبة بين الأهل والأولاد:

«سئمت من هؤلاء الأولاد!» صرخت الأم ملء رئتيها وقد أضناها التعب.

بعد ساعة من الوقت، أعطاها زوجها فترة من الراحة لكي تخرج من البيت وتسترخي وتريح أعصابها بعد النهار الجهنّمي الذي عاشته. فحيَّت أولادها الذين استبدّوا بها طوال النهار قائلة: «إلى اللقاء يا قلبي».

لازمة السأم هذه عبارة نموذجية يستخدمها الوالد (الوالدة) الذي أغاظته تصرّفات ولده المتعبة! ويكون الوالد هنا في وضع الخاسر الأكبر: خسر الملك والشاه مات! وهو يلجأ إلى هذا الحل النهائي ليخرج من ركود وضعه العائلي. هذه الجملة المهينة هي العبارة النموذجية التي يستخدمها الوالد (أو الوالدة) الذي لم تعد أعصابه تحمله فيصبّ جام غضبه على ولده. يقع الجزء المؤذي من هذه الجملة الصغيرة في الكلمة الرهيبة: «منك». في ذهن الطفل تعبّر هذه الجملة عن رفض ونبذ صريحين. يمكننا أن نعبّر عن نفاد صبرنا من الكثير من الأمور ولكن ليس من أولادنا. وذلك لأن ذكرى نوبة الغضب هذه (التي تكون أحياناً لمرّة واحدة فقط) تبقى منطبعة إلى الأبد في ذاكرته العاطفية. وتعادل هذه الذكرى صفعة غير متوقّعة، حتى وإن كانت مبرَّرة. ويصعب على كل حال تقبّل الجملة أكثر من الصفعة. عبارة «سئمتُ منك» تشير إلى طلاق الأهل من أولادهم، ولكن من المستحيل أن تتطلّقوا من أولادكم، إلاّ إذا

قرّرتم التخلّي عنهم للمؤسسات الاجتماعية! إن الوالد (أو الوالدة) الذي يتكلّم بهذه الطريقة هو في أغلب الأحيان شخص قد تجاوزته الأحداث ولم يعد يستطيع التعامل معها. يشعر أنه مجرَّد من أي قدرة أو سلاح أو موارد أمام مسؤوليات ترهبه. لم يعد يستطيع مواجهة الوضع فيرد بتراخٍ واستقالة كليّة من دوره، الأمر الذي يؤدّي مباشرة إلى الانهيار العصبي. فيلجأ الأشخاص الميّالون للانتحار إلى إنهاء حياتهم ويتحمّل الآخرون رغماً عنهم وضعاً لا حلّ له يدفع فيه الأطفال في أغلب الأحيان الثمن الأكبر.

لقد عرفت في ما مضى أماً كانت تردّد بانتظام هذه الجملة لابنها. وبعد أن كبر الفتى، اختفى في أحد الأيام من دون سابق إنذار، ولم تره بعد ذلك. عندما توفيت الأم، بعد بضع سنوات، لم يذرف ابنها دمعة واحدة على قبرها. لكنّ رد فعل هذا الابن هو ربما فريد. لقد قُتِل في ثمانينيات القرن العشرين على يد الشرطة في جنوب فرنسا أثناء قيامه بهجوم مسلّح. لقد عرفته جيّداً عندما كنّا صغيرين. كان يسكن حيّنا، وكان اسمه جان ـ بيار ك. لا توجّهوا أبداً هذه الجملة الجارحة لأولادكم، فهي في أساس عملية قتل للأب أو للأم، قد تكون افتراضية أو حقيقية وفقاً لمسار حياة كل شخص.

الأشكال الأقل ضرراً:

«اكتفيت، سئمت!»
«اكتفيت من الفوضى التي تحدثها»
«بدأ صبري ينفد»

تعبّر هذه الجمل عن نفاد صبر الوالد (أو الوالدة) الذي لم يعد

يعرف ماذا يفعل، لكنّها لا تتضمّن رفضاً كليّاً أو نبذاً كليّاً للولد. مع ذلك فإنها تعبّر بطريقة مماثلة عن عجز (الأهل) أمام عصيان أبنائهم وعدم انضباطهم وهي لا تقود الأولاد بأي شكل من الأشكال إلى طريق الطاعة.

اختيار الكلمات

مهما يكن من أمر، تجنّبوا التعبير عن عدم قدرتكم على فرض طلباتكم وشروطكم، فهذا يعزّز الشعور بالغلبة وبالتفوّق عند الولد. شدّدوا بالأحرى على شروطكم وعزّزوا سلطتكم بدلاً من إضعافها بعبارات مثل «اكتفيت».

«لديك مطلق الحرية في اللعب وإحداث الفوضى كما تريد، شرط أن ترتّب كل شيء عندما تنتهي. وأنا حرّ أيضاً في عدم القبول بالفوضى الدائمة وفي معاقبتك». وإذا لم يتقيّد بشروطكم، احرصوا على معاقبته بما يلزم.

شرير، سيّئ

«أنت ولد شرير (أو سيّئ)، لم أعد أحبّك!»

– «ماتيو، يا حبيبي، اهتم من فضلك بأخيك الصغير، سأذهب لإحضار الحاجيات التي بقيت في السيّارة!
– لا أرغب في ذلك! أريد أن ألعب بقطاري!
– خمس دقائق يا حبيبي، فقط لكي أُحضر الأكياس. بعد ذلك، أعدك بأن أدعك تلعب بقطارك.
– علي دائماً أن أهتمّ أنا بأخي! وهو مَن يحصل دائماً على كل القبلات!
– ماتيو، إنك تبالغ. أنت أيضاً تحصل على قبلات كثيرة.
– ليس بقدره!
– ما إن أنتهي من إحضار الحاجيات، اقترح عليك أن نتعانق بقوّة أنا وأنت وحدنا! هل يناسبك هذا؟
– حسناً!

ركع ماتيو أرضاً قرب أخيه الذي يبلغ سنة واحدة من العمر وبدأ بتركيب المكعّبات الملوّنة. انهمكت أمّه في ترتيب الحاجيات في المطبخ حتى علا صراخ حاد.

– ماذا يجري، يا ماتيو؟ أهكذا تنتبه لأخيك؟ هل أذيته؟
– كلّا! لم أؤذه!
– لماذا ذراعاه حمراوان؟
– أوّلاً، إنه لا يعرف حتى كيف يركّب المكعّبات!
– لكنّ أخاك ما زال صغيراً، هذا طبيعي.
– لا يعرف شيئاً، لا أستطيع أن ألعب بأي شيء معه! أنا أكرهه!
– ماتيو! لا يمكنك أن تقول هذا! إنه أخوك الصغير، وأنت تحبّه. تعال واعتذر منه.
– كلا! أنا أكرهه! أكرهه! أكرهه!
– ماتيو، أنت ولد شرير، أنا لم أعد أحبّك!

حق الحياة والموت

«أنت ولد شرير، لم أعد أحبّك» هو إعلان رهيب. تتلاعب هذه الأم بعواطف ابنها لكي تضمن الغلبة. في هذه المواجهة، تختبئ الأم، التي عيل صبرها، وراء السلطة المطلقة التي تمتلكها: حق الحياة والموت على ولدها، وذلك بطريقة خرقاء خالية من أي حذق أو مهارة. وهذا الحق بالحياة والموت هو بالتحديد ما توحيه الأم لابنها بحرمانه، كلامياً، تحرمه من الحب من أجل أن تعاقبه. من دون هذه العاطفة، من دون حب الأم أو بديل عنه، يُحكم على الطفل بالموت. في مياتم بلدان أوروبا الشرقية، حصل العديد من حالات السقم، حيث ساءت حالة بعض الأطفال الصحية شيئاً فشيئاً مما أدّى بهم في النهاية إلى الموت، علماً أن هؤلاء الأطفال كانوا ينالون تغذية وافية ومناسبة لكنّهم حُرموا كليّاً من العاطفة والحنان. إن النبذ الكلّي للطفل يعبّر رمزياً عن هذا الحق بالحياة والموت. عندما تتهم الأم ابنها بالسوء تنسب إليه قيمة أخلاقية داخلية. فهي بذلك تحكم على شخصية الطفل ككل وترفضها. تجهل هذه الأم ما حصل وتلصق رقعة على جبهة ابنها: «انتبه، صبي شرس!» إنها تُضعف بذلك رابط الثقة الذي يجمعها بابنها وتخلق في ذهنه شعوراً بعدم الكفاءة العاطفية الاجتماعية. فيبني الولد عن نفسه صورة تتلخّص كما يلي: «لست جديراً بأن تحبّني أمّي لأنني ولد شرير!»

دوّامة جهنّمية!

هذه الطريقة في رؤية الأمور هي في أساس فقدان الولد احترامه لذاته، في حال تكرّر هذا الوضع. سيفعل الولد كل ما في وسعه لاستعادة حب أمه، وهذا يشمل أفضل ما عنده وأسوأ ما عنده

أيضاً. الأم هي التي تشجّع، من غير أن تدري، تصرّفات ولدها العدوانية. وتعزّز هذه الدوّامة الجهنّمية الصورة السيّئة التي يشكّلها الولد عن نفسه. فعندما تنكر الأم العاطفة السلبية التي يكنّها الولد الأكبر لأخيه الصغير، فإنها تشوّه الحقيقة. في اللحظة التي يعبّر بها الفتى عن مشاعره، يعبّر عن الغضب والكره اللذين يشعر بهما تجاه هذا الأخ الصغير، وليس عن الحب بالتأكيد. وانطلاقاً من الجواب الذي تعطيه إياه: «هذا أخوك الصغير وأنت تحبّه»، تعلّم الأم ابنها أنه من الأفضل له أن يكذب بدلاً من التعبير عن مشاعره الحقيقية، إذا كانت سلبية. هكذا، يصبح الاحتمال كبيراً في أن يتحوّل الغضب المكبوت عند الأخ الأكبر إلى غضب بارد وحقود. وما إن تدير الأم ظهرها، سيستغلّ الأخ الأكبر الوضع لأذية أخيه مجدّداً، فهذا هو المتنفَّس الوحيد لمشاعره العدائية.

الانفعالات المحرَّمة

في معظم الأحيان، تشجّعنا التربية القائمة في التعاليم الدينية على التعبير عن مشاعرنا الإيجابية من حب، وحماسة، وفرح، . . . وكتم أفكارنا السيّئة كالغضب، والبغض، والخيبة، والحزن، والخوف. . . فأي أم أو أي أب يمنع ولده من أن يقول له: «بابا، أنا أحبّك؟». بالمقابل، إذا قال هذا الولد نفسه لأبيه وهو في حالة من الغضب، ولأي سبب من الأسباب: «أنا أكرهك!» فستُعتبر هذه الرسالة ضرباً من قلّة الاحترام. ولا بد أن والدَيّ الأب قد منعاه أيضاً من التعبير عن انفعالاته السلبية. إذا جُرِّد الطفل من أي حب بجملة مثل «أنت شرير وأنا لم أعد أحبّك» فهذا يعني أن الوالد (أو الوالدة) لا يملك ذرّة واحدة من التسامح.

الطفل فرد كامل مستقل بحد ذاته وله الحق ـ كالشخص

الراشد تماماً ـ في أن تكون له مشاعر سلبية وفي أن يعبّر عنها. ثم إن ذلك من واجبه، إذا أراد أن يحافظ على توازنه. يزداد احترام الولد لوالديه عندما لا يمنعانه من التعبير عن أفكاره السيّئة ولكن من دون أن يوافقاه عليها، وعلى أن يبقى هذا التعبير عما في داخله كلامياً فقط. هنالك حدود يجب أن تكون مرسومة بوضوح في ذهن الطفل، وهي عدم الانتقال إلى الفعل: «لديك الحق في الشعور بالكره والغضب تجاه أخيك، ولديك الحق في التعبير عن غضبك، فليس من المفيد أن تبقيه في داخلك، لكنني لا أقبل أن تؤذيه». هذا مثال على الكلام الذي يمكنكم توجيهه لابنكم.

يمرّ هذا التكييف التربوي الذي يمنع التعبير عن الأفكار السيّئة بلازمات كلامية مختلفة: «الصبي لا يبكي!»، «الفتاة الكبيرة» لا تبكي بدون سبب!»، «أنت كبيرة الآن، يمكنك أن تفهمي من دون أن تغضبي»، «يجب أن تتعلّم كيف تضبط نفسك، لقد أصبحت الآن فتى كبيراً»، الخ.

هذه الانفعالات السلبية هي مشاعر لا يمكن التعبير عنها لأنها محرَّمة. ولكن إذا ما استمرّينا على هذا المنوال، فقد يكبت الولد انفعالاته كلها، السيّئة منها والجيّدة أيضاً. إلاّ أنه من الضروري التعبير عن جميع مشاعرنا لكي ننعم بسيل متوازن من الطاقة النفسية. على الولد أن يطلق مشاعره السلبية لكي تطغى المشاعر الإيجابية. وإلاّ، فإنه قد يُحجم، عندما يصبح شخصاً راشداً، عن التعبير عن أي شيء بطريقة تلقائية. إن عدم القدرة على التعبير عن الانفعالات التي نحسّ بها هو أحد الاضطرابات العاطفية الخطيرة التي تتربّص بالطفل الذي يكبت دائماً غضبه.

اختيار الكلمات

امتنعوا عن اللعب بعواطف أولادكم! عندما يلجأ الأهل إلى ابتزاز أولادهم عاطفياً من خلال تهديدهم بالحرمان من الحب فهذا يفسد الصلة التي تربطهم بأولادهم. على العكس تماماً، من المهم أن تقولوا لولدكم إنكم تحبّونه لكنّكم لا تستطيعون القبول بتصرّفاته لهذا السبب أو ذاك. احرصوا على عدم نبذ ولدكم ولكن اجعلوه يشعر أنكم تفهمون تماماً ما يشعر به. دعوا ولدكم يعبّر بحريّة عن مشاعره، بما في ذلك السلبية منها، وحتى وإن كان ذلك لا يتماشى مع مبادئكم التربوية. لن يقلّل الطفل أبداً من احترام والد (أو والدة) أبدى تسامحاً وتفهّماً حياله. بل إن هذا الوالد يساعد ولده على التحكم بانفعالاته وإدارتها بالشكل المناسب. بالمقابل، فإن الأم المتمسّكة بسلطتها المطلقة والتي تنبذ طفلها كليّاً بجمل مثل «أنت ولد شرير وأنا لم أعد أحبّك»، هي أم قاتلة. قولوا لأنفسكم إنكم إذا كنتم تعتبرون ولدكم طفلاً شريراً أو سيّئاً، فأنتم لستم برّاء من هذه النزعة السيّئة التي تتهمونه بها.

كَذِب

«مدينة الملاهي مقفلة اليوم يا حبيبي» ادّعت الأم ذلك لأنها متعبة جداً ولا رغبة لها بالعودة إلى المدينة.

لا بدّ من التحدث مع الطفل وليس فقط إليه. والأهم من ذلك كله هو قول الحقيقة. فمنذ ساعاته الأولى، يستطيع الطفل أن يتعرّف على نبرة الحقيقة (أي تطابق القول مع الإحساس)، وهو بحاجة إلى ذلك في ما يتعلق بأصله وتاريخه العائلي.

النصيحة الملائمة هنا هي أن نقول للراشدين ألاّ يكذبوا على أولادهم. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وهم يكذبون على أنفسهم؟ كان بإمكان هذه الأم أن تعترف لولدها بأنها متعبة لكي تؤجّل زيارة مدينة الملاهي للغد. لكنّ الطفل لا يحسّ بتعب أمه، فهو ليس قادراً بعد على وضع نفسه مكان الآخرين. والأم تكذب لتتفادى نوبة بكاء. قد تقولون لي إن هذه الكذبة لا عاقبة لها، لكن هذا غير مؤكّد! ينقل الكذب شعوراً بالإحراج والانزعاج، وهي طاقة سلبية تطال الطفل بسهولة، لا سيّما وأنه لا يملك الحماية التي نجدها عند الشخص الراشد ضد الكذب السامّ الذي قد يتلقّاه. إنه يصدّق ما يقوله له والده، أو والدته، من دون أن يتساءل عمّا إذا كانت المعلومة صحيحة أو خاطئة. يفك لا وعيه رموز الكذبة لكنّ الوعي يتقبّل كل ما تقوله أم تحبّ ولدها، حتى وإن تحجّجت بتعب حقيقي لكي لا تضطر إلى تحمّل ثلاث دورات على دوّامة الخيل ودموع ولدها.

اختيار الكلمات

عندما تريدون تفادي إصابة ولدكم «بنوبة عصبية» في حال

رفضتم زيارة مدينة الملاهي، لا تُرفقوا رفضكم بعبارات مثل «يا قلبي»، أو «يا حبيبي» أو «يا روحي». فهذه العبارات المعتمدة رسمياً تُقال دائماً بنبرة نائحة، وأحياناً خائفة. إنكم لا تدركون أن نبرة هذه «الحلويّات الكلامية» هي التي تثير النوبة العصبية عند ولدكم. قولوا له الحقيقة دونما قناع أو تجميل، أو إذا كنتم تفضّلون استخدام حجّة، فلا ترفقوها بالنحيب الكلامي، فهذا كذب مزدوج. إن معظم الصعوبات التي تجدونها أحياناً في تدبر الأمور مع طفلكم تأتي من هذه العادة السيّئة التي تُضعف سلطتكم: استخدام تسميات ودودة حنونة في مثل هذا النوع من المواقف. سيأتي اليوم الذي سيمسككم فيه ولدكم بالجرم المشهود، جرم الكذب، ولن تتمكّنوا من تفادي الضرر الذي سيلحق به.

«ليس من الجيّد أن تكذب!»

قد لا يكون من الجيد أو من الحسن أن نكذب، إلاّ أن للكذب فائدة تجميلية، فهو ضروري في مجتمع كمجتمعنا إذ يسمح بتجميل الحقيقة. الدولة تكذب علينا والإعلانات تكذب علينا والأصحاب يكذبون علينا ونحن نكذب كل يوم على الأشخاص الذين نقابلهم وهلمّ جرّاً. إننا غارقون في جمالية الكذب التي ننتقدها عند أولادنا. يجب أن تكون الصيغة التربوية في هذه الحال على الوجه التالي: «يجب ألاّ نكذب إذا كان الكذب غير ضروري».

«بابا! لماذا قلت إن طفل تلك السيّدة ظريف؟ إنه أشبه بعجوز صغير مجعّد!» كيف نفسّر له إننا لا نقول دائماً الحقيقة للناس كيلا نجرح شعورهم؟

اختيار الكلمات

علّموه إذن الفرق بين الكذب والحقيقة المستورة. لا نقول لمَن لديه أذنان بعيدتان عن رأسه إنهما قبيحتان. لا نقول له شيئاً، فنضع ستراً أمام الحقيقة كيلا تخدش هذه الحقيقة أذنيه. لا شيء أسوأ من محاولة إيقاظ نائم والتأكيد له أن حلمه لم يكن سوى حلم. إذا رفض الاستيقاظ سيرفض أيضاً تصديقكم. إذا اكتشف ولدكم أنكم فهمتم الفرق بين الكذب وعدم قول الحقيقة، ستصبحون أبطالاً في عينيه وأول شركاء ورفاق له في الحياة. والشراكة، أو «التواطؤ»، بين الوالد (أو الوالدة) وولده هي العنصر الأول والوحيد الذي يكفل قيام حبّ بينهما لا يمكن لأي شيء أن يزلزله أو يضعفه. (انظر أيضاً حقيقة، ص285).

> **«المفارقة في عصر الكذب هذا هو أن مجتمعاتنا لم يسبق لها أن أعلنت قط بهذه القوة تعلّقها بالشفافية ولم يسبق لها أن تخبّطت إلى هذا الحد في وحول الرياء والتظاهر».**
>
> *Le Nouvel Observateur*، 7 تشرين أول، 2004.

سباب، شتيمة، كلام بذيء

تشكّل الكلمات البذيئة الشائعة جزءاً من مفردات الخاسر، سواء كان مراهقاً أم راشداً. كل إخفاق وكل فشل هو مبرّر لاستخدام مثل هذه التعابير. إذا كان ولدكم المراهق يسرف في استخدام هذه العبارات النابية كلما زلّت به القدم على قشرة موز، فلا تطلبوا منه أن يستبدل هذه الشتيمة بكلمة أخرى لن يكون لها نفس التأثير المهدّئ. إن الحاجة إلى التخلّص من شعور الغضب الناجم عن ارتكاب غلطة تتطلّب استخدام كلمة نابية ثقيلة. يجب أن يدرك المراهق التأثير الضارّ لهذه الشتيمة على سلوكيّات النجاح أو الفشل التي ينتهجها. كلّما تراكمت الكلمات النابية، ترسّخت آفة الفشل في سلوكيّاته. يشير تكرار العبارات النابية في خطاب المراهق إلى ميل مرحلي وعابر للتفوّه بالكلام القذر، وهو أمر يجب التنبّه له. هذه الفورة طبيعية، لأنها تثير التمرّد عند المراهق. إنه بحاجة لأن يصدمكم ولكن أيضاً ليصدم نفسه. ولكن إلى أين يجب السماح له بالوصول؟

اختيار الكلمات

لا تُستخدم هذه الكلمات النابية إلاّ في حالة الفشل! ذكّروه دائماً بأن العبارات البذيئة هي اللازمات المفضّلة لدى الخاسرين. إنها الحجة الفضلى! وإذا حدث لكم أن استعملتم هذه العبارات، سيسعده تذكيركم بكلامكم.

لطيف، ظريف، أمّور، طيّب

«كوني لطيفة، يا حبيبتي!»

لكي تكون الفتاة الصغيرة حبيبة أمّها، عليها أن تجعل من نفسها صورة عن المثال الأنثوي الذي تكوّنه أمها في لا وعيها. ستمكّن الأم بسهولة من تحقيق مشروعها المثالي كامرأة راشدة في شخص ابنتها: ستكون جميلة ولطيفة وخدومة. في ما بعد، عندما ستتصرّف الابنة بصورة سيّئة، ستعاقبها أمها على هذا «الانحراف» فتقول لها «لست لطيفة!»، أي أنك تبتعدين عن الصورة التي رسمتُها عنك.

وفي لغة الأم، أن تكوني لطيفة يعني أن تتلقّي مزيداً من الحب؛ وأن تكوني جميلة يعني أن تحرزي مزيداً من النجاح... وأن تثيري مزيداً من الغيرة. لكنّ هذا الجزء الأخير غير مسجّل في لائحة المعطيات الأساسية.

تؤسّس هذه الجملة للخضوع، وهي في أصل استعباد غادر يُخضع مشاعر الفتاة الصغيرة للصورة التي يراها الآخرون عنها وعن تصرّفاتها ويجبرها على الاستسلام والانقياد. الفتيات الصغيرات اللطيفات يصبحن دمى من الخزف تتدهور صحتهن الضعيفة بسرعة عند احتكاكهن بالحياة الواقعية.

عندما تصل الفتاة الصغيرة اللطيفة الظريفة إلى مرحلة المراهقة، تفعل كل شيء وأي شيء لتُعجب الآخرين بكونها شديدة اللطف، في حين أنها لا تمتلك مؤهلات تسمح لها باجتذاب الفتيان. وتقبل أيضاً بأن تستسلم لأول فتى تخرج معه كيلا يستاء منها. هل يصدمكم هذا؟ في العديد من الحالات، كانت الشابات

اللواتي وقعن ضحية الاغتصاب فتيات صغيرات لطيفات قمن بأي شيء للتماثل بصورة الفتاة اللطيفة المتفانية التي فرضتها أمهاتهنّ عليهنّ.

اختيار الكلمات

إن لم تكن ابنتكم مثالاً للجمال (وهذا ليس من مؤهلات النجاح، مهما يكن رأيكم) فلا تقولوا لها أبداً إنها ظريفة أو لطيفة أو حلوة. وإذا لم تطعكم دائماً، فلا تطلبوا منها أن تتصرّف كإحدى شخصيات كتب الأطفال المثالية. تجنّبوا استخدام هذه الصفات فتحمونها من الأنذال الذين ستصادفهم لا محالة في طريقها. «لا تكوني لطيفة أو ظريفة يا ابنتي، كوني على طبيعتك وفخورة بذلك كما أنا فخورة بك!»

شكل آخر من الجملة في دار التوليد:

«كم هو ظريف!»

طبعاً! نظراً إلى أنه ليس طفلاً جميلاً فالتظاهر مخرج أنيق ولائق. «كم هو ظريف! إنه نسخة طبق الأصل عن والده»، تقول تلك المرأة الثرثارة بابتسامة ماكرة. والحقيقة هي أن الطفل الرضيع لا يشبه أحداً؛ إنه بشع جداً ولكن يجب دغدغة كبرياء الوالدين أو غرورهما. من باب التهذيب، ليس إلاّ! لو كان الطفل جميلاً حقّاً، لما توانت عن إذاعة ذلك في ممرّات المستشفى. سواء كان طفلكم رائعاً أو بشعاً، فهو سيكون دائماً الأجمل لأنه بصحّة جيّدة ولأنه بحاجة إلى حبّكم لكي يبقى كذلك.

«كلاّ! سيّدتي، ليس ظريفاً، لكنّه ابني».

أنـــا

«أنا، ابني...»

إليكم بعض أجزاء من أحاديث تجري عند الخروج من المدرسة في آخر النهار، وحيث تذكر الأمّهات بفرح وابتهاج منجزات ملائكتهن الصغار:

- «لقد اندمجت كلارا أخيراً في الحياة المدرسية على رغم تحفّظاتها في بداية السنة. هي مَن تطالب الآن بالذهاب إلى المدرسة! إنها فخورة جداً لأنه أصبح لديها رفيقات جديدات. وبالنسبة إلى أنطوان، هل كل شيء على ما يرام؟

- على أفضل ما يكون. أنا، ابني تلقّى تهاني المعلّمة لأنه يدلّ على جميع أحرف الأبجدية؛ هذا لا يفاجئني لأنه بدأ يمشي في شهره العاشر!

- إنه يسبق سنّه!

تضخّم الكبرياء

نجد هذه اللازمة الكلامية بشكل نموذجي لدى الأشخاص الذين يولون أهمية كبيرة لأنفسهم بحيث أن كبرياءهم يدور باستمرار حول شخصهم. وهذه «الأنا» المتضخّمة هدفها إزالة الشعور بالفراغ العاطفي العميق. «أنا، ابني» تعبّر عن شخصية هشّة لا يمكنها أن تثبت ذاتها أو وجودها حقاً إلاّ من خلال ثمرة أحشائها. ولا بدّ أن هذه الأم هي من اللواتي يسرفن في استخدام «ماما» هنا و«ماما» هناك عندما يتوجّهن إلى أبنائهن، فأمومتهنّ تعطيهنّ بعض التماسك والقوّة. ولدها هو الوسام المعلّق على صدرها. وخارج هذا الإطار، لا وجود لها. وهذا ما يدفع بالأهل إلى تذويب شخصية أولادهم

بشخصيتهم فهم يفترضون أن الولد لا يمكنه أن يُوجد من تلقاء ذاته، بل يبقى مستغرقاً باستمرار في «أنا» الأم.

ترفض الأم قطع الحبل السرّي، وتستمر في تحميل ولدها مشاعرها وأحلامها.

العواقب

باستخدامها المفرط لـ«أنا، ابني»، تنقل الأم لابنها إحساسها بعدم الاكتمال. وسيختبر في وقت لاحق الصعوبات نفسها لإثبات ذاته. تعيق هذه الأم المزعجة المسيطرة استقلالية ولدها. والاحتمال كبير في أن يطفئ هذا الأخير شموع عيده الثلاثين عند بابا وماما، وقد نوّمته مغنطيسياً جُملُ «أنا، ابني...» التي ما انفكّت تردّدها أم تضخّمت «الأنا» عندها إلى حافة الانفجار.

كيف نتصرّف في مثل هذه الحالة؟

لا تعليق! الأمّهات الطاغيات اللواتي يسئن استخدام سلطتهن هن غير قابلات للمعالجة!

«لقد جاءتني مجدداً مصابة بحمّى مرتفعة مساء أمس»

تشكو إحدى الأمهات أمرها لصديقتها:

- وكيف حال ابنتك الصغيرة جولي؟

- لقد جاءتني مجدداً بحمّى مرتفعة مساء أمس! مع أنني قلت لها أكثر من مرّة أن ترتدي ثياباً دافئة، وإلاّ فستعود إليّ مجدّداً مصابة بزكام شديد.

«كما لو أن الطفل قد أصيب بالحمّى عمداً لتصعيب الأمور على والدته». وتقول كريستيان أوليفييه إن الطفل، في بعض حالات

الأمراض الجسدية النفسية، يبدو وكأنه يلعب بأعصاب والديه: «في الكثير من الأحيان يحدث الزكام أو الحمّى الخفيفة في وقت يستفيد فيه الوالدان من بعض الحرية، كما لو أن الطفل يريد بجميع الوسائل أن يبقيهما قربه...». لم تقطع والدة جولي على ما يبدو الحبل السرّي، ولا تزال ابنتها قطعة منها. تحمّل الأم ابنتها مشاعرها وأفكارها، وهي تعتبر أن ابنتها تمرض عن قصد لكي تسبّب لها الإحراج. ويحدث هذا، بالطبع، اليوم الذي رتّبت فيه سهرة مع صديقتها لحضور فيلم سينما. صدفة سيّئة! تفعل طفلتها كل ما في وسعها لمعاكسة مشاريعها. إنها تحرمها من حريّتها، من الهواء الذي تتنفّسه. هذا هو في الإجمال خطاب الأم التي لا تنجح في تمييز نفسها عن ابنتها.

في هذه الظروف، تصبح عملية تكوين شخصية الطفلة وتميّزها عن الآخرين أمراً مستحيلاً، فتظلّ شخصية الطفلة فرعاً تابعاً «لأنا» أمّها. تحمّل الأم مسؤولية المرض للطفلة، في حين أن تلك الحمّى المزعجة لم تكن سوى تمرّد الطفلة على حبسها داخل «أنا» أمّها. وهو تمرّد سيتحوّل في ما بعد إلى شعور بالذنب. وكلّما وجدت جولي نفسها في المستقبل في مواجهة مستترة أو معلنة مع أمّها، ستصاب بالمرض. إن الزكام أو المرض الذي يصاب به الأطفال ليس بريئاً في أي شكل من الأشكال. فالمرض رد فعل على اجتياح الأم المتسلطة لكل وجه من أوجه حياة طفلها، الذي لا يملك أي سلاح آخر لمواجهتها. ولو كان باستطاعة الطفل أن يكون له وجود من دون أن يُسجن في دور الصورة المطابقة لصورة والده أو والدته، لما احتاج إلى أن يمرض لإثبات ذاته. لا يهتم الوالد (أو الوالدة) إطلاقاً لحاجات ولده، لأنها على أيّ حال لا يمكن أن تكون مغايرة عن حاجاته هو.

من الأمثلة الأخرى الشائعة، الأم التي تستاء من أن ابنتها «لا

تنهي لها زجاجة الحليب». فهي تعتبر تصرّف ابنتها تصرّفاً ينمّ عن الرفض والنبذ موجّهاً لها وليس رفضاً لزجاجة الحليب. تشكّل زجاجة الحليب في ذهنها امتداداً لها، هبة من ذاتها ترفض الطفلة تناولها.

اختيار الكلمات

ليس من السهل على الأم أن تعترف بأنها أم أنانية في تصرّفها. ولكن يجب أن تعرفوا أن الأم الأنانية تحكم على ولدها بالكبت والحرمان. ليس طفلكم صورة عنكم فهل ستحملون أنفسكم على قراءة هذه السطور؟ إن بعض الأمّهات الأنانيات لسن لحسن الحظ متطرّفات ولسن مصابات بالتالي بعمى البصر لدرجة إغفال أي إمكانية لمراجعة سلوكهن. إذا اعتبرتِ أن هذه الملاحظة تنطبق عليك بشكل من الأشكال، لا تترددي في استشارة اختصاصي. تكفي أحياناً بضع جلسات من (إعادة) اكتشاف الذات لنقدّم بضع فرص إضافية لطفلنا.

السيّد، الأستاذ

تسمّي ابنها «سيّد» أو «أستاذ» وهي تتحدّث إلى أمّها عبر الهاتف: «الأستاذ لا يريد أن يفعل إلاّ على هواه».

إن من نتوجه إليه بكلمة «أستاذ» أو «سيّد» ليس شخصاً قريباً منا نقيم معه علاقات ودّية. إنه شخص غريب نحترمه أو نسخر منه بحسب النبرة التي نستخدمها. والأم التي تستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى ابنها تستغلّ أيضاً الأمر غير المباشر (انظر هو، صيغة الغائب المفرد، ص178)، الذي يعني ضمنياً أن ابنها ليس طفلها. إنها لا تحبّه لكنها تتحمّله لأن لا خيار لها أو لأنها لا تملك الوسائل لإبعاده عنها. المدارس الداخلية الخاصة باهظة التكاليف لكنّها مليئة بالأساتذة الصغار أو بالآنسات الذين لم يعد أهلهم يحبّونهم كثيراً. إنها عادةً مستودعات يُركن فيها الأولاد الذين تطلّق أهلهم منهم وليس فقط أبناء الأهل المتطلّقين أو المتوفين.

اختيار الكلمات

إذا انتبهتم إلى أنكم تسمّون أولادكم أستاذ/ سيّد أو آنسة، وأن هذا الأمر يتكرّر أكثر فأكثر، خاصة عندما تكونون غاضبين منهم، قد يكون من المفيد أن تسألوا أنفسكم عمّا إذا كنتم ما زلتم ترغبون في تربيتهم. لدينا الحق في التوقّف عن حب أولادنا كما يحق لنا أن نكره أنفسنا. حب الأم أو الأب ليس واجباً لكنّه هدية نقدّمها لأنفسنا قبل أن نقدّمها لأولادنا. إذا اعتبرتم، بكل ضمير حيّ، أن هذا الحب الأبوي غير موجود أو ضعيف، فلا تتردّدوا في تسجيل أولادكم في مدرسة داخلية لحمايته من مشاعركم (السيّئة). من الأفضل أن نتطلّق من أولادنا على أن نلومهم على وجودهم يوماً بعد يوم.

أليس كذلك؟

لكثرة ما ردّد أستاذ الرياضيات هذه العبارة، تحوّل كلامه إلى غمغمة غير مفهومة. في فترة الاستراحة، كان بعض التلاميذ يلهون بتقليده. الأولاد قساة مع البالغين الذين يمسكون بالسلطة. تنشأ الحاجة إلى التأكيد من عقدة نقص موجودة في شخصية المتكلّم. يسهل التلاعب بالوالد (أو الوالدة) الذي يسرف في استخدام هذه العبارة، شرط أن نجعله موضع إعجاب كاذب.

والحقيقة أن الأولاد يعرفون تماماً كيف يتلاعبون بالأهل الهشّين ذوي الشخصية الضعيفة. لكنّهم يشعرون أيضاً بالخجل لرؤية أهلهم يقعون فريسة الدجّالين المتلاعبين الذين يحيطون بهم.

كيف السبيل إلى التخلّص من هذه العادة؟

إذا كنتم تعانون من هذه العادة الكلامية، يمكنكم التخلّص منها بالطلب من شريككم أن ينبّهكم إليها كلّما تفوهتم بها. هذه المقاطعة المتكرّرة لكلامكم ستجعلكم أكثر فأكثر إدراكاً لهذه العادة فتطهّرون حديثكم منها. وهكذا، تصبحون أقل عرضة للتأثّر بجميع أولئك الخدّاعين منمّقي الكلام الذين يشتمّون وجودكم من على بُعد ولا تصبحون من ضحاياهم الذين يستجدون رضاهم وتأييدهم. غير أن النتيجة الأهم والأكثر وقعاً التي تنجم عن هذا العمل على أنفسكم هي إعجاب أولادكم، عندما يكتشفون أنكم نجحتم في التخلّص من هذه الآفة الكلامية المزعجة.

نحن،... نا

«أتينا لاستشارتك لكي نتخلّص من التبوّل الليلي الذي يعاني منه ابني، فهل يمكنك معالجة هذه المشكلة؟»

الجسم يتكلّم

الكلمة الحقيقية الصائبة تؤثّر في الجسم. يعرف الأولاد أفضل من الراشدين ماذا يعني أن نتكلم صدقاً. يشمل الـ«نحن» المفخّم الأسرة بأكملها كما لو أن الطفل ليس سوى فرع ثانوي منها أو عضو في كلّ، أو امتداد للأم. يرتبط التبوّل أو التبرّز اللاإرادي في الفراش عند الطفل بتصرّفات الأم. فهي تمتص شخصية ابنها الفردية وتحطّمها لمنعه من أخذ حريته، وهي لم تقطع بعد الحبل السرّي. إنه أحد أشكال التملّك الفريدة. الـ«نحن» الذي تستخدمه الأم المتسلّطة يقضي على شخصية الطفل قبل أن تتكوّن. إن الطفل الذي تحيله أم من هذا النوع إلى عدم، لن يكون لديه خيار آخر سوى أن يصبح راشداً باهتاً، تابعاً، لا شخصية له.

كيف نخرج من هذا المأزق؟

في الحقيقة، إن الضحية الأولى للتبوّل في الفراش ليس الابن ولكن الوالد (أو الوالدة) الذي تُجرح كبرياؤه. ولا تكمن المشكلة في ضرورة تغيير الأغطية الوسخة وتهوئة الغرفة باستمرار للتخلّص من الروائح الكريهة. كلا! بل إن المشكلة الحقيقية تكمن على مستوى «كبرياء» الوالد (الوالدة) الذي يشعر بالإحراج والاستياء للتبوّل اللاإرادي الذي يحدث للطفل. إلاّ أن هذا النوع من

الاضطراب الوظيفي ينجم بالتحديد عن الشعور بالحبس والاختناق الذي لم يعد الطفل قادراً على احتماله. إنه محبوس في الـ«نحن» الذي يستخدمه والده، أو والدته، في حين أنه هو أول المنزعجين من هذا التبوّل الليلي.

اختيار الكلمات

«جئت أراك لمساعدة ابني على الشفاء (وليس التخلّص) من هذه الآفة التي تزعجه جداً» قد تكون هذه الطريقة أكثر فعالية لمساعدة لا وعي الطفل على إيقاف التبوّل في الفراش. أضف أن التأكيد على أن هذا الاضطراب يزعج الطفل (هو وليس أنتم)، سيسمح له بالتوقّف عن الشعور بالذنب أو بالخجل والخزي مما يمكنكم أن تصفوه أمامه بالمرض (أو الآفة). والمرض لا يتم التخلّص منه بل معالجته. الأهل الذين يتخلّصون من اضطرابات صغارهم هم أهل ميّالون إلى الهجر. يهدّدون ضمنيّاً أولادهم بهجرهم وتركهم إذا لم يصبحوا نظيفين كالثلج.

«يجب أن تخرجيها لنا من البيت»، يتحدّث الأب عن ابنته متوجّهاً إلى صديقتها الحميمة

المعنى المستتر لهذه الجملة الرهيبة الموجَّهة لشخص آخر في حضور الشخص المعني هو: «يجب أن تخلّصينا منها». يكشف هذا الـ«نا» عن خجل غير معلن يشعر به الوالدان حيال ابنتهما. فيطلبان مساعدة صديقتها لإطلاقها اجتماعياً، إطلاق هذه الابنة التي لا تشبههما في شيء.

اختيار الكلمات

إن إذلال أولادنا بهذه الطريقة والانتقاص من كرامتهم حماقة يجب تفاديها بأي ثمن. وتصحّ النصيحة أيضاً في ما يتعلّق باستخدام «نحن»، أو «نا»، الذي يبتلع «أنا» ولدنا! ينسى الأهل دائماً أنهم سيصبحون مسنّين في يوم من الأيام وأن أولادهم سيتمكنون عندئذٍ من ركنهم في إحدى الدور بانتظار أن توافيهم المنيّة، بدلاً من أن يحتضنوهم في بيوتهم. فالطفل الذي كبر بسرعة أكثر من اللازم سيترك هذا الـ«نحن» في الماضي ويستبدله بـ«أنا» أناني جداً.

«سنأتي لأخذك من المدرسة بعد قليل»

نحن: ضمير متلوّن متقلّب

يكون هذا الضمير أحياناً مبهماً، مجهولاً، غير محدّد كما في «سنقوم بذلك...». مَن نحن؟ «نحن» هو لا أحد وهو الجميع، إنه الفاعل المفضَّل لدى الأهل الذين أضاعوا ذاتهم، الأهل غير المسؤولين المتردّدين الذين يتكلّمون بمعاني ضمنية. «نحن» ضمير غير محدَّد يسمح للوالد، أو للوالدة، الذي يستخدمه برمي المسؤولية على ظهر غيره أو على ظهر طفله، إذا لزم الأمر. يقول الأب الغاضب لاهثاً، بعدما ركض وراء ابنه في جميع أرجاء السوبرماركت: «قلنا لك أن تنتظرنا هنا». مَن قال ماذا؟ ليس الأب بالطبع! ضاع معنى «نحن» بين أذنَيّ الطفل. لم يقل له أحد أن ينتظر هنا!

«نحن» غلاف لا جسد له، يستخدمه أشخاص لا يمكنكم أبداً الاعتماد عليهم. «نحن» ضمير متلوّن. إنها بدلة تمويه يرتديها

الوالد، أو الوالدة، الذي يرفض ضمنيّاً أن يضع كل طاقته في تربية أولاده. إنه الأب، أو الأم، الذي يعرف الطفل غريزياً أنه لن يستطيع أبداً الاعتماد عليه.

اختيار الكلمات

تذكّروا أن «نحن» ليس شخصاً محدّداً وليس بالتأكيد «أنا». إلاّ أن طفلكم يحتاج إلى التمثّل بهذا «الأنا» لكي يشعر بالأمان. الأهل الذين يسرفون في استخدام «نحن» هم أهل يتصرّفون بصيغة المجهول.

«لا يمكننا القول إنك موهوب جداً في اختيار الرفاق!»

ولماذا لا تقولون بدلاً من ذلك: «لا يمكنني القول...»؟ بغضّ النظر عن إن «نحن» لا تمثّل أحداً وتمثّل الجميع، فإن استخدامها في إطار هذه الملاحظة يعني التلاعب بخيارات الطفل الاجتماعية التي لا تُعجب الأهل. يرفض الوالد، أو الوالدة، هنا تحمّل مسؤولية انتقاده. وبالتالي فإنه يتخلّى عن سلطته.

اختيار الكلمات

قد يكون من الصعب الامتناع عن هذه العادة لكنّه أمر مفيد جداً لكم ولطفلكم. سيختار طفلكم رفاقاً صالحين وطيّبين عندما تتخلّون عن هذا الضمير المبهم وتتحمّلون أخيراً مسؤولية كلامكم.

> **«يتخاصم الناس في الغالب بسبب كلمات. وبسبب كلمات يقتلون ويُقتلون بطيبة خاطر»**
>
> اناتول فرانس، *Le Mannequin d'osier*

لا فائدة منك

«ابن عمّك ينجح في كل شيء وأنت لا فائدة منك»

لقد خبرت هذا النوع من المقارنات داخل عائلتي. كنت تلميذاً كسولاً بامتياز، لكنّ ابنة أختي كانت عبقرية، مثالاً للذكاء والاجتهاد. ولكثرة ما ردّدوا ذلك على مسامعي، لم يعد لي بعد مرور خمسين سنة، اي صلة تربطني بهذه المرأة التي لا يهمّني امرها بأي شكل من الأشكال.

محكوم بالفشل

يفهم الطفل أن هذا القريب يمثّل الابن المثالي في نظر أمه. وكلّما أراد إثبات قيمته، لم يلقَ من والده، أو والدته، أي مكافأة أو تشجيع، نظراً إلى عدم قدرته على تحقيق ما يحقّقه نسيبه. ولكثرة ما يردّدون على مسامعه أن لا فائدة منه، يعتريه إحساس لا يُمحى بالنقص. فيترك المدرسة لارتداء البذة التي خاطتها له أمّه على قياسه. ويقضي حياته وهو يحاول أن يثبت للجميع أنه ليس بلا فائدة، لكنّه يفشل في كل واحدة من محاولاته لكي لا يخون الأمر الذي فرضته أمه. «لا يمكنك أن تنجح لأن ابن عمّك (ابني المثالي) ينجح في كل ما يفعله». وينتهي به الأمر إلى كره ابن عمّه هذا الذي سرق حياته بإبطال جميع فرصه للنجاح. ابن العم هذا الذي سرق حب أمّه. إن هذا الشعور بأن حب أمه قد سُلب منه سيلوّث قدرته على حب امرأة أخرى غير أمه عندما يصبح راشداً وعلى أن يُحَبّ بدوره. سيكون دوماً الزوج الذي يُقارَن بغيره، الفاشل الذي لا يمكنه أن يسعدها. تخلق المقارنة المستمرّة تلقائياً شعوراً بعدم الكفاية يغذّي هذا الفشل المبرمَج. الآخرون هم دائماً «أقل فشلاً» منه.

اختيار الكلمات

غالباً ما ينتهي الأمر بالراشدين المصابين «بالفشل» إلى الغرق في الكحول أو المخدّرات للهروب من النبذ الذي يمارسه عليهم أهلهم. لا تقولوا أبداً لولدكم أن لا فائدة منه أو أنه فاشل وتجنّبوا خصوصاً أن تقارنوه بابن عمّه أو صديق طفولته أو ابن الجيران الذي نجح نجاحاً باهراً في دراسته. ليس النجاح ـ الدراسي أو المهني ـ سوى الدواء المزعوم لكل مشاكل الحياة الموفّقة. يمكن رؤية النجاح الحقيقي بالعين المجرّدة، فهو ينشأ من بناء عاطفي نفسي متوازن. يمكن للمرء أن يكون سعيداً من دون أن يكون ثرياً، ويمكنه أن يكون جميلاً وأن يعيقه هذا الجمال اللعين. من السهل جداً تقييم مستوى النجاح المحتمل لطفل معيّن، إذ تكفي مراقبة مرونة حدقة عينيه في الاتساع. فإذا كانت الحدقتان تتوسّعان وتضيقان بسهولة في الضوء الثابت وبالتفاعل مع ما يحدث من حوله، فإن ولدكم سينجح في حياته. أمّا إذا بقيتا جامدتين أو متقلّصتين (حدقتان ضيقتان جداً) في أغلب الأحيان، فقد آن الأوان لكي تسائلوا أنفسكم حول طريقة تربيتكم له وقيمة الحب الذي تقدّمونه له. إن رد فعل الحدقتين (البؤبؤين) ميزان حقيقي لدرجة السيطرة التي يمارسها ولدكم على رغباته وقدرته على الاستمتاع، وبالتالي على إكمال ذاته. أنتم كأهل تمسكون بمفتاح فرص نجاح ولدكم في الحياة، فلا تنسوا ذلك أبداً!

«قلت له: لن يكون هنالك أي رجل في البيت. الرجال لا فائدة منهم ولن يجلبوا علينا سوى المشاكل يا حبيبتي»

تنسى هذه الأم أن ابنها سيصبح رجلاً أيضاً ذات يوم. فكيف

له أن يرغب في أن يصبح رجلاً في مثل هذه الظروف؟ يمرّ اهتمام الولد بأبيه حتمياً بالمشاعر التي تكنّها أمّه لزوجها. إن المرأة التي تتخلّص من الرجال كمن يفرغ المنزل من الأقذار لا تستطيع أن تقدّم لابنها صورة قيّمة عن جنسه. وإذا كانت الرسالة موجّهة لفتاة، فقد يسبّب ذلك ضرراً أكبر أيضاً. ستعتبر الفتاة في هذه الحالة الرجال مجرد أدوات لتوفير المتعة لها، لكنّها لن تتمكّن أبداً من بذل كل ما عندها في قصة حب أو بناء علاقة متينة مع الطرف الآخر. ستضطر إلى الخضوع للرسالة المنطبعة في لا وعيها وسيسمح لها عدم المبالاة العاطفي الذي ستظهره بتجنّب «عذاب الحب» الذي عاشته أمها. لن يبحث الطفل أبداً عن الأب المنبوذ لأنه غائب.

سيجد الابن بعد أن يصبح راشداً صعوبات في التشبه جنسيّاً بصورة غائبة و/أو فاقدة القيمة. في بحثه عن هذه الصورة الأبوية، سيتزوّج بامرأة تحمل صفات ذكورية أو يصبح شاذاً جنسيّاً للتعويض عن النقص.

اختيار الكلمات

فاشل! أصبح هذا النعت على الموضة. أن يكون المرء فاشلاً أو بلا فائدة هو أن يكون غير موجود في نظر الآخرين، ألاّ يثير أي اهتمام، بل يثير اللامبالاة التي يخشاها الجميع. «فاشل، كلمة فاشلة!» اطبعوا هذا المبدأ في ذاكرتكم بتكراره عدة مرّات متتالية! لا تستخدموا أبداً كلمات «فشل» و«بلا فائدة» و«عدم شرعي» بشكل دائم في حديثكم عن ولدكم أو إليه، فقد تقضون على رأس المال العاطفي الذي يربطه بكم. ورأس المال هذا ضروري لنموّه وانفتاحه.

كامل، ممتاز، مثالي

«هذا الطفل، حياتي كلها. وقد أردت كثيراً أن يصبح كاملاً (مثالياً) عندما يكبر»

الوجه الآخر للعملة

نحن هنا في قلب إيديولوجيا الطفل الكامل. فليلمع ويتألّق لكي أتألّق معه! فليجعل مني أمّاً صالحة، أو أباً بطلاً! هل يخشى الأهل ألاّ يكونوا كاملين كيلا يتحمّلوا بعد الآن أن ينتقد الآخرون طريقتهم في تربية أولادهم؟ ليس لهذا الطفل أي حياة خاصة، إنه حياة أمّه أو أبيه ولا يستطيع أن يتنفّس إلاّ من خلالهما. عليه أن يكون الوجه الآخر للعملة، الوجه الآخر لعدم كمال أو نقص الوالد، أو الوالدة، أي الكمال بعينه. ليس للطفل الذي هو كل حياتكم أي وجود بحدّ ذاته. إنه شيء، عبد، طفل مستنسَخ، عامل يرفع من نوعية حياتكم. إنه مرآة طفولتكم، صورة مصغّرة عنكم، لكنّكم «تمتلكونه» بفعل صلات الدم التي تربطكم به. ولكي يتمكّن من أن يكبر بكل حرّية، فمن الضروري بالطبع قطع هذا الحبل السرّي. وأسوأ الأمور هو السعي لجعله يشبهكم. فلن يكون طفلكم نسخة طبق الأصل عن الأحلام التي لم تتمكّنوا من تحقيقها.

من الأنانية إلى عدم الرضا

إن هذه الطريقة في إظهار حبّكم له ليست سوى مظهر من مظاهر عبادة الذات لا أكثر ولا أقل؛ حبّ مفرط للذات عبر الطفل. ولا يمكن أن تؤدّي عبادة الذات، بعد حين، إلاّ إلى رفض متطلّبات

الوالد (أو الوالدة) وحتى إلى رفض الوالد نفسه. أنانية الأهل اضطراب نفسي ويمكنها أن تؤدّي عند الطفل إلى فقدان احترام الذات، ورفض التباري مع الآخرين والمقارنة معهم، وعدم رضاه الدائم، مما يؤدّي بدوره إلى رفض الدخول في منافسة مع الآخرين. فهذه الطريقة في التصرّف تُجنّبه مواجهة نقائصه.

اختيار الكلمات

يمكننا بذل حياتنا في سبيل أولادنا، لكننا عندما نجعل منهم هدف وجودنا نسلب منهم حياتهم. إن طلب الكمال هو هدف سامّ نفسيّاً، إذ يؤثّر سلباً في احترام الطفل لذاته، وهو شعور ضروري لبناء دفاعاته النفسية والمناعية. طفلكم شخص قائم بحد ذاته، مثلكم تماماً، وليس أحد فروع طموحاتكم. لن يكون أبداً كاملاً لأن الكمال هدف نسعى إليه لكننا يجب ألاّ نبلغه أبداً وإلاّ نسقط مجدّداً في العدم بعد أن نكون قد ذقنا كل شيء. فبعد الكمال، لا يبقى إلاّ الفراغ.

قتل الوالدين

– لم يعد ابني يكلّمني منذ أكثر من ثلاث سنوات.
– شيء محزن! عندما نفكّر في كل التضحيات التي نبذلها من أجل تربيتهم!
– إطلاقاً! هذا ليس شيئاً محزناً، بل على العكس تماماً. أنا فخور جداً به، فقد وجد أخيراً الشجاعة اللازمة «ليقتلني!»

يجب أحياناً قطع العلاقات كليّاً للتخلّص من عدم الاكتمال العاطفي أو الاجتماعي أو المهني. يجب «قتل» الأب أو الأم «رمزياً» لكي يتمكّن الولد من البقاء على قيد الحياة. هذا هو المعنى العميق لهذا الانقطاع الكامل، لهذا الصمت بين الأهل والأولاد. إذ يكون هؤلاء في أغلب الأحيان تحت تأثير صورة فرضها عليهم قسراً أحد والديهم. ويمكن لهذه الصورة المفروضة أن تنشأ من شبه شديد في الشكل الخارجي أو من شخصية الوالد (أو الوالدة) البالغة القوة أو من شهرة كبيرة جداً أو منزلة مهنية رفيعة يتحمّل الابن أو الابنة تبعاتها بصعوبة. مهما يكن من أمر، فمن الضروري أن «يقتل» الولد أباه أو أمه «رمزياً» لكي يُنزل عن كتفه ثقل مستقبل ليس مستقبله. إلاّ أن قلّة من الأهل يفهمون، لسوء الحظ، معنى هذه الجريمة العائلية. فيتكدّرون ويغتاظون أو يلاحقون ولدهم فارضين عليه عاطفة لا تُطاق.

كيف تتصرّفون؟

إذا رفض ابنكم التكلّم معكم، اقبلوا هذا الموقف كنوع من التحدّي. إن انقطاع العلاقات بينكم صعب عليه بمقدار ما هو صعب عليكم، لكنّكم السندان الذي يتحمّل ضربات المطرقة. تؤدّي

حالات كهذه إلى حياة رتيبة واختيار المهنة من دون رغبة، وحياة زوجية من دون متعة أو لذة. إن تدخّل الأهل المتكرّر والانتقادي يمنع الراشد الشاب من ابتكار حياته: «عليك أن تعمل بنصيحتي وتصغي إلى كلام الخبرة». يجب أن يكون الولد هو كاتب السيناريو وليس ممثّلاً في مسرحية ألّفها والداه. يأتي الصمت المطبق في الكثير من الحالات كشفرة المقصلة، مفاجئاً وغير متوقّع. يضع الشاب أوْ الشابة شرطاً هستيريّاً يضرب الوالدين معاً كموجة عارمة مفاجئة فتتمّ القطيعة. لكنه سيعود إليكم في يوم غير بعيد، إذا تركتم له حرية الوجود والحياة. «عندما نفكّر في كل التضحيات التي اضطررنا إلى بذلها... ويرمينا بعد ذلك كخرقة بالية»، كلمات يردّدها الأهل الذين هجرهم أولادهم. عندما يرفض فرخ الطير مغادرة العش، تجبره أمه على الطيران فتطرده بضربات من منقارها. ولكن عندما يطالب مراهق بتحمّل مسؤولية حياته، تتشبّث به أمّه بكل ما أوتيت من قوّة كيلا يطير بعيداً. في الخارج، هنالك العالم، في الخارج هنالك الحياة بكل مخاطرها، بكل رغباتها وكل لذّاتها أيضاً.

غير ممكن، غير معقول

«هذا غير معقول» تزعق تلك الأم وقد أثارت أعصابها اثنتا عشرة ساعة متواصلة من الضغط، كان من المفترض أن تنتهي بعشاء عائلي

لكنّ ما حدث هو أن ابنتها التي تبلغ من العمر أربعة أعوام قد أوقعت طبق الحساء على أرض المطبخ وهي تحاول مساعدة أمّها في ترتيب المائدة. كانت ترغب في أن تهنّئها أمّها على مبادرتها. لكنّ الأمر لم ينجح! فالحساء قد لطّخ أرض المطبخ والطبق الخزفي الذي تلقّته أمها كهدية زواج من أبناء عمها لن يُستعمل بعد اليوم، لأنه انكسر نصفين. أمّا الفتاة الصغيرة فقد استسلمت للبكاء.

ما هو مستحيل بالكلام ليس مستحيلاً في الواقع. وكلّما ردّدت الأم هذه اللازمة الكلامية، غزا المستحيل حياتها اليومية أكثر فأكثر. فلا نستطيع أن نجعل حدوث شيء هو في الواقع ممكن من دون خلق تشويش في ذهن الطفل. هذا غير منطقي! وبالنسبة للطفل، المنطق مقدّس. إنه يتمسّك بالمنطق كيلا تزل به القدم في مواجهة عالم الكبار العجيب الغريب حيث تعني كلمة «نعم» «كلاّ»، وحيث يجد الكبار أن كل شيء بديهي في حين أن الظلام الدامس يسود أحياناً في قلبهم؛ عالم يهدّد فيه الأهل أولادهم بالقصاص لكنّهم لا يقاصصون أبداً، الخ. إنه باختصار عالم مستحيل حيث كل شيء ممكن. عودوا بين الحين والآخر إلى الطفل الذي كنتم قبل أن تصدروا الأحكام على أطفالكم!

«غير معقول!»

«طوماس! انتهيت لتوّي من ترتيب غرفتك! هذا غير معقول، هل

رأيت الفوضى؟» صرخت الأم وقد أغاظتها الفوضى العارمة التي نشرها ابنها الصغير (4 أعوام) في وقت قياسي. أعادت الألعاب المقلوبة إلى مكانها والتقطت الملابس المبعثرة على السجّادة للمرّة الثانية هذا الصباح. انشغل الطفل باللعب غير مكترث بما كانت أمه تفعله. بعد مرور ربع ساعة من الوقت، انتبهت الأم إلى أنها لم تعد تسمع ابنها المستغرق في مشاغله. تحيّرت الأم لما قد يلهي ابنها إلى هذا الحد وذهبت للتحقّق مما يفعله.

«طوماس؟ أين أنت يا حبيبي؟ ماذا تفعل؟ هذا غير معقول، لا تفوتك أي فرصة لارتكاب الحماقات!»

صاحت الأم وقد تملّكها الغضب أمام قنينة سائل الجلي التي انسكبت كلّها على قميص طوماس وعلى أرض المطبخ.

- «أريد أن أصنع الفقاقيع! لم يعد لدي صابون! قال طوماس شاكياً وهو يمدّ قارورته الصغيرة الفارغة إلى أمّه.

- «اخلع قميصك يا طوماس!» ردّت الأم غاضبة وأمسكت بممسحة لتنظيف البلاط.

سياسة النعامة

إن الإفراط في استخدام «غير معقول!» هو أحد الأعراض التي نجدها عند الأشخاص الذين يمارسون سياسة النعامة (أي يدفنون رأسهم في الرمل...). بعبارة أخرى، تشير هذه الصيغة إلى شخص يرفض النظر إلى الواقع مباشرة. «غير معقول» تظهر رفض جميع الأمور البديهية الواضحة التي تواجهها والدة طوماس. وعندما تردّد هذه الأم على مسامع طفلها أن ذلك «غير معقول!»، فإنها تنكر أفعالاً تزعجها وتُفرض عليها رغماً عنها. إنها تسعى بشكل لا واعٍ إلى إقناع نفسها بعدم وجود الواقع.

عادة كلامية

ما إن تصبح الصيغة «غير معقول» عادة كلامية حتى تنشئ موقفاً متشائماً تخويفيّاً مقروناً بانهزامية نتبيّنها بسهولة في نبرة الصوت. إنها نبرة التعب والضجر التي تميّز الشخص الذي لا يتحكّم بالوضع والذي يشعر أن الأحداث قد تجاوزته كليّاً. تعزّز هذه الانهزامية ميل الشخص إلى الخضوع للمحتّم. في المثل الذي أوردناه، تخضع الأم لنزوات طفلها المزعجة. وهذا لا يعني مطلقاً أنها لا تحب طفلها. بل يعني أنها لا تنجح في التصرّف بشكل مناسب قد يسمح لها بقبول الواقع: إن الفتى الصغير الذي يستكشف محيطه يرتكب الحماقات، وهذا طبيعي جداً.

ما نوع الانفعال الذي تنقله لطفلها؟

إنها تنكر قدرة طفلها على الفعل برفض عواقب الفعل الذي ارتكبه: «لماذا تقول ماما إن هذا غير معقول؟ بالطبع هذا معقول فأنا أوقعت سائل الجلي فعلاً، ووسّخت كل أرض المطبخ فعلاً، ولوّثت قميصي فعلاً!...».

يوحي تكرار هذه العادة الكلامية للطفل بأن يتصرّف عكس ما ترغب فيه أمّه تماماً. إن هذه الأم تحرّض ابنها ببساطة على ارتكاب حماقة تلو الأخرى لكي يثبت لها أنه هو مَن يفعل وأن ما يفعله فعلي وحقيقي. يجد الطفل نفسه مضطراً، إذا صح القول، لارتكاب الحماقات لكي يكون له وجود بنظر أمّه، التي تنكر بعناد ما هو بديهي. إنها تتصرّف بطريقة متناقضة. من جهة تؤكّد أن ما فعله ليس معقولاً ومن جهة أخرى توبّخ طفلها بسبب ما فعله. إنها تنقل إليه عدم قدرتها على مواجهة الواقع. وتصبح الصورة التي يكوّنها الطفل

عن ذاته من خلال أمه صورة هشة سريعة العطب. فبما أن كل ما يفعله ليس معقولاً أو واقعاً، يصبح كل شيء افتراضياً في عينيه، مثل ألعاب الفيديو. يمكنه أن يلعب بالتظاهر بقتل رفيقه أو يقتله فعلاً، لا فرق بما أن لا شيء حقيقي وواقعي في ما يتعلّق بالحماقات.

والعبارات التي تلي عادة الصيغة «غير معقول» تحطّ من قدر الطفل في أغلب الأحيان، إن لم نقل في جميعها: «لا تفوّت أي فرصة لارتكاب الحماقات»، «لا ترتكب سوى الحماقات»، «لا نفع منك»، «حماقاتك تزداد يوماً بعد يوم»، «تفعل ذلك عن قصد»، الخ. ويعيق هذا الإنقاص من قدر الطفل مستقبله كشخص راشد. يصبح لدى هذا الطفل رؤية افتراضية لمسؤولية أفعاله. لقد قتل أخته الصغيرة «للعب» ببندقية والده المعبّأة وعندما يشخّص الخبراء في الطب النفسي الحالة سيقولون إنها نتيجة دافع لا يمكن مقاومته.

اختيار الكلمات

انظروا إلى الواقع من دون مواربة. بعبارة أخرى، انتبهوا للعادة الكلامية «غير معقول» كلّما ردّدتموها، لكي تتخلّصوا منها نهائياً. وسيساعدكم ذلك، مثل الأم في المثل أعلاه، على وضع الوقائع التي ترفضون رؤيتها في إطارها النسبي. وستتوقّفون عن اعتبار الأحداث التي يسبّبها طفلكم كأمر محتوم. يجب أن تواجهوا الواقع لا أن تنكروه. تعلّموا أن تعتبروا طفلكم شخصاً مستقلاً ومسؤولاً حتى، وخصوصاً، عندما يكون صغيراً. من المهم أن تفسّروا له السبب الذي يجعل تصرّفه غير مقبول وغير مستحسن، ولماذا يجب عليه ألاّ يكرّره ثانية. حثّوه على تصليح حماقاته بنفسه. يجب أن يتعلّم الطفل عدم الاتكال دائماً على ماما أو على بابا

لمعالجة أخطائه. هذه الطريقة بنّاءة أكثر من القصاص البحت. فالقصاص لمجرّد القصاص قد يبقى دون تأثير، لأن الطفل يعتبره غير عادل وغير منطقي: «إذا كان ذلك غير معقول، فلماذا توبّخني الماما؟». لن يردعه القصاص بالتأكيد عن إعادة الكرّة. من ناحية أخرى، سيتقبّل أكثر فكرة تحمّل مسؤولية عواقب أفعاله. ويقوم دوركم كأهل على مساعدة طفلكم على تحمّل المسؤولية. يجب ألاّ تعاقبوا أنفسكم على الحماقات التي يرتكبها. وأعني بذلك مثلاً أن ترتّبوا غرفته مرّة تلو الأخرى من دون أن يشترك في العملية، أو أن تنظّفوا وراءه كلّما وسّخ شيئاً، أو أن تلتقطوا تلقائياً كل ما يرميه على الأرض في أنحاء المنزل، الخ... أي أن تتحمّلوا أعباء إضافية. إن هذا التصرّف الذي يقوم على المغالاة في حماية الطفل يعيق كليّاً حسّ المسؤولية لديه.

ظنّ، اعتقد

«أظنّ أنه عليك ربما مراجعة دروسك...»

– وليام؟ ماذا تفعل يا حبيبي؟

– أقرأ!

– ماذا تقرأ؟

– الرواية البوليسية الأخيرة التي اشتراها أبي.

– إنها مبادرة جيّدة جداً يا حبيبي، ولكن أين وصلت في مراجعة دروسك؟

– ما زال لدي بعض الوقت قبل أن أبدأ. الامتحان التالي بعد عشرة أيام.

– أظن أنه عليك ربما مراجعة دروسك منذ الآن إذا أردت أن تحرز علامات جيدة! خصوصاً في الفيزياء والكيمياء. إن لم تخنّي الذاكرة فـ...

– سأقوم بمراجعة دروسي، ماما، لا تقلقي!

أن نظن لا يعني أننا نفكّر

إن الاستخدام المكثَّف لفعل «ظنّ» أو «اعتقد» هو علامة خضوع للفكرة الوحيدة التي تطغى على ذهننا: «أظنّ أنه يجب عليك أن تدرس أكثر». أولئك الذين يظنّون ويعتقدون لا يفعلون الكثير. فلكثرة ما «يظنّون» ينسون في النهاية أن «يعملوا». وإذا كان لديهم أطفال فإنهم يثقلون كاهلهم بأحمال لا أمل منها. إن قوّة الظن عند الأهل كبيرة جداً حتى أنها تعيق أحياناً أي إقدام على فعل أو أي تغيير. ذلك الذي يظن ويعتقد، يشعر بالراحة والأمان، لأنه غير مضطرّ أبداً إلى أن يفعل أي شيء إلاّ في الفكر. الأهل الذين يظنّون لا يفعلون.

اختيار الكلمات

«أعتقد (أظن) أنه عليك ربما أن تراجع دروسك. . .» ليست الصيغة الملائمة، أيتها الأم العزيزة. ولكن كيف السبيل إلى جعل ولدكم يدرك أن الوقت قد حان لكي يبدأ بالدرس؟ الحياة خشبة مسرح لا تجد عليها أحداً يهمس في أذنك الجواب الصحيح أو الجمل المناسبة. إذا حذفنا الفعل «أعتقد»، يبقى: «ربما عليك أن تراجع دروسك»؛ إلاّ أن كلمة «ربّما» تشكّل ذريعة بالنسبة إلى الطالب الذي يفتقر إلى الحافز اللازم. «ربما عليك» لا تعني «عليك». فالمسألة ليست سهلة الحلّ. ومن أجل إيجاد الكلمة المناسبة، يجب تغيير طريقة تفكير الوالد (أو الوالدة).

«لقد آن الأوان لكي تراجع دروسك». هذه صيغة تنمّ عن السلطة لكنّ حسنتها أنها مباشرة! في صيغة أكثر سخرية وتهكّم يمكن القول: «أتصوّر أنك تنوي البدء بالدرس قريباً؟» أو بنبرة لاذعة جداً: «إذا قرّرت مراجعة دروسك قبل الامتحان، أرجوك أخبرني لكي أضيء شمعة على نيّتك». تنجح السخرية أكثر من الفكرة الواحدة وتجد صداها عند الأولاد بدءاً من سن البلوغ، ويعتبرونها ظريفة «Cool». قد يكون ربما الالتحاق بصفوف للفكاهة التربوية فكرة عبقرية وذات مردود عال على المدى القريب. إذا كنت ممثّلاً (ممثلة) يبحث عن عمل، فكّر في الأمر بجدية. يكفي امتلاك حسّ الفكاهة لتأسيس شركة.

أب، والد

«أبوك نذل. لقد هجرنا من دون أي ندم»

إذا كانت الأم لا تقدّر الأب فلن تكون لسلطته أي قيمة في نظر طفله. ولا بد من الإشارة إلى أنه نظراً لتزايد حالات الطلاق (في الغرب)، فإن قيمة الآباء تقلّ أكثر فأكثر في نظر الأمهات الوحيدات.

ترتدي التربية التي توفّرها العائلات التي ترعاها الأم وحدها صبغة مؤسّساتية قائمة على رفض صورة الأب ونبذها. على أن الاعتراف بدور الأب، مهما تكن أخطاؤه وزلاّته، هو ضروري لتأمين التوازن العاطفي والنفسي عند الطفل. قد يكون «النذل» على خطأ، لكنّه الأب الذي سيخلق غيابه فراغاً عاطفياً هائلاً عند الطفل. ليس جميع الآباء وحوشاً سفّاحين، أو غيلاناً يفترسون أولادهم. يمكن التخفيف إلى حد بعيد من الخلافات المحتومة التي تظهر بعد الانفصال إذا حافظت الأم على صورة الأب في نظر أولادها. «والدك ليس ملاكاً لكنّه والدك!» الهدم أسهل بكثير من البناء والبغض أسهل من الحب، والاحتقار أسهل من الاحترام. إن احتقار صورة الأب الغائب هو سلوك يسمّم نمو الطفل الذي أنجبه الأب والأم معاً. «طبعاً إني حانقة على أبيك لكن هذا يخصّني وحدي». سيكون الولد دائماً مصاباً بنقص على الصعيد الفكري والاجتماعي والمهني والعاطفي، غير قادر على التحكّم بمواهبه، غير قادر على إثبات ذاته، غير قادر على تجاوز أب أنكرته الأم. كيف يمكننا تجاوز منافس أقرّ بالهزيمة وخرج من اللعبة؟

هنالك طرق عدة يمكن استخدامها للكلام عن الغائب أو الغائبة عندما نتوجّه إلى الطفل. يجب الامتناع كليّاً عن التعابير البذيئة أو المهينة وكذلك عن الانتقادات اللاذعة أو المغرضة. ليس الطفل مسؤولاً عن خيانة زوجك السابق أو عن عدم قدرته على دفع النفقة. هل فكرت في ذلك؟ هل تقبلون بأن يهين الأستاذ طفلكم فيقول مثلاً: «ابنكم غبي جداً، لن يحقّق شيئاً في حياته»؟ كيف تشعرون إذا ما جاء هذا الانتقاد من شخص لديه سلطة على ولدكم؟ تشعرون بالاستياء، أليس كذلك؟ تخيّلي أيتها الأم ما الذي تشعر به ابنتك عندما تتكلّمين بالسوء عن أبيها في حضورها! (انظر أيضاً هجر، ص9).

صغير

«يا صغيري جوليان...»

– يا صغيري جوليان، هلاّ قلت لأبيك إن العشاء جاهز؟
– نعم، ماما...
– لقد طهوت أكلتك المفضّلة يا صغيري جوليان! أنظر، هل هذا يناسبك؟
– ممتاز، شكراً ماما.
– هيّا إلى المائدة.
– اجلس هنا يا صغيري جوليان...».

المدمن على «الصغير»

لدى بعض الأهل أو الجدود ميل مؤسف إلى إلصاق كلمة صغير باسم الطفل. وكانت جدّتي مصابة بهذا المرض بدرجة وخيمة. لم تكن تستطيع التوجّه إلى ابنها أو إلى حفيدتها من دون إدخال هذا «الصغير» في كل مرّة: «يا صغيرتي كارولين» «يا صغيري رينيه!» وسواء كان ذلك شفهياً، عبر الهاتف أو خطيّاً، كانت تستهلّ دائماً جملها بـ«يا صغيري...» أو «يا صغيرتي...» وقد استمرّت الحال معي حتى بلغت سن الرشد القانونية. وأفترض أن الأمور قد سارت على النحو ذاته بالنسبة إلى والدي، لأنه كان قد تجاوز الثلاثين من العمر عندما كانت أمه تدعوه «يا صغيري رينيه».

عاطفة خادعة

لقد لاحظت أن كلمة «صغير» المتكرّرة لم تكن تُلصق إلاّ بأسمائنا ولم تكن تُلصق أبداً بتسميات تنم عن الحب والحنان من

نوع «يا عزيزتي الصغيرة» أو «يا جيبي الصغير» أو «يا قلبي الصغير». تقول الحكمة الشعبية إن «كل ما هو صغير ظريف». كان بالإمكان اعتبار هذه العادة الكلامية علامة حب وعاطفة، لو أنها ترافقت بهذه التعابير الرقيقة التي يدلّل بها الكبار الأولاد. مع أنه من الممكن أيضاً أن يحبّ المرء ويدلّل أولاده بعد أن يكبروا، عندما تسمح له مشاعره بذلك. لكنّ هذا لم يحدث أبداً. لم تكن كلمة «صغير» للأسف علامة حب وحنان تجاهنا.

«الصغير» الذي يقتصر ظِرفه على مظهره

يعبّر الأهل من دون أن يدروا عن رغبتهم الخفيّة في منع أولادهم من أن يكبروا. فطالما بقي الطفل صغيراً احتاج بالضرورة إلى أهله، الذين يتمكّنون هكذا من الاستمرار في السيطرة عليه. إنها وسيلة تجعل الولد يشعر بأن والديه لا يستغنيان عنه، وتُدخل في ذهن الولد - والراشد في المستقبل - الطابع الحيوي لدور الأهل (أو أحد الوالدين) وضرورته القصوى. إذا بقي الولد صغيراً، يمكن للأب (أو الأم) أن يستمرّ في ممارسة التسلّط عليه. تعبّر هذه العادة الكلامية إذن عن شكل من أشكال التسلط العاطفي الذي يمتص شخصية الولد ويدمّرها ويقلّل خصوصاً من قيمة الولد.

أستنتج من كل هذا أنه عندما تُستخدم كلمة «صغير» بإفراط، فإنها تؤذي الولد وتقتله عاطفياً: «إذا بقيت صغيراً، فأنت ملك لي، ولن أتوانى حتى عن قتلك كيلا تكبر!». الأم التي تملك سلطة وهب الحياة تملك أيضاً سلطة أخذها. هنالك أنواع مختلفة من الأمهات القاتلات. أحد الأمثلة على ذلك حرمان الطفل من الحب قصاصاً له: «لم أعد أحبّك!». إن الموقف أو التصرّف الذي ينبذ الطفل،

مهما كان شكل هذا التصرف، هو شكل صوري لقتل الصلة الدائمة السرمدية التي تجمع بين الأم وطفلها.

ملعونة هي الكلمات الخارجة من الفم!

هذا النوع من الرسائل، غير المؤذي في الظاهر، يعيق في الحقيقة تطوّر الولد ونموّه ويجعل منه شخصاً انطوائياً غير قادر على التحرّر من القيود العاطفية التي تبقيه سجيناً. بقي والدي صبيّ أمّه «الصغير» حتى الثلاثين من عمره. وفي النهاية توقف نهائيّاً عن التقدّم في العمر وهكذا ظلّ إلى الأبد رينيه أمّه «الصغير». أمّا «كارولين الصغيرة» فقد أجبرت حتمياً «رينيه الصغير» على أن يكبر؛ لقد جعلت من ذلك الفتى الصغير أباً، لم يعد ملكاً لأمّه. لقد أفلت ابنها الحبيب منها. وكان من الضروري أن أظلّ، أنا أيضاً، أصغر ما يمكن كيلا يكبر هو بسرعة ولكي تستمر هي في فرض سلطتها أطول وقت ممكن على ذريته. لقد نُفيتُ من عشيرة أبي ما إن توقّفت عن ممارسة هذه اللعبة المرضيّة، حيث كسرت نير الخضوع الذي كانت تسحبني إليه دون هوادة جدّتي، تلك المهووسة بكلمة «صغير». كان علي أن أكون «صغيرتها كارولين» أو لا شيء. ولقد اخترت أن أكبر من دون أدنى تردّد. لكنني لن أفشي المزيد من أسرار عائلتي، مع أن ذلك أصبح رائجاً، فكل ما أردته هو إعطاء مثل يُظهر تأثير هذه الكلمة السامّة مستندة في ذلك على تجربتي الشخصية.

اختيار الكلمات

لطفلكم الحق بأن تحبّوه من دون تحديد أو تصغير فلماذا تحدّون مشاعركم وتختصرونها؟ «يا ملاكي الصغير»، «يا حبيبتي الصغيرة»، «يا حبّي الصغير»، جميعها مظاهر حب وعاطفة ستُحفر

في قلب طفلكم. حتى وإن كان لا يتجاوز عمره بضعة أشهر أو حتى بضعة أيام، فإنه بحاجة إلى حب ضمن الحدود الطبيعية الحقيقية. إنه الوقود الذي سيحثه على أن يكبر جسدياً ونفسياً وعاطفياً. لا تسجنوا طفلكم في هذه الكلمة الضيّقة. امنحوه حبّكم من دون أن تنقصوا منه بواسطة كلمة تصغّره وتعطّل قوّته وتضمن له مستقبلاً ضيّقاً جداً يقلّل من قيمته ويمحو أي احترام لذاته.

أرضى، إرضاءً لـ

«أريدك أن تنجح إرضاءً لي!»

الرضى بالوكالة

«انجح إرضاءً لي!» يا لها من حجة! لقد حوّلتم غاية نجاح ولدكم المدرسي لصالحكم. إن الاستخدام المتكرّر لهذه العبارة: «إرضاءً لي» أو «لتُسعدني» يشير إلى والدين غير راضيين عن نفسيهما، يوكلان لولدهما مهمّة إرضاء أو إشباع ما لن يتمكّنا يوماً من تذوقه: ألا وهي متعة أو سعادة النجاح أو الإنجاز أو المجد أو الشهرة. إن الأهل الذين يطالبون أولادهم بهذا الإرضاء غير ناضجين وعلى الأرجح ألحّ عليهم أهلهم ونغّصوا عليهم حياتهم لكي يكونوا كاملين مثاليين فحرموهم في الوقت نفسه من متعة الاكتمال. لقد كانوا الأوائل في صفّهم، آلات لا تخطئ في الامتحانات ومسابقات الدخول، أولاداً موهوبين متفوّقين تركّزت كل طاقاتهم في النجاح المدرسي والمهني والاجتماعي. لقد أسعدت انتصاراتهم الصغيرة أهلهم فشعروا بالرضى (أو بالفخر أو بالزهو) من دون أن يشركوا أولادهم بهذه المتعة.

الغصب

اللامبالاة العاطفية لدى هذا النوع من الأهل هي القاعدة. يدفعون بوريثهم إلى كمال (ومثالية) لم يبلغوه قط لكي يستمدّوا من ذلك متعة غير مشروعة، لكي يحوّلوا سعادة ومتعة النجاح لصالحهم. ويصبح ولدهم رهينة ميل ليس فيه. إن معظم الأهل الذين يحثّون أولادهم على القيام بعدد كبير من النشاطات الموجَّهة

خارج المدرسة هم أشخاص غير قادرين على إرضاء أنفسهم. وكلّما ضغط الأب (أو الأم) على ابنه، ازداد كره الولد لهذا الأب الذي يوجّهه.

ولكن، بما أن هذا الكره غير أخلاقي، فإن الولد يعاقب نفسه بالسعي إلى إرضاء أبيه للتخلّص من الشعور بالبغض. وكبرياء الأب (أو الأم) هو الهدف النهائي لهذه اللعبة الغبية. يحرمون ولدهم من الضجر فيفرضون عليه نشاطات لا عدّ لها ولا حصر: موسيقى، رياضة، نشاطات توعية، فروض العطلة، كتب تعليميّة... لكن الأولاد بحاجة إلى أن يملّوا ويضجروا لكي ينموّا مخيّلتهم وإبداعهم. ومن الجوهري أن يعرف الأهل كيف يبتعدون عن الولد لكي يسمحوا له باختبار الوحدة وأحلام اليقظة والملل.

اختيار الكلمات

«أريدك أن تُسعِد (ترضي) نفسك» هي الصيغة المناسبة التي يُفترض أن يقولها الأب (أو الأم) لولده. نقول «يُفترض» لأن قلّة هم الأهل للأسف الذين يأخذون بعين الاعتبار رغبات أولادهم. ولكن لا بأس، سيسعدكم ابنكم ويرضيكم بما أن رغباتكم أوامر بالنسبة إليه، بل تهديدات شبه صريحة، وستدفعون ثمنها عندما يصبح وريثكم كبيراً بما فيه الكفاية ليحاسبكم. يجد الأهل الأنانيّون أنفسهم دائماً وحدهم عندما يشيخون ويتركهم عادة أولادهم في دور للمسنّين، مثل تحف صغيرة لا قيمة لها. عليكم أنتم اختيار موقفكم: «أريدك أن تفعل كذا إرضاءً لي» عبارة لا تؤدّي بكم إلى أي مكان.

نسخة طبق الأصل

قالت الجدة بفخر: «حفيدتي نسخة طبق الأصل عن أمّها»

أمّا الشابة موضوع هذا التمجيد للنموذج العائلي فشعرت وكأنّها على وشك الانفجار. لقد حرموها من الحق في أن تشبه نفسها. فهي ليست سوى صورة عن أمّها، مستنسَخ عائلي يديم الشكل الخارجي لشخص يحبّونه طبعاً لكنّه ليس هي. بسبب هذه الرسالة المؤذية التي تشغلها، ستفعل كل شيء كيلا تشبه هذه السلالة من النساء اللواتي يستخرجن نسخاً عن بعضهن البعض، من جيل إلى آخر. «لا أريد أن تكون حياتي نسخة عن حياة أمّي لأنني لست أمي». تتشبّت الجدة بذكرى شبابها البائد بفرض هذا الشبه الزائف على حفيدتها.

ذكريـات

أذكر أني، عندما كنت طفلة، كنت أقضي العطلة المدرسية القصيرة عند جدّيّ لأمي والعطلة الصيفية عند جدّيّ لأبي. هكذا، لا أحد يعاتب ولا أحد يتكدّر. وكان جدّاي لأمي يديران دكاناً صغيراً تُباع فيه مختلف المواد الغذائية. وعندما كنت أمكث عندهما، كانت جدّتي تبدي الملاحظة نفسها: أني أشبه أمّي شكلاً. وكانت زبوناتها، اللواتي يأتين للثرثرة بقدر ما يزرن الدكان لشراء الحاجيات، يتعجّبن دائماً ما إن أجتاز عتبة المحل: «إنها نسخة طبق الأصل عن أمّها!». تحمّلت ذلك لسنين عديدة حتى أصبحت أكبر من أن أمضي العطلة عندهما.

من جهة ابي، كان جدّاي وأصدقاء العائلة يكرّرون جميعاً المعزوفة نفسها: «غير معقول، كم تشبه أباها!». وأين أنا في كل هذا؟ لم يكن

لي أي اعتبار أو أي قيمة! كنت مسجونة، ألعب دور الصورة المنسوخة عن والدَيّ. ولم يكن لي أي وجود. لقد جرّدتني عائلتي بكل بساطة من حقّي في حياة خاصة بي. لم أكن سوى وسيلة لإبراز حصيلة العمل الخارق الذي أنجزته عدّة أجيال متتالية. بعد ذلك ببضع سنوات، بلغ بي الاستياء والغضب من هذا الوضع أشدّه وكسرت المرآة لأنني بتّ لا أرى صورتي فيها بل صورة أبي وطالبت بالحق في أن أشبه نفسي. لقد أثبتّ ذاتي بشخصي وشكلي ومظهري وليس كنسخة طبق الأصل عن أبي رحمة الله عليه. فطُرحت خارج «القبيلة» من دون أي تأخير او أي تحفّظ وبعد ذلك بخمسة عشر سنة حُرمت من الإرث. هل يجب أن تكون شجرة العائلة مجرّد نُسخ متشابهة بحيث يُمنع الطفل من تحقيق هويّته الخاصة؟

مكافأة مزيفة

يشعر الطفل الذي يتلّقى هذا «المديح» للمرّة الأولى أن هذا التشبيه بينه وبين والده (أو والدته) مكافأة له. وهذا الشعور مشروع تماماً لأن والديه هما مثاله الأعلى. لذلك فإنه يعتبر هذا التشبيه إطراءً له، وليس من سبب لديه يجعله يعترض على هذا التشبيه. يشعر الطفل بالرضى، وكذلك العائلة. كل شيء يسير على ما يرام، والجميع في سعادة وهناء، إلاّ أن الطفل يكبر ويبني شخصيته الفريدة ويسعى إلى إيجاد مكانه في العائلة الواسعة، هذه النواة الاجتماعية الأولى التي تكون مرآة له.

عندئذ يشعر أنه في شرك، تحيط به هذه النظرات العائلية مثل المرايا المشوّهة للشكل في مدينة الملاهي. من جهة، يثيرون حفيظته ويضجرونه بالقول «إنه نسخة طبق الأصل عن أبيه» ومن جهة أخرى «إنه نسخة طبق الأصل عن أمّه» فتُطلَق التشابيه من كل مكان

وكلّ يتحزّب لقومه. فلا يعود الطفل يعرف إلى أي مرآة يلتفت. هو مَن في النهاية؟ مَن يشبه بما أنه ليس أمّه وليس أباه؟

وعلم الوراثة في كل هذا؟

لمجرّد التذكير، يولد الطفل عادة من اتحاد امرأة هي الأم ـ ورجل هو الأب! فمن الطبيعي أن يرث الطفل خصائص جسدية من أمه وخصائص جسدية أخرى من أبيه! هذا وفق مبادئ علم الوراثة! تقولون إن هذا أمر بديهي؟ نعم إنه أمر بديهي! ولكن إذا كان الجميع يعتبر ذلك أمراً بديهيّاً، فلماذا يستمرّون في تشبيه الطفل بأبيه وبأمّه؟ يغذّي الأهل، أو الجدود، كبرياءهم بفرض هذا الشبه على أحفادهم، متشبّثين في ذلك بذكريات طفولتهم، أمّا هوية الطفل فيضربون بها عرض الحائط. ويعني هذا الدمج، أو هذه المماثلة القسرية، حرمان الطفل من حقّه في الاختلاف.

اختيار الكلمات

أيها الأهل، أنتم الذين تحبّون أولادكم، ضعوا حدّاً لكل هذه الثرثرة. عندما يقول أفراد عائلتكم أو عائلة شريككم أو أصدقاؤكم: «كم يشبه أباه»، أجيبوهم من فضلكم: «إنه يشبه نفسه أكثر من أي شخص آخر!». طفلكم إنسان فريد في المزيج البيولوجي الذي يكوّنه وهو ليس بالتأكيد كائناً مستنسَخاً. لديه الحق في الوجود وفي أن يُحترم لشخصه وطبيعته. إن الصورة التي يكوّنها عن نفسه تعتمد على ذلك، وكذلك سيبني حياته بالمزايا والكفاءات الخاصة به من دون أن يسعى مجبراً مكرهاً إلى إعادة بناء تاريخ ليس تاريخه. على كل أب وأم إعطاء طفلهما كل الفرص المتاحة للنجاح. وأول قاعدة ذهبية لتحقيق ذلك تقضي بتشجيعه على أن يشبه ذاته.

نظرة أخرى. . .

«تشبهين أمك»، «أنت مثل أمك»

«تشبهين أمّك عندما تتصرّفين هكذا»، يقول الأب الذي أغاظه إلحاح ابنته (12 سنة). لكنّ الفتاة لا تستسلم. يجب أن يشتري لها الفستان الجديد الذي رأته في واجهة المحلّ المجاور لقاعة السينما التي ذهبوا إليها مساء أمس. إنه لمناسبة مهمة جداً. عليها أن تذهب إلى عيد ميلاد صديقتها المفضّلة، يوم السبت القادم.

قناع الغيظ والحقد

عندما يرمي أب وأم، في وجه طفله كلاماً مثل: «تشبهين أمّك» أو «تشبه أباك»، فنادراً ما يكون ذلك لإطرائه. فلو كانت هذه هي نيّته لحدَّد طبيعة الشبه من دون أي مشكلة. ولكنّه يبقى في الواقع مبهماً غير واضح في كلامه. ويُدخل الحكم الصادر في ذهن الطفل الانطباع بأنه ورث أسوأ خصال أمّه أو أبيه. ومثلما يتقاذف الوالدان، كما في مباراة لكرة الطاولة، تعابير مثل «إنه ابنك» و«إنه ابني» وفقاً لما إذا كان الطفل قد ارتكب حماقة أو حقّق نجاحاً (انظر ابن، ابنة، ص153)، كذلك جملة «تشبه أباك» تنمّ عن غيظ وحقد: «إن أمّك ـ أو أبوك ـ قد تغيّرت، ليست كما كنت أعتقد، أشعر أني قد خُدعت، لقد خاب أملي»، وتكشف هذه الجملة خيال حب لم يعد يُصرَّف إلاّ في صيغة الماضي.

«الكلمات تولّد الانفعال»

يقول جان ديديه فنسان: «وحده الإنسان قادر على إقامة الحجة والبرهان. فهو يبرع في إقناع الآخر، والتلاعب به لجعله

يبدّل رأيه وللحصول على موافقته».

إن نبرة الازدراء والاحتقار التي تُقال بها هذه الجملة في أغلب الأحيان تنقل انفعالات وأحاسيس سامّة وإذا تكرّر استخدام عبارة «تشبه أباك» بشكل مفرط، قد يتولّد لدى الطفل شعور بعدم الأمان وخوف غير منطقي من أن ينبذه أبوه أو أمّه (الشخص الذي يوجّه الانتقاد). إن الأم التي تلاحق ابنها بـ«أنت تشبه أباك» لا تعبّر بصراحة عن المشاعر والأحقاد التي تكنّها لزوجها؛ وهذه الأمور التي لا تُقال مفسِدة أكثر من الحقيقة. حتى وإن كان الطفل يجد صعوبة في تقبّل الحقيقة لأنه بحاجة إلى كلا والديه، فإن الحقيقة على الأقل واضحة صريحة لا لبس فيها. ويمكن لِما لا يُقال أن يخلق عند الطفل مشاعر تخلّ بتوازنه: شعوراً بالذنب ـ فهو يشعر في أغلب الأحيان بأنه مسؤول عن فشل والديه العاطفي ـ؛ شعوراً بالهجر وبالإهمال ـ إذا كان هو أيضاً محروماً من الحب ومنبوذاً ـ؛ قلقاً حاداً ـ يمكنه أن يتعرّض لنوبات قلق فيضطرب نومه وأكله ووظائف كثيرة أخرى. «بما أن أمي لم تعد تحب أبي، وإذا كنت أشبهه إلى هذا الحد فهذا يعني أنها لن تحبّني أنا أيضاً بعد اليوم». يمكن لهذه الجملة أن تولّد عند الطفل خوفاً من الهجر يشتد إذا كان والداه منفصلين أو مطلّقين أو في طريقهما إلى ذلك.

اختيار الكلمات

من الضروري أن يحترم الأب، أو الأم، شخصية طفله المميَّزة الفريدة بعدم تعريضه للحقد الذي يشعر به. «أنت تشبه أباك/ أنت تشبهين أمّك» جملة نموذجية تعبّر عن هذا الشعور المؤذي. من واجب الأب، أو الأم، أن يحمي طفله وليس استعماله كرهينة. إن

الأب، أو الأم، الذي يفرط في استخدام هذا النوع من الخطاب يصفّي الخلاف القائم بينه وبين شريكه، من خلال طفله. مهما تكن المشاعر التي تربط بين الوالدين سلبية ولا سيّما في حال وقوع الطلاق، يجب أن يدركا أن كل انتقاد يوجّهه أحدهما للآخر بشكل غير مباشر هو جرح يسبّبانه لطفلهما. إن الأب، أو الأم، الذي يفرغ سمّه في أذنَيّ ابنه أو ابنته يشبع حاجة تغذّي بدورها خيبة أمله بالآخر أو حقده عليه. يتسبّب حقده وعِداؤه بأضرار جسيمة في نمو الطفل العاطفي النفسي؛ فهذا الأخير بحاجة إلى صورة جيدة عن والديه ليبني ذاته. إن تحمّل مسؤوليتنا كأهل، ولا سيّما في حالة الانفصال أو الطلاق، يعني الحرص على أن تبقى صورة الأب، أو الأم مقبولة قدر الإمكان. وتمتلك الأم كل السلطة اللازمة لتضمن وجود الوظيفة الأبوية، إذ يكفي أن تشير إليه بانتظام في كلامها. ولكن ليس بالضرورة لكي تتذمّر من الماضي.

عسى أن

«عسى ألاّ تعاني مع أخيكِ ما عانيتُه أنا مع أختي!»

كلمات تحمل النحس

لن ينجح التمني في إبطال مفعول اللعنة التي تنتظر «ابنتي وأخاها». السيناريو مكتوب، فلِمَ لا نستخدمه؟ «عسى ألاّ يكون قد حدث له مكروه!» جملة تجلب النحس، جملة تنضح بالشؤم. وتوقّع الشؤم والمصيبة إرث يُنقل شفهياً من الأم إلى الابنة أو من الجدّة إلى الحفيدة. تتعرض عادة العائلات التي تكثر من استخدام عبارة «عسى ألاّ» أكثر من سواها للحوادث الخطيرة أو المأسوية. يشكّل التطيّر عندهم حماية سحرية من شدائد القدر الصغيرة. لكنّ التطيّر ليس، لسوء الحظ، ضمانة مناعة وعدم انهزام.

اختيار الكلمات

من المستحيل تحويل شخص متطيّر إلى شخص منهجي عقلاني. التطيّر هو أسوأ المخدّرات. فعندما تدمنون عليه، تظلّون مدمنين العمر بطوله. وذلك لأن السحر يمتلك سلطة على أذهان العامة هي أعلى وأقوى من الواقع اليومي العادي. يكذب السحر علينا لكننا نستمر في تصديقه كيلا نفقد أحلامنا في الطريق. تكفي ورقة يانصيب رابحة لتحويل لاعب يشتري ورقة بين الحين والآخر إلى مراهن مجنون. ويصبح فرح الربح الذي ذاقه في أحد الأيام سعياً حيوياً يمارسه بقية حياته البائسة، مع احتمال خسارة كل شيء. لو عرض عليه أحد ذلك، لراهن بحياته في لعبة الروليت الروسية

لكي يذوق مرّة ثانية السعادة الشديدة التي أحسّ بها عندما ربح ورقة اليانصيب. أصغوا إليه: «عسى أن تكون هذه المرّة هي المرّة الرابحة!»، كل توقّعاته وآماله وأمانيه معلّقة بهذه العبارة. «عسى الطقس يكون جميلاً»، حتى الأحوال الجوية مناسَبة لوضع أمنيته على مذبح معتقداته الباطلة. «عسى أن يدوم ذلك»، جملة كانت والدة نابوليون بونابرت تردّدها باستمرار! وتعرفون إلى أين أوصلتها جملتها.

أصحاب «عسى أن» أهل متأمّلون وأولادهم أشخاص ضربتهم اللعنة. إذا كنتم ترغبون في جعل أولادكم أشخاصاً فاعلين سعيدي الحظ، عليكم التفكير في إلغاء هذه العبارة من كلامكم اليومي. وتذكّروا أن اللعنة تطرق دائماً باب الذين يعتقدون أن السحر تعويذة!

فضّلَ

«أتدري، لو كان الخيار عائداً لي لفضّلت إنجاب فتاة بدلاً من الصبي...»

«ماما، لماذا لست صبياً؟»

لم يكن الأب (أو الأم) يريد أيَّ طفل، بل طفلاً من جنس معيّن. بدايةً، إن هذا التمييز مبني بشكل أساسي على الجنس، خصوصاً عندما يوجَّه مباشرة إلى الشخص المعني على شكل لوم. إذا كان الطفل لا يزال صغيراً جداً، فهو لا يملك أي وسيلة ليُسكت أباه ويقول له إنه مرتاح كما هو، في الجنس الذي اختاره له القدر. ويصبح الجنس غير المفضَّل تلقائياً جنساً منبوذاً مرفوضاً في نظره. فيميل الصبي إلى تقليد الفتيات في حين تسعى الفتاة بجميع الوسائل إلى اتخاذ صفات الرجل (المسترجلة) لكي ترضي أباها، أو أمّها. غالباً ما يتم التعبير بهذه الطريقة عن رفض جنس الطفل، ولوقت طويل بعد الولادة. تفضّل الأم لو أنها أنجبت صبيّاً، أو صبيّاً وفتاة بدلاً من فتاتين، الخ. ولقد شعرت بالإحباط عند ولادة طفلها أو عندما رأته في الصورة الصوتية لكنّها لا تعبّر عن هذا الإحباط بل تكبته أمام سيل التهاني الذي أغدقته عليها العائلة.

«هي المفضَّلة لدي»

يعتبر أحياناً الأب، أو الأم، ابنه كدمية رائعة حُرِم منها عندما كان طفلاً، وقد مهّد هذا الحرمان أو الكبت إلى تكوين شخصية لا يرضيها شيء: قدّموا لها ورداً حمراء، فتفضّل أن تتلقّى وروداً

بيضاء! وإذا اشترت لزوجها ربطتي عنق، فيستحسن أن يلبسهما كليتهما في اليوم التالي وإلاّ فقد تتحفه زوجته بنوبة عصبية.

الضغط المزدوج

الأهل الذين «يفضّلون» شيئاً على آخر هم أهل مبتزّون يمارسون ضغطاً مزدوجاً على أطفالهم. ليس من حلّ مثالي بالنسبة إليهم وليس من جنس يناسبهم تماماً، لأنهم يغذّون، من غير قصد وبكثير من التلذّذ، حرماناً أساسياً يضّطرهم إلى الامتناع عن إرضاء ذواتهم. وكما هي الحال في مَثَلنا هذا، فمن المستحيل تحقيق ما يفضّله الأب، أو الأم. وتظهر عدائية الأم تجاه الطفل غير المرغوب به من خلال تصرّفاتها أو كلامها بالرغم من تصريحاتها المؤكّدة على عاطفتها تجاهه. وتُكثر هذه الأم من استخدام الفعل «فضّل» أو تعبّر عمّا تفضّله أو لا تفضّله في كل المناسبات. «أفضّل أن أسكت... أفضّل أن أقول لنفسي أن... كنت فضّلت لو أراك فوراً، الخ» هي بعض العبارات التي يستخدمها الأهل الضاغطون. فتنبّهوا لها!

اختيار الكلمات

إذا كنتم تنتمون لفئة الأهل الذين «يفضّلون»، فإنكم أنتم أيضاً ضحايا هذا النوع من الابتزاز، الذي هدّدكم في طفولتكم. الفعل «فضّل» هو فعلكم المفضَّل لكنّكم، دون شك، لم تدركوا ذلك قط. اعلموا أن الإفراط في استخدام هذا الفعل سيخنقكم كلّما اضطررتم إلى الاختيار. لا تفضّلوا بل أحبّوا أو اكرهوا، اقبلوا أو ارفضوا الخيار الذي يزعجكم. وبخاصة، تخلّصوا من الفعل «فضّل» بأقرب وقت ممكن، أي منذ اليوم. أؤكّد لكم أنكم ستبدأون برؤية الحياة باللون الوردي لأنه إذا كان عدم قدرتكم على الاختيار متعلّق بتربية أولادكم، فمن الملحّ جداً أن تراجعوا حساباتكم.

وعَـــدَ

«أعدك (أضمن لك) أنك ستقع»

مارغو فتاة صغيرة فاتنة في الثانية من عمرها كثيرة الفضول وشديدة الحيوية. رأت مارغو علبة ملوّنة على الرف الأعلى للمكتبة في آخر الصالون، فاندفعت في الممشى وأخذت المقعد الخفيض الذي كانت قد تركته هناك قبل بضع دقائق.

- ماذا تفعلين يا حبيبتي؟ سألتها أمها وقد أقلقتها الجلبة. ماذا تريدين أن تفعلي بهذا المقعد؟

- أريد التقاط العلبة.

- أي علبة؟

- هذه ماما، انظري! قالت مارغو مشيرة بإصبعها وهي واقفة على أطراف أصابع قدميها العاريتين على المقعد الذي تسلّقته.

- مارغو، انزلي من عندك! منذ الصباح وأنت تتصرّفين كالمجنونة وتتسلقين كل ما في البيت. إذا استمرّيت هكذا، أضمن لك أنك ستقعين!

التنبّؤ الأبوي

الوعد يعني الالتزام تجاه الطفل، أي ضمان تحقيق حدث معيّن أو فعل أو غيرهما. إن الأب، أو الأم، الذي ينتهج خطاباً تنبّؤياً، يتكهّن فيه بالمستقبل، يؤثّر في تصرّفات ولده ويكون الوقع الانفعالي للوعد شديداً لأن الوعد صادر عن الأب، أو الأم. فبنظر هذا الطفل البريء، الأب هو الذي يحرّك خيوط قدره.

ماما هي التي وعدت بذلك، هذا يعني أنه صحيح!

وبالتالي فإذا وعد الأب، أو الأم، فستجري الأمور كما قال

بالضبط. الطفل عجينة طيّعة مما يجعله يخضع من دون أي تحفّظ: «بما أن ماما قد وعدت بذلك، فهذا يعني أنه صحيح!» وسوف يقع الطفل بالفعل. إنه تأثير الإيحاء لا أكثر ولا أقل. لكنّ هذا لن يمنع الولد من القيام كل بما يحلو له. يحتفظ الطفل برغبته الجامحة في الاستكشاف. وإذا حدث ووقع، بتأثير من وعد أمّه، فسيدرك سريعاً أنه قادر تماماً على تجنّب السقوط. السقوط غير محتَّم ولديه القدرات الحركية والنفسية التي تسمح له بتجنّبه. فلماذا عليه إذن أن يستمر في الوقوع؟ يدرك الطفل في وقت من الأوقات أنه قادر على الإفلات من «اللعنة» التي رمتها عليه أمه، ويفهم أن باستطاعته مراجعة النظام القائم ومعارضته. إنه يخطو خطواته الأولى باتجاه المعارضة والرفض.

توقعات أو وعود؟

في ذهن الطفل، أن تعد يعني أن تفي بوعدك! وفي تسع مرّات من عشر، يتحقق الوعد ويقع الطفل مرّة، مرّتين، عشر مرّات وفي المرّة الحادية عشرة يتمرّد على هذا الأمر المؤذي الخبيث، فيعصى إيحاء أمّه ويتمرّد عليه. يرفض الطفل السقوط لكنّه يستمرّ في التصرّف كالمجنون، ولو مع بعض الحذر. لم تعد الأم تفي بوعدها، حتى أنها خانت وعدها، ولم تعد أهلاً للثقة. «أعدك» هي كذبة وخداع كلامي. تعلّم الأم (أو الأب) الطفل كيف يكذب من دون أن تدري، وذلك لأن الوعد الذي لا يتحقق مرادف للكذب في نظر الطفل. «لقد وعدتني بأني سوف أقع ولم أقع، فقد كذبت إذن». في هذا العمر، يفكر الطفل بقلبه. وتحلّ الانطباعات والانفعالات السلبية والصور مكان الكلمات عديمة الجدوى. والانفعال السلبي شديد الوطأة! إنه أشد وطأة من وعد لم تفِ به

ماما. أوّل مرّة نجح فيها الطفل في جعل أمّه تكذب، اكتشف أن باستطاعته التأثير على مصيره. لقد غرس بذرة الثورة التي ستظهر بوضوح بعد مرور سنين عديدة، في مرحلة البلوغ.

اختيار الكلمات

لا تتخذوا دور الأهل الذين يتوقّعون ولا تصحّ توقعاتهم ولا تقطعوا أي وعد لن تتمكنوا من الوفاء به، خصوصاً عندما يكون هذا الوعد أشبه بلعنة («أعدك أنك ستقعين»). فهنالك احتمال بأن تتحقّق هذه اللعنة في وقت لاحق. وقد يؤدّي هذا الوعد بطفلكم إلى المستشفى في يوم من الأيام. وذلك لأن اللاوعي الفردي لا يخضع لمفهوم الوقت. وسيطيع الولد الأمر الأبوي بعد مرور عشر سنوات أو عشرين سنة لأن شروط وقوع حادث محتمل تتكرّر هي هي. يصعد الشخص الراشد المستاء أو المضغوط نفسياً على مقعد لتعليق لوحة على الحائط، وقد خلع حذائه لكنه لم يخلع جوربيه. خشبة المقعد الصغير قديمة وزلقة. . . أترككم وحدكم لتتخيّلوا بقية الأحداث.

«يقول الأب في الهاتف: «أعدك بأن أتدبّر أمري بحيث أعود إلى البيت قبل أن تذهب إلى النوم غداً مساءً أو بعد غد مساءً»

«أب غائب، ابن خائب»

الأب الكثير الوعود نموذج شائع يمكننا أيضاً مماثلته بالأب الغائب. لا يكون أبداً حاضراً عندما نحتاج إليه لكنه سيأتي عندما ينهي عمله. لقد أنجب أطفالاً ولكن لا وقت لديه يخصّصه لهم، فحياته المهنية تشغله كلياً أو يدع بالأحرى عمله أو وظيفته أو الشركة

التي يعمل فيها تسيطر على حياته كلها وتبتلعها.

إنها متلازمة الهروب إلى الأمام. ولكن ممّ يهرب؟ من مسؤولية عائلية تثقل عاتقه؟ من دور أبوي يحسّ فيه بالتقييد والضيق؟ مهما يكن من أمر، فهو يعد لكنّه لا يفي أبداً بالوعد. فيشعر الطفل بخيبة الأمل والإحباط وينتهي به الأمر إلى محو بصمة هذا الأب الغائب، فيبحث الفتى عن بديل يحلّ مكانه، أمّا الفتاة فستتطلّق عاطفياً وانفعاليّاً من هذا الأب غير المثالي. في بعض الأحيان، يؤدّي هذا الطلاق في مرحلة البلوغ إلى صمت مطبق لا يُحتمل بالنسبة إلى الأب. هكذا، تلغي الفتاة وجود أبيها برفضها التكلّم معه.

اختيار الكلمات

لا تعدوا أبداً أولادكم بأشياء تعلمون جيداً أنكم لن تستطيعوا تحقيقها. فلا شيء أسوأ من أب، أو أم، لا يلتزم بكلامه! فالأب السيّئ يعني زوجاً سيّئاً بالنسبة للفتاة؛ أما بالنسبة للفتى: فالأب الغائب يؤدي إلى ابن خائب. الوعد في نظر طفلكم هو أكثر من أمنية أو أمل، إنه حقيقة ستتمّ قريباً بما أنكم قلتم ذلك. سيقبل بين الحين والآخر بتأخير في تحقيق وعدكم له في حال وجود قوّة قاهرة ولكن ليس في كل مرّة. فمصداقيتكم كأهل هي على المحك. وإذا لم يعد طفلكم يصدّقكم، تخسرون تلقائيّاً ثقته بكم. «لم أعد أثق بك» هو الحكم الذي لن ينطق به ولكن سيفكّر فيه بكثير من الجزم.

«يعد أبوك لكنّه لا يفي أبداً بوعوده!»

«يعد أبوك لكنّه لا يفي أبداً بوعوده! من المفترض أن يكون هنا في الساعة الثامنة وقد أصبحت الساعة العاشرة. سأفوّت موعدي مع

مزيّن الشعر». بلغت أم ربما حدّ الهستيريا.
منذ أن انفصل والداها، وربما مقسومة إلى نصفين. هي تحبّ والديها لكنّ والديها لم يعد يحب أحدهما الآخر، ويتشاجران طوال الوقت. يرغب أبوها بوصاية متناوبة لكنّ أمها ترفض رفضاً باتّاً. ربما في التاسعة من عمرها وما زالت صغيرة لإعطاء رأيها. إنها تتعلّم بالتجربة...

بين نارين

متى كان طلاق الوالدين نزاعياً خلافياً، فإنه يمزّق الطفل، ويشطره إلى نصفين فيقوم هذا الأخير بسلوكيات غريبة. والطفل هو هنا الرابط الوحيد الموجود بين راشدين توقّفا عن حب أحدهما الآخر لكي يكره أحدهما الآخر، لذلك فإن الطفل يُقدم على تصرّفات خطرة ليجبر والديه على الاجتماع عند سريره في المستشفى مثلاً. تنزف إحدى بناتي من أنفها كلّ مرّة تأتي فيها إلى عندي في الفرص المدرسية. تسمح لها هذه الحوادث الصغيرة المتكرّرة أن تمارس ضغطاً كلما أصبح انفصال والديها لا يُحتمل بالنسبة إليها. ويشكّل عدم انضباط الطفل أو النتائج المدرسية السيّئة مناسبة أخرى لإجباركم على مواجهة مسؤولياتكم بدلاً من أن يعفيكم منها. إذا وُضع الطفل تحت وصاية أمّه، كما يحدث في أغلب الأحيان، فسيسبّب لها أكبر قدر ممكن من المتاعب مع السلطات التربوية وحتى القضائية حتى يصبح من الضروري على الأب الغائب أن يتدخّل، هذا إذا تدخّل. يأخذ الولد مكان الأب المستقيل من دوره فيستبدّ بأمه. تلوم إحدى المراهقات أمّها، بعدما فقدت أي مرجعية في حياتها، فتقول لها: «بابا رحل! وأنت السبب».

تجنّبوا الكلام بالسوء

هل يمكن لوالدين يكره أحدهما الآخر أن يحبّا الطفل نفسه؟ إذا كنتم تعيشون هذا الوضع المزعج جداً، ومهما تكن أخطاؤكم أو أخطاء شريككم السابق، تجنّبوا تلطيخ صورة الآخر في نظر طفلكم؛ وإلاّ فإنّكم تشوشون مرجعياته العاطفية وتمهّدون لكي ينبذكم بدوركم في أحد الأيام. تتكلّم والدة ريما بكثير من السوء عن والد طفلتها بحيث أن ابنتها قد حوّلت أباها إلى ضحية وتلقي الذنب على أمّها في قلبها. ليس الأب بالطبع أباً مثاليّاً، لكنّه في النهاية أبوها. إن سيل الانتقادات اللاذعة الذي يصدر عن والدة ريما يُحدث تأثيراً معاكساً في ذهن ابنتها. كلّما زاد كلام الأم بالسّوء عن زوجها السابق، زادت ريما من تجميل صورة أبيها المثالية. سيكون مخلّصها، الرجل المثالي الذي تحلم به كل مساء قبل أن تخلد إلى النوم. أمّا أمّها، فستلعب دائماً في الحكايات الخرافية، التي تعدّلها الفتاة على ذوقها، دور زوجة الأب الشريرة التي تريد أن تجعل بيضاء الثلج المسكينة تأكل التفاحة المسمومة. ويرتدي الغائب دائماً بذة البطل.

حَـــذِر

«كن حذراً!»

– لوسيان، هدية عيد ميلادك في الحديقة.
– لكنّه ليس عيدي! ما القصّة؟
– لن تتذمّر لأننا أحضرنا لك هدية قبل خمسة عشر يوماً، أليس كذلك؟ أجابته أمّه وابتسامة خفيفة على شفتيها.
– واو! إنها مذهلة! رائع! شكراً ماما، هذا أكثر من رائع!
– لوسيان، أضع شرطاً واحداً لكي تتمكّن من قيادتها وهو أن تكون حذراً جداً على الطرقات وأن تضع دائماً الخوذة!
– أعدك ماما! هل يمكنني القيام بجولة؟
– اذهب بنَيّ!
– كن حذراً يا حبيبي!
قالت أمّه مجدّداً وردّدت التحذير مرّة تلو مرّة.

تعبّر هذه الأم، ولها كامل الحق في ذلك، عن خوفها من تعرّض ابنها الشاب إلى حادث وهو يركب درّاجته النارية الصغيرة. هنالك الكثير الكثير من المخاطر على الطرقات، ما يمنعها من النوم طوال الليل. لكثرة ما كررت على مسامعه هذه اللازمة المنذرة بقرب وقوع الكارثة، فإنها تتخيّل نفسها أحياناً قرب سريره في المستشفى. ولكن كيف السبيل إلى إقناعه بعدم ركوب هذه الخردة؟ جميع رفاقه لديهم دراجة نارية خفيفة. ولقد ألحّ لوسيان بعناد طوال عدّة أشهر للحصول على درّاجته. رأت أمه أنه من الأجدى إهداؤه درّاجة بدلاً من دفعه إلى استعارة دراجة أحد رفاقه فلا يتمكّن ربما من السيطرة عليها. يمكن تجنّب الحادث الذي يُخشى وقوعه من دون حرمان لوسيان من درّاجته النارية. يكفي أن تتعلّم أمه مسك لسانها كلّ مرّة

[illegible] بالحاجة إلى القول لابنها: «كن حذراً!» فوقع بعض التحذيرات يكون كناقوس ينذر بحدوث كارثة. الحياة مليئة بالأخطار لكنّ الجميع لا يصبحون بالضرورة ضحاياها. يتوقّف ربما كل شيء على التعابير التي يستخدمها الأهل للتحذير من الأشياء الطارئة غير المتوقّعة واستدراكها.

اختيار الكلمات

لا تلعبوا دور العرّافين فتعدّدون بصوت عال جميع المصائب التي تنتظر ولدكم عند أوّل مفرق طرق! برهنوا له أنكم تثقون به من خلال تهنئته مثلاً على مهارته في التحكّم بدرّاجته. «تبدو متمكّناً من درّاجتك» أو «عندما ستبلغ السن المطلوبة، سنساعدك في الحصول على إجازة سوق السيارات». وتعني هذه الرسالة ضمنياً أنكم تهبونه حريته (حرية الحركة). وهو مستقبل لن يجعله يرغب في معاقبتكم (بشكل لا واع) على المخاوف التي تحمّلونه إياها كل يوم. ملعونة هي هذه الكلمات التي تسبق غالباً عدداً كبيراً من الحوادث، وذلك لأن عدم الثقة يسود العلاقة بين الأهل وأولادهم.

نظـر

«انظر في عينيّ عندما أتكلّم معك!»

الغريب في الموضوع هو أن الشخص الذي يفرض على طفله أن ينظر في عينيه هو من الذين لا يتمكّنون من تثبيت نظرهم في عينيّ من يكلّمونه من الراشدين، وتراه يتكلّم دائماً وعيناه شاردتان ونظره فاقد التركيز فيما يستمرّ في الكلام مغمغماً.

لا يحبّ الأطفال الغرباء الذين ينظرون في أعينهم، لأن ذلك يخيفهم. العينان الجاحظتان المفتوحتان على مداهما أو النظرة القاسية هي آليّات شبيهة بالتنويم المغنطيسي تشلّ الأطفال وتخيفهم. وليس في متناول الطفل سوى وسيلة واحدة لحماية نفسه: إشاحة نظره والنظر في الفراغ لكي يختفي.

راقبوا حدقتيه

إن الطفل الذي يتكلّم بحرّية يفتح قلبه كليّاً معبّراً عن كل ما فيه. وعندما تميل حدقتا الطفل (البؤبؤان) إلى الاتساع فإنّهما تعبّران عن اهتمامه وسروره وودّه تجاه الشخص البالغ الذي يقف أمامه. ويمكن أيضاً أن تعبّر الحدقتان عن النفور أو الغضب عندما تضيقان.

إذا أجبرتم طفلاً على أن ينظر في عينيكم لتأنيبه، فإن حدقتيه تضيقان تلقائياً. فيضع بالتالي حاجزاً بينه وبينكم. وإذا مارستم هذه اللعبة أكثر مما ينبغي فسيبني جداراً شاهقاً لا يمكن تجاوزه ليحمي نفسه منكم، فتخسرونه بنتيجة الأمر. يكره الأطفال الراشدين الذين يحاولون إخضاعهم بهذه الطريقة. ولقد دفع بعض المعلّمين

المولعين بالسلطة ثمن تصرّفهم هذا في المدارس القائمة في المناطق الخطرة. ففي المدن لا أحد ينظر في عينيّ أحد، لأن ذلك يُعتبر إهانة كبيرة. النظر سلاح هجومي، ويجب أن يبقى هذا السلاح في غمده لتفادي المواجهات غير المجدية بين الأهل والأولاد.

اختيار الكلمات

ليس هنالك من شيء كثير نقوله. «انظر في عينَيّ» هو طلب أحمق يدمّر شيئاً فشيئاً في كل مرّة الرباط العاطفي الذي من المفترض أن يربط بينكم وبين طفلكم. افرضوا سلطتكم بوسائل أخرى؛ هذه هي النصيحة الوحيدة التي يمكنني تقديمها. يهدف هذا الأمر الصادر عن الأب، أو الأم، إلى إرساء سلطة يفتقد إليها. هذا لا يعني أنكم عندما توبّخون أولادكم أو تهنّئونهم يجب أن تنظروا في الفراغ أو إلى السقف، إذ تنقلون إليهم عندئذٍ صورة عن أنفسكم مشبّعة بالخبث والرياء! إن الانفعالات التي ننقلها إلى الآخر تمرّ أيضاً، وخاصة، من خلال النظر. فلماذا التخلّص منها؟

انظروا إلى وجه طفلكم ككل إذا شعرتم أن النظرة المباشرة تزعجه! ولكن، حبّاً بالله، ارموا في بئر لا قعر لها هذه الطريقة المخيفة في التعاطي مع أولادكم! طريقة الذئب الكاسر الذي يهاجم الحمل.

عاقل، وديع، هادىء

«هل تظن أن باستطاعتك أن تكون عاقلاً مع ماما»؟
«إذا كنت تريد إرضاء بابا، كن عاقلاً مع ماما!»

التعقّل، أو الحكمة، ميزة مطلوبة من الأولاد ومقصورة على الشيوخ. ولكن هل هو نفس التعقّل أو الحكمة في كلتا الحالتين؟ من المفترض أن يشكّل التعقّل المطلوب من الطفل عاملاً يعزّز نموّه وتطوّره في طريقه إلى سن الرشد. هذا النوع من التعقّل هو مرادف للطاعة والانقياد ومرادف بشكل خاص لراحة الأهل. إن حكمة الشيوخ صفة مثالية لا نجدها إلاّ عند أبطال الروايات. أن يكون الطفل «عاقلاً» هو أن يكون طفلاً مثالياً كأحد أطفال القصص التربوية والأطفال «العاقلون» يتحوّلون إلى راشدين منحرفين وخبثاء وكذّابين.

اختيار الكلمات

إذا كنتم تعتبرون أن التعقّل، أو الحكمة، ميزة أساسية يجب أن تتوفّر عند الطفل، تجاوزوا هذا المقطع لأنه لن يعلّمكم شيئاً. بالمقابل، إذا كنتم تقبلون فكرة أن التعقّل أو الحكمة، المطلوبين من الأطفال هما حماقة تربوية، فلنر معاً كيف نترك لهم حرية أن يصبحوا راشدين منطقيين من دون أن يكونوا مجبرين على أن يكونوا «عاقلين» تماماً. نحن نردد دائماً «أريدك عاقلاً كالملاك». ليس الأطفال ملائكة، لكنهم بشر من لحم ودم يحتاجون إلى لحظات العنف هذه ليتعلّموا كيف يسيطرون على أنفسهم ويعيشون في المجتمع. وعندما تفرضون عليهم التعقّل في جميع المناسبات والأوقات، تعيقون انفتاحهم على العالم الذي يحيط بهم. وتجعلون

منهم مواطنين أنانيين وعديمي الرأفة يتلخّص مبدأهم الوحيد كالآتي: «الله للجميع وكل ما عدا ذلك ملك لي وحدي». أن يكون المرء عاقلاً متعقّلاً يعني أيضاً أن يحجم عن المطالبة بحقه، ويمتنع عن فضح الظلم، وألا يصوّت مع أو ضد، باختصار ألا يحاول أن يثبت ذاته.

إذا

«سأشتري لك درّاجة من أحدث طراز، إذا أحضرت لي دفتر علامات جيّد المرّة القادمة»

الابتزاز بجميع أشكاله

نريد أن نفعل كل شيء ممكن لكي يتفتَّح ولدنا للحياة ولكن هذا لا يعني أن نحوّله إلى طفل مَلِك، طفل لا يتجاوب معنا إلاّ مقابل مكافأة. الطفل الملك مشروع طاغية نخلط غالباً بينه وبين مشروع النجم. في سن المراهقة، يعتقد أن كل شيء مقبول ولا يحترم أي قاعدة أو نظام ويقود سيّارته من دون رخصة أو من دون بوليصة تأمين، ويطلق الأوامر بدلاً من أن يطلب ما يريده باحترام وهلمّ جرّاً. ينفجر المراهق الملك غضباً إذا لم تلبّوا رغبته في اللحظة التي يعبّر عنها. إنه طفل يزرع الخوف في قلوبكم. طفل ينتهي به الأمر دائماً إلى عضّ اليد التي تطعمه. لن يفعل أي شيء أبداً من دون مقابل، لمجرد إرضائكم. في سن الرشد، يصبح متطرّفاً، فاشياً، انتهازيّاً، وصوليّاً أو استغلالياً، من أولئك الأشخاص الذين يريدون كل شيء من دون أن يعطوا شيئاً وهم لا يساوون شيئاً. لا يحب الطفل الملك أحداً، غير نفسه بالطبع. وسيتخلّى عنكم كخرقة قديمة عندما لن تتمكّنوا، أو لن ترغبوا، بعد ذلك أن تلبّوا نزواته.

اختيار الكلمات

غيّروا طريقة تصرّفكم قبل أن يفوت الأوان. قولوا له إن

الدراجة الجديدة شيء ودفتر علاماته شيء آخر. وإذا كان يريد أن تقدّموا له في يوم من الأيام الدرّاجة التي يحلم بها، فعليه أن يتعلّم القيام بالأشياء من دون أن ينتظر الهدايا على طبق من فضّة. عليه أن يتعلّم كيف يشترك في المباريات من دون أن ينال الميدالية الذهبية في كل مرة.

وسيفهم بسرعة أن الحياة لن تقدّم له دائماً ما يريد. الأطفال المدلّلون يصبحون أفضل زبائن اليانصيب، إذ يستثمرون فيه عدم رضاهم في الحياة حتى الإفلاس وأحياناً حتى الانتحار. والغريب أن الأشخاص المحبّين الرضيين لا يلعبون أبداً بهذه الألعاب. ربما لأنهم لم يكونوا يوماً أطفالاً مدلّلين.

تعلن «إذا» دائماً عن مكافأة أو عقاب للطفل الذي نحاول تحفيزه لتحقيق هدف دراسي. ويشير دائماً استخدام «إذا» إلى العودة إلى نقطة الصفر، كلّما وضعت الطفل أمام خيار المكافأة أو العقاب. «إذا» هي عدوّة تطوّر الوعي عند الطفل؛ إنها طريقة تربوية غير فعّالة على الإطلاق يلجأ إليها جميع الأهل بعد استنفاد جميع الوسائل.

«سواء أحضرت لي دفتر علامات جيّد أم لم تفعل، لن أقدّم لك الدرّاجة على أي حال من الأحوال. حياتك ملكك ومستقبلك أيضاً. سأقدّم لك هذه الدراجة **عندما** (وليس إذا) أرغب في ذلك». إن استخدام «عندما» يغيّر المعطيات ويزيل التلوّث من الرسالة الشرطية. تكفي أشياء قليلة لجعل ولدكم يتحمّل مسؤولياته. إن عبارة «عندما تتكلّم بمنطق يمكننا أن نناقش الأمر مجدّداً» ليس لها نفس قيمة عبارة «إذا تكلّمت بمنطق يمكننا أن نناقش الأمر مجدّداً». تشير الجملة الأولى إلى ضرورة مرور فترة زمنية يمكن تحديدها. أمّا العبارة الثانية فتترك للولد الخيار في ألا يتكلّم بمنطق وتلمّح بشكل

خاص إلى أن الأب، أو الأم، غير مقتنع على الإطلاق بقدرة الولد على أن يتكلّم بمنطق. بالمقابل، تعني الصيغة الأولى ضمنيّاً أن الأب، أو الأم، لديه ثقة بولده وأنه مقتنع بأن هذا الأخير يملك كل ما يلزم لكي يكون منطقياً، وأنه بمرور الوقت، سيغيّر سلوكه لا محالة.

لاحظ

«ألاحظ أنك تتراجع في المدرسة»

هل من الأفضل أن «نلاحظ» أو أن «نجعله يلاحظ» أنه يتراجع؟ الأب (أو الأم) الذي يستخدم الصيغة الثانية هو مربٍّ ناجح وتعليماته واضحة وصريحة أكثر من الأوّل.

الأب الذي يلاحظ هو أكثر أنانية وأقل إصغاءً لولده. أمّا الأب الذي يجعل ابنه يلاحظ أو يلفت نظره أو انتباهه فيواكب تقدّم ولده من دون أن يحمّله آماله ورغباته في ما يتعلّق بالتطور والإنجاز الدراسي. الأب الذي يلاحظ يخلط دائماً بين ماضيه وتطوّر ولده الحاضر.

اختيار الكلمات

نلاحظ دور صفّارات الإنذار عند كل مفترق في الكلام. صفّارة الإنذار تنبّه الولد في الوقت الحاضر وينساها بعد بضع دقائق. ولكن عندما تجعلون ولدكم يلاحظ شيئاً أو تلفتون انتباهه إلى شيء فإنكم تؤثّرون في ذكائه أو ذاكرته أو حسّ النقد لديه لمدّة أطول.

بسيط، بسيطة، بساطة

«ليس الأمر بهذه البساطة يا حبيبي!»

أي، بكلام آخر: «لن تنجح من دون مساعدتي، أنا حبل خلاصك».

ولكن هل الأمر بمثل هذه البساطة بالنسبة إلى الأب (أو الأم) الذي يعيق ولده باستخدام هذا النوع من التحذير؟ يشعر بعض الأهل بالحاجة إلى أن يحسّوا بأن لا غنى عنهم في جميع الأوضاع والظروف. فيرافقون أولادهم ويراقبونهم عن كثب طوال الوقت حتى عمر المراهقة وأحياناً بعد ذلك. إن التدخّل العاطفي الذي يمارسه هؤلاء الأهل هو أمر لا يُحتمل بالنسبة إلى أولادهم لكنّهم لا يتركون لهم خيار الوجود والحياة من دون هذا الرسن الأبوي.

«لا تستطيع أن تخرج من الوضع الذي أنت فيه (انظر ص273) إن لم أقل لك ما الطريقة». جميع استعدادات وميول ولدهم هي ملك لهم، فإنهم يمسكون تلقائياً بمفاتيحها. الأم التي ترافق ابنها أو ابنتها إلى أي اختبار أو مقابلة هي المثال النموذجي «للأم العكّاز»، وهي أم تفرط في حماية ولدها، الذي تعتبره عبقرياً في جميع الظروف. ويهدف تصرّفها إلى جعل ولدها تابعاً لها ومتعلّقاً بها إلى أقصى حد ممكن. وهي بذلك تعيق حتماً قدراته ومؤهّلاته الطبيعية لكي تجعله يشعر أن وجودها ضروري وأساسي. وتخلط الأم كليّاً بين «الأنا» عندها و«الأنا» عند ابنها أو ابنتها. فمن شبه المستحيل في هذه الحالة أن يُقطع الحبل السرّي العاطفي. إذا ابتعد عنها ولدها لأسباب دراسية أو مهنية، ستجد طريقة لإبقاء التواصل مستمراً بينهما

فتتصل به بالهاتف مرّات عدّة في اليوم لتجعله يخبرها بأدق تفاصيل يومه. صيغتها المفضّلة هي التالية: «الحياة صعبة، الحياة نضال دائم». ما يعني ضمنيّاً أن دعمها أو وجودها أساسي لحماية ولدها من المخاطر التي تتهدّده: «أنا الأم التي تضمّد الجراح وتكفكف الدموع». ويدّعي بعض الأهل الذين يعيقون نمو أولادهم والذين يشعرون بالسأم من هذه الحياة أن الحياة أكلة مقيتة نأكل منها لقمة كل يوم. وعلى رغم المرارة التي يظهرونها فإنهم لا يتحمّلون فكرة رؤية عصفورهم يطير مبتعداً عن العش الذي تربّى فيه.

«أين تذهب، مع من، لماذا؟». عندما تتركّز جميع المخاوف على ولد واحد، تصبح التربية أشبه بتدخل سافر في كل شؤون الولد.

اختيار الكلمات

إذا كنتم من الراشدين الذين أعاقهم أب عكّاز أو أم عكّاز، فالمخرج الوحيد أمامكم هو إقفال الباب بالمفتاح. يجب قطع العلاقات وعدم الاتصال بالأهل لوقت طويل نوعاً ما. يسمح الغياب بقطع الحبل السرّي العاطفي وبإعادة بناء الذات. إذا كان لديكم أولاد، احرصوا على عدم تكرار تصرّف أمكم أو أبيكم بترداد نفس الجمل المثبطة للهمّة المضعِفة للمعنويات في ما يتعلّق بالحياة. عندما يصعب علينا احتمال حياتنا فنعيشها بكدر ومشقّة، نزيد الحياة تعقيداً وصعوبة.

وإلّا

«البس وشاحك وإلاّ أُصبت بزكام خانق»

إن الأب (أو الأم) الذي يفرط في استخدام «وإلاّ» هو شخص يرى العالم بالأبيض والأسود من دون أي درجة رمادية. تسيطر عليه فكرة متسلّطة ويمارس القمع ويفرط في حماسته، هو متعصّب ضيّق التفكير وحقود ميّال إلى الانتقام ويدّعي أخيراً معرفة كل شيء. هو دائماً على حق. «ستأكلّ كل ما في الصحن وإلاّ فلا تحلية اليوم». لا يجرؤ الطفل أن يقول لأمه إن الخضار لا طعم لها وإن اللحم يكاد لا يُبلع، فيبلع ما في صحنه وهو يسدّ أنفه ذهنياً. الأم مستبدّة وليس لدى الطفل كملاذ أخير سوى تحويل كل مشاعره السلبية إلى أمراض جسدية.

إن الأهل الذين يفرطون في استخدام «وإلاّ» لديهم دائماً أولاد مرضى. ونجدهم بانتظام في طوارئ المستشفيات، خصوصاً عشية عطلة نهاية الأسبوع بدلاً من أيام الأسبوع العادية. أولادهم غير مندمجين بشكل جيّد في المجتمع ويعانون غالباً من صعوبات في متابعة الدروس لأنهم يتغيّبون كثيراً عن المدرسة بسبب المرض. عندما يكبر الولد الذي واجه طوال طفولته كلمة «وإلاّ» يُصاب بوسواس المرض ويخضع لعملية جراحية تلو الأخرى. سيكلّف هذا المريض الدائم الضمان الصحي مبالغ طائلة لكنه لا يبالي بالأمر لأن الذنب ليس ذنبه: هو ضحية أم مهووسة أو أب قامع مستبد.

اختيار الكلمات

قد لا تكونين أمّاً تفرط في استخدام «وإلاّ»، ولكنّك قد

تلجأين أحياناً إلى هذا الحرف المشؤوم لتربية ابنك الحبيب. تجنّبي إرفاق أوامرك، مثل «البس وشاحك» بتبرير يأتي على شكل تهديد واستخدام هذه الكلمة التي لا حاجة لها! قولي له بدلاً من ذلك: «أريدك أن تلبس وشاحك» وبصوت متوعّد إذا رفض ذلك ولكن لا تلجأي أبداً إلى «وإلاّ»، وهو حرف الأم التي ترى العالم بالأسود والأبيض دون غيرهما من الألوان.

خرج من الوضع الذي هو فيه

«يجب أن يخرج (أو يتخلّص) من هذا الوضع»

قرّر والد ماتيو استشارة طبيب نفسي لإيجاد حل لسلوك ابنه غير الناضج. وهذا الأخير كسول وطفولي في تصرّفه ويرفض تخصيص الوقت اللازم لإنجاز فروضه المدرسية. بالمقابل، يجد الوقت لقضاء ساعات أمام شاشة التلفزيون يلعب بألعاب الفيديو. وهو يعيد هذه السنة صف الرابع متوسط.

- يجب أن يخرج من هذا الوضع!

- لا يكفي أن نقول ذلك، ولكن يجب أن تقبل أمه بإخراجه من رحمها، ردّ المحلّل النفسي متأمّلاً.

- ولكن، حضرة الطبيب! أحدّثك عن ابني الشاب، أجاب الوالد وقد أذهله رد الطبيب، لقد ولدته أمّه منذ خمس عشرة سنة.

- هذا ما تعتقده يا صديقي. في الحقيقة، لم يدخل ابنك الشاب بعد الحياة الحقّة. لقد تدبّرت زوجتك الأمر دائماً لكي يبقى رمزياً في بطنها.

ترفض بعض الأمهات (سرّاً) قبول حقيقة الطفل الذي أنجبنه. ففي أعماق أنفسهنّ يبقى ولدهن محبوساً في رحمهن الواقي الحامي. «طالما هو بداخلي، فلن يتعرّض إلى أي خطر». ويأخذ الآباء أحياناً دور هؤلاء الأمّهات السجّانات فيستخدمون عبارة «خرج من الوضع» كما لو كانت عبارة سحرية، كل مرّة تكلّموا فيها عن الصعوبات الدراسية أو الحياتية التي يواجهها أولادهم.

الحبس العاطفي

إن الاستخدام المفرط والمتكرّر لعبارة «خرج من الوضع» إشارة واضحة إلى الحبس العاطفي الذي يفرضه الوالدان أو أحدهما

على الولد. صعوبة في الاعتماد على الذات، عدم قدرة الولد على تحمّل مسؤولية نفسه، البحث عن سلطة وصاية لدى أي شخص يملك ذرة من السلطة، الالتحاق بالجماعات المتعصّبة، الخ، كلّها مشاكل يعاني منها الأطفال الذين لا ينجحون في الخروج من الوضع والذين يصبحون في ما بعد ضحايا المجتمع. تساءل أحد الآباء عبر شاشة التلفزيون: «لست أفهم كيف استطاعت ابنتي الانخراط في هذه البدعة». ثم أضاف: «مع أنها كانت قد خرجت من وضعها بفضل عملها وكانت تكسب معيشتها». إنه أب سجّان ربّى ابنته وحده بعدما تركته زوجته عندما كانت الفتاة لا تزال صغيرة. لقد لعب دور المرشد الروحي مع ابنته ليحميها بشكل أفضل من مخاطر الحياة. وكل ما فعلته هو أنها غيّرت البدعة التي تنتمي إليها.

اختيار الكلمات

إنكم تستخدمون هذه العبارة منذ وقت طويل أليس كذلك؟ لم يفت الأوان بعد، ولكن يجب أن تقبلوا بمراجعة تصرّفاتكم. إن إصغاءكم إلى أنفسكم وأنتم تتكلّمون ليس اضطراباً في الشخصية، مهما يكن رأيكم في الموضوع. بل إنها وسيلة ممتازة لاكتساب طريقة كلام جذّابة سيقدّرها أولادكم كثيراً. سيقولون لكم إنكم مختلفون وأكثر قدرة على الحوار وأكثر روعة «Cool». في كل مرّة تهم عبارة «يخرج من الوضع» بالخروج من فمكم، تخيّلوا أنكم تسحقونها بغضب تحت نعالكم مثل بقّة قذرة. تخيّلوا العملية بالصور كما لو كانت حقيقية لا افتراضية. أخرجوا عبارة «يخرج من. . .» من حياتكم فتدخلوا الحياة الحقيقية، ما يجلب السعادة والراحة لأولادكم. لا يجب أن يخرج ولدكم من الوضع بل عليه إطلاق وتحرير استعداداته ومواهبه وإمكاناته وذلك عبر «الخروج أولاً من رحم أمه».

أتصوّر

«أتصوّر أنك لم تحقّق أي تحسّن في نتائجك...»

الأهل المتهكّمون يتصوّرون دائماً. قد يبدو لكم الهزء بطفلكم طريقة تصرّف مبرّرة عندما تستنفدون الحلول لتجعلوه يهتم بمستقبله الدراسي.

إنها الوسيلة الفضلى لتثبيط همّته وجعله ينفر تماماً من الدراسة. الأولاد، وخصوصاً المراهقون، حسّاسون وسريعو التأثر، لا سيّما عندما يجدون صعوبة في التأقلم وتحقيق الأهداف. لا تخلطوا بين السخرية والمزاح!

اختيار الكلمات

احتفظوا بتصوّراتكم لأنفسكم وحاولوا مساعدته على رؤية الأمور بوضوح بأن تقترحوا عليه، بدلاً من المساعدة، أن تضعوا أنفسكم في تصرّفه وتخصّصوا له الوقت الكافي، وهو أمر لم تفعلوه منذ، منذ... متى؟ الأشخاص الذين «يتصوّرون» لا يقومون بخطوات إيجابية وفعالة نحو الحلّ، ولا يكونون عادة من النوع الذي يخصّص وقتاً لأولاده. احتفظوا بالفعل «أتصوّر» لعلاقاتكم المهنية ولكن حظّروا استخدامه على أنفسكم في وجود ولدكم. فتقدّمون بذلك خدمة كبيرة لأنفسكم. مَن كان ليفكّر بذلك؟ فعل بهذه البراءة! براءة الكلمات مجرّد مظهر والمظاهر غشاشة، مثلما تعلمون.

مهم، أهم (ولكن... المهم)

«تسلَّ جيداً يا حبيبي، خذ كل وقتك، ولكن من المهم ألاّ تعود في وقت متأخر جداً!»

الضغط المزدوج

يواجه الطفل الذي يتلقّى الرسالة خيارين متعارضين أو خيارين ينفي أحدهما الآخر، فيأتي رد فعله في الكثير من الأحيان عنيفاً عنف تخبّط سمكة علقت في شبكة صيّاد. ولا يفهم الأب، أو الأم، الذي يمارس هذا الضغط المزدوج سبب ردّ الفعل هذا. «طلبت منه ألاّ يعود في وقت متأخّر جداً لكنني سمحت له مع ذلك بأخذ وقته. ولا أفهم لماذا يحتجّ هكذا». إن تناقض هذا الكلام يعكس توقّع الأهل لحصول اعتراض وتحضير الردّ عليه مسبقاً.

«أن نكون أو لا نكون»

يهدف الأب، أو الأم، الذي يستخدم الضغط المزدوج، بشكل واع أو عن غير قصد، إلى وضع ولده في موقف فشل. يقدّم له خيارات هشّة غير ثابتة لكي يضطر الولد للرجوع إلى أبيه وينتظر منه الحل للمعضلة التي يعيشها. «أن نكون أو لا نكون»، تلك هي المسألة التي سبق لشكسبير أن طرحها ووضع هذه الجملة الشهيرة على لسان هاملت، الذي كان أسير ضغط مزدوج. «إذا كنت موجوداً، فإن أمي لم تعد تنفعني بشيء. وإن لم أكن موجوداً، فإني بحاجة إليها لتنقذني من أخطار الحياة».

ليس للطفل الذي يقع ضحية ضغط مزدوج من قِبل أمّه أي

وجود إلاّ من خلال نزوات أم تخرّب كل مبادرة أو استقلالية عند ولدها. ويهدف هذا الضغط المزدوج إلى خلق شعور بعدم الأمان عند الطفل لتثبت له أن لا خلاص خارج الشرنقة التي نسجتها أمّه حوله.

اختيار الكلمات

«تسلَّ جيداً ولا تُحدث الكثير من الجلبة عند عودتك» هي أفضل من «خذ وقتك ولكن لا تعد في وقت متأخّر جداً». كونوا متنبّهين لتناقضاتكم الكلامية عندما تتكلّمون مع ابنكم المراهق. ومن السهل جداً كشف هذه التناقضات إذ يسبق دائماً حرف الاستدراك «لكن» عبارة الضغط المزدوج. من الأمثلة البسيطة على ذلك: «أقبل بأن تخرج للعب في الحديقة لكنني أخشى أن يبدأ المطر بالهطول».

قد يبدو لكم ذلك غير مهمّ لكنّه في الواقع مهمّ جداً. إذا قبلتم بأن يخرج للعب في الحديقة، افرضوا عليه أن يلبس معطفه الواقي تحسّباً لهطول المطر ولكن لا تقولوا له ضمنياً إن المطر سيفسد رغبته في اللعب قبل أن يحدث ذلك طبيعيّاً.

إليكم مثل آخر كثير الحدوث: «حسناً، أقبل بالذهاب للتسوق ولكن عليّ إنهاء هذا العمل قبل الليل» (الأمر الذي يمنعني من الذهاب للتسوق). المعضلة القائمة هي التالية: إذا خرجت للتسوق، سيكون الليل قد حلّ عندما أعود إلى البيت ولن أكون قد أنجزت هذا العمل. التناقض هنا كلامي. لماذا تقبلون بالكلام أن تذهبوا للتسوق إذا كنتم ستعلنون أن هذا الأمر سيمنعكم من إكمال عملكم؟ تبيّن هذه الجملة ضغطاً مزدوجاً وليس استعداداً طيّباً يمنعكم واجب معيّن من القيام به. «أقبل أن أفعل كذا. . . ولكن لا أستطيع» هي

العبارة المفضّلة لدى الأشخاص الذين يتعاملون يوميّاً مع الضغوط المزدوجة أو يفرضونها على من حولهم. إذا كنتم تريدون أن تتمرّنوا لاحظوا فقط استخدام حرف «لكن» في المناقشات والمناظرات على التلفزيون. وستكتشفون أن المخرّبين يملأون الشوارع أو بالأحرى مسارح التلفزيونات، ولا فرق بين المكانين في أغلب الأحيان.

عَمِلَ، اشْتَغَلَ

«اعمَل جيّداً في المدرسة»

– غداً أوّل يوم دراسة، يجب أن تكوني جميلة للذهاب إلى المدرسة!

– ماما، أنا خائفة من الرجوع إلى المدرسة!

– ليس من سبب يجعلك تخافين، اعملي جيّداً في المدرسة وسيسير كل شيء على ما يُرام!

– إني خائفة من المعلّمة، أخاف أن أكون فاشلة في الصف!

عندما تعبّر فتاة صغيرة عن خوفها بهذه الطريقة فهذا يعني أن لديها مشكلة تتعلّق بصورتها عن نفسها أو باحترامها لذاتها، والأمران سيّان. إنه الخوف من عدم إرضاء الشخص الذي يمتلك السلطة. وترى الأخصائية التربوية والنفسية كريستيان أوليفييه في هذا الموضوع أنه «بعد الجمال، سيُطلب من الفتاة أن تكون لطيفة، أي أن تعرف كيف تتخلّى عن رغباتها الخاصة. يُطلب من الفتاة الطاعة أكثر من الفتى. لماذا؟ بسبب المعتقدات الاجتماعية القديمة المقولبة التي تفرض على المرأة اللطف والخضوع [...] افتحوا صفحة إعلانات الزواج في المجلات الاجتماعية والصحف وانظروا كيف يُصاغ حلم الرجل المعتاد: امرأة رقيقة، مُحبَّة، ذكية أو مثقّفة بعض الشيء وربّة منزل ممتازة... إنها العبودية على شكل زواج». إنها امرأة تخشى ألاّ ترضي سيّدها. يحتاج الطفل الذي يخاف، أن يعطي الشخص الراشد أو الطبيب النفسي اسماً أو سبباً لهذا الخوف لكي يطرده. ماذا يخيفك؟ و«ماذا» هنا ليست أداة استفهام ولكن واقعاً يجب تحديده لكي يتخلّص الطفل من الخوف ويهزمه!

«أخاف أن أعيش وأتصرّف على سجيتي» قد يكون هذا هو جواب ال«ماذا».

اختيار الكلمات

ما هي كلمات الوالدين الخاصة التي تجعل الطفل يخاف؟ «يجب أن تكوني جميلة لتذهبي إلى المدرسة! اصغي جيداً لما تقوله المعلّمة! انتبهي للأجوبة التي تعطينها للمعلّمة! اعمَلي جيداً في المدرسة! أحضري لي علامات جيّدة!» هذا الخوف تغذّيه الأم التي تُلبس ابنتها كعارضة أزياء للذهاب إلى المدرسة. يجب أن تكون ابنتها كاملة منزَّهة عن أي خطأ أو عيب لترضي المعلّمة الكليّة القدرة. يجب أن يلمع ابنها في بدلة العيد التي من الضروري أن يرتديها في أول يوم دراسي. إن شعور الفتاة بعدم قيمتها هو نفس الشعور الذي ينتاب الأم عند مقارنة نفسها بالأمهات الأخريات الحاضرات. «أنا أيضاً أخاف من المعلّمة خصوصاً إذا كان لديها شاربان وقبّعة شرطي على رأسها». خفّفوا من جدّية الموقف باستخدام الفكاهة.

الكلمة أقوى من حدّ السيف

أنت

«أنت لا يمكنك أن تلمس...!»

ليس لهذه الجملة نفس وقع عبارة «لا أريدك أن تلمس. . . ». قد يبدو الفرق تافهاً، لكنّ الصراع ليس أبداً تافهاً. فلنعد إلى عبارة «أنت لا يمكنك» المستخدمة في صيغة المخاطب المفرد. إنها تعبير عن حظر يخرقه الطفل تلقائياً. يتوجّه الأمر إلى الطفل (أنت) ويحملّه وحده مسؤولية خرق الحظر ولا يُظهر المتكلّم (أي أنتم) نفسه بوضوح. حتى وإن ردّدتم اللازمة نفسها ألف مرّة ومرّة، سيستمر الطفل في خرق الممنوع. هل هو بحاجة إلى وضع درجة سلطتكم تحت الاختبار؟ هذا ما يعتقده بعض الاختصاصيين في مرحلة الطفولة. أمّا في ما يخصّني فأعتبر أن المشكلة قائمة أيضاً على مستوى دلالة الرسالة الموجَّهة للطفل وليس فقط في حاجته لإثارة حفيظتكم. عند استخدام الجملة الثانية، يبقى الحظر طبعاً لكنه يتمثّل بـ«أنا»، أي بسلطة الذي يحظّر أو يمنع. في الجملة الأولى، يوضع الطفل في مواجهة نفسه: «لا يمكنك»، وفي مواجهة الحظر الذي أعلنه الأب (أو الأم) الذي لا يكشف عن نفسه، بل يختبئ وراء الرسالة. من الضروري بالنسبة إلى الطفل أن يقبل الأب (أو الأم) تحمّل مسؤولية كلامه، بتحديده مصدر الرسالة. حتى وإن لم يكن الطفل أعمى أو أصم، إنه يعرف تماماً أنكم أنتم مصدر الأمر، لكنّ رفضكم تحمّل مسؤولية ما تطلبونه يخلق عنده مشكلة.

إن إضافة «لا أريد أن. . . » هو تأكيد على الهوية الذاتية يحتاجه الطفل ليتعلّم كيف يطيع الأمر الموجَّه له. إن الأب (أو الأم)

الذي يكشف عن هويته يؤكّد ذاته ويعلّم طفله معنى هذه السلطة الطبيعية، معنى توكيد الذات. إننا بحاجة جميعنا إلى أن نمتلك نفوذاً يبعث على الاحترام والثقة (أي أن نتمتع بالمصداقية) لا أن نفرض سلطتنا. أؤكّد نفسي إذن أنا موجود. عبر تحديد مصدر الرسالة، أتحمّل مسؤولية التوكيد. لا يمكن أن تحصل التربية من دون أن يتمثّل الطفل بوالديه. وإذا اختبأ الوالدان وراء ممنوعات ومحظورات من دون أن يحدّدا هوية مَن يُصدر المنع، يحذو الطفل حذوهما ولا يؤكد مصداقيته عندما يصبح راشداً. فيتكلّم بصيغة المجهول بدلاً من استخدام ضمير المتكلّم «أنا».

باستخدامكم صيغة «لا يمكنك» تضعون الطفل أمام مسؤولية تتجاوزه. ماذا يمكنه أن يفعل بهذه المسؤولية؟ أيحترمها أم يجعّدها ويمزّقها كالأوراق التي يخربش عليها؟ ماذا تفعلون لو كنتم مكانه، أمام حظر هبط عليكم من السماء؟ الحظر الذي تفرضونه عليه هو أشبه بصحن طائر من خارج هذا العالم. إن طفلكم قادر بالطبع على لمس كل شيء! لديه القدرات الحركية والعقلية لذلك. ولقد أثبت لكم ذلك مرّة تلو مرّة. أمّا أنتم فلم تفهموا بعد، إذ إنكم تكرّرون دون ملل: «لا يمكنك أن تلمس!».

إنه يحسّ بالأمر الذي توجهونه له كتشكيك في قدراته. وها هو يحاول للمرّة الألف أن يثبت لكم العكس: «يمكنه أن...».

مَن المسؤول

تريدون أن تفرضوا عليه حظراً، لكنّكم بصياغتكم التحذير بهذه الطريقة، لن تمنعوا طفلكم من خرق الحظر: إنه يجهل مصدر هذا الحظر. مَن الذي لا يريد أن يلمس الطفل ما يوجد على طاولة

المكتب؟ أنتم؟ إذن، قولوا له ذلك بوضوح. عندئذ، يعلم الطفل إلى مَن ينسب هذا المنع فلا يكون في مواجهة ذاته وفي مواجهة مسؤولية تتجاوز قدراته. ولكن ماذا يغيّر هذا؟ يغيّر هذا الكثير من الأمور في شبكة الوصلات العصبية المنطقية الممتدّة في قشرة الدماغ السطحية الشديدة التعقيد. يجب أن يتعرّف الطفل إلى هوية المنع ومصدره لكي يطيعه أو يخرقه. مَن قال إنه لا يمكن؟ إذا أطعت الأمر، ماذا يحدث لي؟ وإذا عصيته ماذا يحدث؟ إن لم يُحدَّد مصدر المنع، فمفهوم المنع لا يعود قائماً لأنه لا يصدر عن شخص محدَّد. «أنا» ضمير سحري بالنسبة إلى طفل في هذه السن. إنه يكتشف «الأنا» عنده وأيضاً هويّته الشخصية المغايرة تماماً لشخصية أمه وأبيه والمتميِّزة عنهما. «لا يمكنك أن تلمس كذا» تستجلب تلقائيّاً ردّاً حسيّاً حركيّاً من قِبل الطفل: «بالطبع يمكنني لمس كذا بما أنه في متناول يدي، وتحت سلطتي». أمّا «لا أريدك أن تلمس كذا» فيفهمه الطفل بشكل مختلف. يمكنه لمس كذا لكنّ «الأنا» الآخر، «أنا» الأب (أو الأم)، قال إن ذلك ممنوع.

اختيار الكلمات

يقول الأهل الذين يمتلكون الخبرة: «هذا طبيعي في هذه السن! إن ابنكم يضع سلطتكم تحت الاختبار، هذا كل شيء!». يستحقّ هذا الرأي أن ندقّق فيه بعض الشيء. يريد الطفل أن يدفعكم بقوّة، أن يستثيركم لا لوضع «سلطتكم» تحت الاختبار بل لوضعكم أنتم شخصياً تحت الاختبار فهو يسعى إلى تمييز الرجل أو المرأة فيكم عن البابا أو الماما. يحاول الطفل أن يحدّد هوية الشخص الذي يتمتّع بالسلطة الأبوية لكي يعرف مَن عليه أن يطيع.

اشرحوا له الأسباب التي تبرّر المنع: «لا أريدك أن تلمس

الأشياء التي على طاولة المكتب لأن. . .». إن مساعدة الطفل على فهم سبب المنع هي إحدى الطرق التي تسمح بتوسيع حدود التسامح، وتسمح أيضاً بنقل صورة أب (أو أم) يوفّر له الرعاية والأمان. عندما تمتنعون عن التعامل مع أطفالكم بفوقية تبقيهم صغاراً لا يفهمون شيئاً، كأن تقولوا مثلاً: «لماذا؟ هكذا، من دون سبب»، توقظون آليات الفهم عندهم وانفتاح ذهنهم، وتمنحونهم استقلالية حتى لو كانوا بعد صغار السنّ. لن يطيعوكم بالضرورة في المرّة الأولى. لكنّهم سيشكّلون عنكم صورة قوية ومتماسكة، صورة أب (أو أم) مسؤول يتحمّل مسؤولية سلطته في إعطاء الإذن أو الرفض لأنه يخرج من الخفاء ولا يعود مجهولاً. سيحترم طفلكم ال«أنا» الخاصة بكم، أي يحترمكم أنتم وسلطتكم، لأن الـ «أنا» الخاصة بكم جديرة بالثقة بالنسبة إليه. تساهم هذه المصداقية في بناء الطفل صورة جيدة عن نفسه وتعزّز ثقته بنفسه. إنه يعلم أنه شخص مختلف عن صاحب الأمر، «أنا» المتكلّم.

أما إذا استمرّيتم في تحميله مسؤولية عمله، مع الامتناع عن قول: «لا أريدك أن تلمس كذا لأن. . .»، فإنكم تمنعون طفلكم من تمييز الفرق بين «الأنا» الخاصة به و«الأنا» الخاصة بكم. وسيقول لرفاقه في المدرسة، مكرّراً ما تعلّمه منكم: «لا يمكنك أن تأخذ أغراضي!» فيجيبه رفيقه: «سترى إذا كنت لا أستطيع أخذها. أنت لست قادراً حتى على الاقتراب لأخذها!». هكذا تظهر قلّة ثقته بنفسه التي لقّنتموه إياها من غير قصد، وسيتطاول الجميع عليه وسيعاني من نبذ المجموعة له. ولأنه منزوٍ أكثر من اللازم ولا يفرض نفسه، ولأنه غير قادر على التعبير عن مطالبه، يفقد أي مصداقية في نظر رفاقه؛ تماماً كما لم يكن لديكم أي مصداقية في نظره.

ستصبح

«ستصبح طبيباً مثل أبيك»

تشرح ناتالي إيزوريه، وهي عالمة نفسية متخصّصة بالأطفال، فتقول: «نحن في مجتمع المهم فيه هو الأداء والنجاح الاجتماعي، في مجتمع انقلبت فيه القيم».

لا أحد يسألكم أبداً مَن أنتم ولكن ماذا تعملون. يتركّز الاهتمام على الدراسة وعلى الأنشطة خارج إطار المدرسة التي تساعد على النمو والتقدّم، كما لو أن الحياة تتلخّص بمعركة نخسرها أو نربحها مسبقاً.

يهوى ستيفان الكومبيوتر منذ ان بدأ يتكلّم. ولم يتعلّق قط بألعاب الفيديو مثل العديد من ابناء جيله، فهو عاشق للتكنولوجيا. وما يسحره هو هندسة المعلوماتية، ويريد أن يجعل منها مهنته في المستقبل ويصبح مهندساً. ويسبّب هذا الولع الشديد بالكمبيوتر خلافات مع والديه اللذين يحلمان بأن يرياه طبيباً.

- ستيفان، يمكن أن تظلّ المعلوماتية هواية وشغفاً. عليك أن تختار مهنة لها أهمية وثقل كبيران، مهنة تكون على مستوى إمكانياتك. ستكون طبيباً مثل والدك! لطالما قلت لك ذلك. تتمتّع بجميع المزايا المطلوبة. ولدى أبيك جميع العلاقات اللازمة والكافية لكي تنجح في هذا الوسط.

- ماما، لقد ناقشنا الموضوع بما فيه الكفاية وليس لدي نية في تغيير رايي. لا أريد أن أصبح طبيباً!.

عندئذٍ أضاف والده قائلاً: «ستيفان، لا شك أن فهم طريقة عمل دماغ الإنسان مثير للاهتمام أكثر من عمل الكمبيوتر! أليس إنقاذ حياة الناس أنبل رسالة يمكن أن يؤدّيها المرء؟»

– قلت لي هذا أكثر مئة مرّة، بابا! إني أحترم موقفك كليّاً، احترم موقفي ولو لمرّة! لست مستنسخاً منك. ليس لدي الرغبة في اتخاذ مهنة لا تهمّني! كل هذا لأني ابنك ولأنك عندما تقول «إني طبيب» فذلك يوحي بالاحترام. هذه ليست دعوتي. لقد سمحت لي برؤية هذه المهنة بشكل أوضح عندما فرضت علي مرافقتك منذ... لم أعد أعرف كم من الوقت. في النهاية، أشكرك على ذلك. فأنا أعرف تماماً ما الذي أريده وما الذي لا أريده.

لفترة طويلة، وفي عطل نهاية الأسبوع والعطل المدرسية، تبع ستيفان، مرغَماً مُكرَهاً، والده إلى المستشفى حيث يعمل. وما زال الوالد يأمل في التوصّل إلى إقناع ابنه. وفي كل مرّة يأخذه معه إلى المستشفى يهمس له في أذنه: «أحضرك معي لكي تتعلّق بهذه المهنة الرائعة». دفع عناد الوالدين ستيفان إلى الالتحاق رسمياً بكلية الطب لكي يتركاه وشأنه. لكنّه تابع في الواقع دروساً في هندسة الكمبيوتر. وبما أن جامعته تبعد عن مدينته بضع مئات الكيلومترات، فأمامه السنة الأولى بطولها ليضع رغبته تحت الاختبار قبل أن يعلن قراره «الذي لا رجوع عنه» لوالديه.

العين لا تقاوم المخرز

إن شخصية ستيفان القوية قد سمحت له بحماية شغفه بالكمبيوتر من غسل الدماغ الذي مارسه عليه والداه. ولقد أكّد إلحاح والديه الضاغط رغبته بأن يصبح مهندس كومبيوتر وثبّت تلك الرغبة. ولكن هل سيكون مهندساً سعيداً؟ ليس فوراً على الأرجح! لأن رفض التمثّل المهني القسري الذي فرضه عليه والده سيكلّفه غالياً. سيضطر إلى بناء مهنة له من دون نقاط مرجعية مريحة كان والده ليعطيه إياها لو أنه التحق بمهنة الطب. اختار ستيفان اتجاهاً آخر، وسيكون عليه أن يدفع الثمن.

ولكن لنعد إلى دوافع الوالدين! ما يبدو في صف الأولويات بالنسبة إلى الأب (أو الأم) الذي يسعى إلى استمراريته الذاتية في حياة ولده الدراسية والمهنية، هو أن نجاح الولد يجب أن يكون قبل كل شيء مكافأة للأب الذي يضطلع بدوره كأب مثالي نجح في حياته المهنية. ليس تحقيق الولد لذاته وانفتاحه هما الهدف الأولوي الذي يسعى إليه الأب من خلال التربية التي يقدّمها له، ولكن ما يسعى إليه هو استمرار التقاليد العائلية. الأب هو الذي يجب أن يتلقّى التهنئة لنجاحه في تأمين الاستمرارية. وبما أن الخيار لم يُترك للأب في اختيار مهنته، فلماذا يحق لابنه تذوّق هذه الحرية التي حُرم والده منها، وكان ذلك على كل حال لمصلحته؟ لا يعرف الشباب دائماً ما يناسبهم كمهنة، ثم إن الطب هو كمحل تجاري سيضيع من أيدي العائلة إذا لم يستلمه ابنه من بعده.

القبائل المهنية

هل يقوم دور الأب (أو الأم) على احترام رغبات ولده أو على توجيهه في اختيار مستقبل مهني وفقاً لتمنّياته؟ تمنّيات مَن؟ الأب أم الولد؟ ليست الأمور بمثل هذه البساطة في العائلات حيث التقليد المهني القديم والمتجذّر، مثل قبائل الأطباء وكتّاب العدل أو المحامين أو الصناعيين. يُلقى على كاهل الابن البكر العبء الوراثي، سواء أراد ذلك أم لم يرده. وليس من الضروري إعلان ذلك بصوت عال لكي يفهم الولد منذ نعومة أظفاره أن مستقبله المهني قد تمّ تحديده مسبقاً فهو ولي العهد، وريث التاج العائلي. لا ينتظر مثل هؤلاء الأهل أي نصائح حكيمة يقدّمها لهم كتاب مثل هذا. يأتي الابن البكر، أو الابنة البكر، إلى العالم وقد برمج له والداه مصيره مسبقاً. فالمهنة ملائمة له منذ الولادة. ليس من أدنى

شك أن ابن هذا الصيدلي سيصبح بدوره دكتوراً في الصيدلة؛ أو أن ابنة هذه المحلّلة النفسية الشهيرة سترث عيادة أمّها وستكمل عملها في مجال التأليف بطريقة ما؛ أو أن أبناء هذا المصمّم والمصنّع الشهير في مجال النظّارات سوف يحلّون مكانه بعد تقاعده المتأخّر. بانتظار أن يديروا شركة العائلة، يتمرّنون بإطلاق موديلات نظارات لا تُطاق. إنهم يلعبون بالتمثّل بالبابا. ولماذا يكون الأمر غير ذلك؟ هل نحن أحرار في العيش كما يحلو لنا؟ مَن اختار أن يولد في عائلة المقاولين هذه بدلاً من عائلة الفنانين في الشقّة المقابلة؟ الوراثة أشبه باليانصيب، لعبة صدفة وحظ لا يمكن فيها لأحد أن يتوقّع الصفات الجينية المسيطرة.

نسخة طبق الأصل

إن الأب (أو الأم) الذي يريد بكل قوّته أن يصبح ولده استمراراً له، نسخة طبق الأصل عنه، هو أب لم يقطع بعد الحبل السرّي الذي يربطه بولده، ولن يقطعه أبداً على الأرجح. يجب أن يبقى الولد فلذة من كبده إلى أبد الآبدين. والرسالة من نوع: «ستكون طبيباً كأبيك!» تكشف عن أم (أو عن أب) رجعية «مهووسة» تفرض رأيها بالإكراه، تخصي ولدها وتحطّم نفسيته وليس لدى الولد أي إمكانية أو أي حق في أن يكون على طبيعته. بالمقابل، يُفرض عليه أن يكون نسخة طبق الأصل عن والده (أو والدته) وعن أجداده من قبله. هذه الرسالة المنحرفة المفسِدة هي شكل من أشكال الابتزاز الذي يمكن صياغته كالتالي: «لكي نستطيع أن نحبّك، يجب أن تشبهنا... إذا لم تكن على صورتنا سنحبّك أقل أو نتوقّف عن حبّك». يخبّئ أيضاً هذا الابتزاز الضمني رغبة قويّة لدى الوالد (أو الوالدة) في أن يتمكّن من الاستمرار في الحياة من خلال ولده. ليس

هذا الضغط، أو هذا الإكراه، مختلفاً جداً عن الضغط الذي يجبر الرجل التقليدي على الزواج بفتاة من عائلته وإلاّ أُقصي عن العائلة. إن فكرة «الدم النقي» أو «السلالة النقية» ما زالت قائمة في مجتمعاتنا وهي ستستمرّ بعد لسنوات طويلة ولم يكن العرق الآري الذي حلم به هتلر سوى أحد أشكال تحسين النسل.

ماذا يحدث للولد الذي يخضع لمشيئة والديه؟

ماذا يحدث إذا انصاع الولد، بعكس ستيفان، لرغبة أهله وتبنّى مهنة والده؟ في هذه الحالة، يبقيه والداه طفلاً لأطول وقت ممكن كما لو أنهما ما زالا يبحثان عن سبيل أخير ليمنعاه من أن يكبر، ويعطيانه الشكل الذي يريدانه كما لو كان دمية من الشمع. ويصبح الولد أحياناً شخصاً مثيراً للسخرية لا يمكن الوثوق به، ميّالاً إلى الشجار، مدّعياً متبجّحاً وخدّاعاً مكّاراً. ويُضعف أيضاً هذان الوالدان قدرة ولدهما على اتخاذ القرارات ويعيقان قدرته على الاستقلال. وبما أنهما يرسمان له مستقبله فإنهما يقضيان بالتالي على حسّه النضالي الكفاحي. فلماذا يضطر الولد إلى مواجهة الحياة إذا كان الطريق قد رُسم مسبقاً؟ لا يحتاج إلى مراجعة أفكاره وقراراته. فالأهل الذين فرضوا عليه «أن يصبح. . . كأبيه» قد خلقوا منه رجلاً آليّاً، كائناً لا طعم ولا رائحة له من الناحية الاجتماعية. وحتى إن أصبح طبيباً في نهاية الأمر، فلن يلمع في مهنته حيث لن يلفت انتباه أحد على الأرجح، إلى أن يتمرّد، متأخّراً، على أوامر أبيه. يتزايد عدد أبناء هذه العائلات، من محامين وأطباء ومهندسين وغيرهم، الذين يراجعون قراراتهم ووضعهم في منتصف حياتهم ويعودون إلى مقاعد الجامعة أو ينطلقون في نشاط يدوي أو بيئي. إنهم يتخلّون عن أماني وأحلام أهلهم ويخلعون عنهم الثوب الذي ألبسوهم إياه،

ويتمرّدون كمراهقين متأخّرين يعيدون صياغة العالم. يقول المثل الفرنسي: «الأفضل أن تصل متأخّراً من أن ألاّ تصل أبداً».

اختيار الكلمات

مصير ولدكم المهني والحياتي مكتوب في مسودّة، فلا تكتبوا مكانه النسخة المصححة! حياته ملك له وحده، حتى وإن كان ذلك يزعجكم. ليس نسخة طبق الأصل عنكم ولن يصبح كذلك يوماً مهما فعلتم. إذا قرّر، بملء إرادته، أن يشبهكم، لا تسهّلوا عليه المهمة، فهو بحاجة إلى تلقين وتدريب لا إلى أن يُحمل على الأكفّ. إذا بلّغكم أنه سيمارس عملاً لا علاقة له على الإطلاق بمهنتكم أو بأحلامكم الضائعة، لا ترموا بضغينتكم في وجهه ولكن اسألوه عن آفاقه المستقبلية. قولوا له، وكرّروا ذلك عشر مرّات بل مئة مرّة وألف مرّة (بجميع الصيغ والنبرات) أن مصيره ملك له وأن حياته هدية قدّمتموها له من دون مقابل. «كن أنت نفسك، على طبيعتك، وعلى أفضل نحو ممكن» هي الرسالة التي يجب أن تنقلوها له حتى يصبح قادراً على الاعتماد على نفسه.

قتـل

«أتريد أن تقتل أمّك»؟

هذه العبارة التي تشير إلى قتل الأم لا مثيل لها في الغباء والحماقة. من الواضح بالنسبة إلى الولد أن لا خطر من أي نوع على أمّه. لماذا يقتل أمّه؟ ألأنّه نال صفراً على السلوك؟ إن جو المأساة والتهويل الذي يوحي به هذا التعبير لا يجد له أي صدى عند الولد. لا سيّما وأن خبر الصفر على السلوك لا يبدو أنّه يؤثّر في صحة أمّه، ولكن في مزاجها فقط. إن اتّهام الولد بقتل أمّه اتهام باطل لا شيء يبرّره. إن هذا النوع من الأحكام يدمّر الحب الذي يكنّه الولد للأب الذي يتفوّه بهذا النوع من الكلام؛ فيفقد الأب أي مصداقية له بنظر ولده. وعلى الرغم من كون الاتهام الموجَّه إلى الولد اتهاماً غير واقعي وغير حقيقي، إلاّ أنه يحمل في طياته بذور شعور غير عقلاني بالذنب سيتحمّل الولد تبعاته بعد سنوات على ذلك. لن يقتل أمّه لكنّه «سيقتل» زواجه أو زيجاته المتتالية تقيّداً منه بالفكرة التي غُرست في رأسه.

اختيار الكلمات

هل يمكن لسلوك الولد الجانح أو المنحرف أن يحثّه على قتل أحد والديه؟ واقعة كهذه تحدث نادراً جداً. الأولاد الذين يقتلون أهلهم يفعلون ذلك عادة بعد تعرّضهم لعذاب مستمرّ ضمن عائلتهم. ولكن يجب الاعتراف أن الفعل «قتل» هو فعل خطِر على شخصية الطفل أو المراهق التي لا تزال طيّعة ليّنة ويمكن بالتالي التأثير فيها. لكثرة ما توجّهون له هذه الكلمات القاتلة بشكل منتظم، ستثيرون

لديه رغبة في تجربتها، ليس بقتل أمّه ولكن بقتل مشاعره في كل مرّة يحسّ بعاطفة تجاه امرأة. في أفضل الأحوال، قد تجعلون منه زير نساء يغويهن كلّهن ولا يحب أيّاً منهن. وفي أسوأ الأحوال. . .

> **نودّ لو يكونون على صورتنا، نودّ لو يكونون نسخة اخرى منّا، ان نستمرّ فيهم بعد ان تُطوى صفحتنا ولكن فليكونوا على طبيعتهم وعلى أفضل نحو ممكن!**
>
> **جان جاك غولدمان**

حقيقة (قول الـ)

«أتساءل إذا ما كنت تقول لي الحقيقة»

«هنالك أيضاً، عند الأطفال الطبيعيين وفي الحياة اليومية، أكاذيب ليس لها أي هدف دفاعي ويمكنها أن تكون نوايا حقيقية؛ وهي ناجمة عن الحاجة إلى قول أشياء خيالية وهمية يمكن أن تُحسب على أنها حقيقية. وذلك ليس بهدف الغش أو الخداع وليس للمصلحة الشخصية؛ إنه شكل من أشكال الفنّ الحقيقي مثل فن الممثّل الذي يجسّد شخصية» (ماريا مونتسوري).

يضيف الوالد (أو الوالدة) الجالس على كرسي قاضي المحكمة العليا: «ليس جميلاً أن تكذب!»

لن يطول الأمر قبل أن تصدر إدانة الكاذب والمتّهم في وضع سيّئ. هل كذب أم لم يقل الحقيقة؟ إنها مسألة كبرى يجب قياسها بمكيال مشاعره. فالراشدون تقدّم بهم العمر ولم يعودوا يفهمون الفرق الدقيق بين الكذب وعدم قول الحقيقة. مَن يكذب هو كذّاب. طبيعي! أمّا مَن لا يقول الحقيقة فلا يمكنه أن يكذب، بل إنه يرفض ببساطة الكشف عن السر الذي تخبّئه هذه الحقيقة. إننا نملك الحق في عدم قول الحقيقة كيلا نفشي السر، وهذا ما لا يفهمه الكبار.

اختيار الكلمات

لا تطالبوا أبداً بالحقيقة طفلاً تقولون له يوميّاً الأكاذيب من غير قصد! فخطابكم كلّه ليس سوى نسيج من الحقائق الزائفة والأكاذيب الحقيقية هدفها إخفاء خوفكم من الحقيقة. الكذب وسيلة

للمحافظة على الذات يتعلّم أطفالنا سريعاً كيف يستخدمونها بمهارة: يجب عدم جرح كبرياء بابا باطلاعه على كل كلام السوء الذي يُقال عنه في الاجتماعات العائلية عند حمويه. يجب عدم قول الحقيقة للماما في ما يتعلّق بكل ما ارتكبه طفلها خلال عطلة نهاية الأسبوع. ما هي الحقيقة؟ الحقيقة صورة في المرآة، انعكاس يتظاهر بقول ما هو حقيقيّ لعينين ترفضان رؤية الواقع على ما هو عليه. الكذب هو ترجمة لجميع الحقائق التي تعلّمنا إياها حكمة الأطفال، التي تقول إنه ليس من المستحسن دائماً أن تُقال الحقيقة. من الناحية العملية، ماذا يجب أن يقول الأب (أو الأم) أمام كذب ولده؟ يجب أن يطرح عليه السؤال التالي: «هل هذه الكذبة ضرورية؟» اخلقوا عنده الرغبة في التفكير في الإجابة التي سيعطيها لكم، مهما تكن سنّه. إنه يعلم أنكم كشفتم كذبته، فلا جدوى من معاقبته. علّموه أن يفكّر في العواقب! ما هي الفائدة التي يأخذها من الكذب؟ (انظر أيضاً كذب، ص205).

> **«هل نريد، بقول جمل أو اتخاذ مواقف محضّرة مسبقاً، أن نمنع تلويث الأهل لأولادهم؟ ما يمرّ غالباً في الكلام هو ما لا يُقال. فما هو ضمني يتقدّم على ما واضح وصريح»**
>
> **كاترين ماتلين**

رأى

«هل ترى ما الذي أريد قوله؟»

«هل ترى ما الذي أريد قوله» سأل الأب قلِقاً وقد أربكته كل النظريات التي أتى بها والتي لا يعرف كيف يخرج منها من دون أن يسخر منه ابنه.

يهدف هذا الربط بين رأى وقال إلى التشديد على نقطة محدّدة من الكلام. وغرضه أن يضمن لكم أن محدِّثكم يفهم جيداً ما قلتموه. ما هي الأسباب التي جعلت الفعل «رأى» يأخذ مكان الفعل «فهم» المناسب أكثر مبدئياً في هذا الإطار؟ لماذا يجب أن يمر فهم الكلام بالعينين؟ هل يجب على هذا الابن أن ينقل الشرح الذي قدّمه له والده إلى صور لكي يتمكّن من فك رموزه؟

يعبّر استخدام هذه الجملة بشكل متكرّر عن تشوّش ذهني عند الذي يقولها. وعندما تصبح هذه الجملة عادة كلامية، تكون إشارة إنذار لذهن مضطرب مرتبك. ويجبر هذا الاضطراب الصارخ الشخص الذي يعاني منه على اللجوء إلى معرفة رأي محدّثه، ويدعوه إلى تسليط الضوء حيث لا يرى هو أي شيء فيقول: «هل ترى ما الذي أريد قوله؟».

اختيار الكلمات

اتركوا الفعل «رأى» للعينين واستخدموا الفعل «فهم» أو «سمع» لكل ما يسمعه ولدكم. فهو لا يستطيع رؤية ما تقولونه، حتى لو أراد ذلك، لكنّه يستطيع أن يفهم إذا شرحتم له الأمر بوضوح. وليست الرسالة التي يبعث بها الأب (أو الأم) هي دائماً ما

تبدو عليه. إن الذي يحتاج إلى رؤية الكلمات التي يقولها هو أعمى من الناحية العاطفية. فهو لا يدرك التأثير الانفعالي لكلامه ولا لكلام محدّثه. وإذا استخدم الفعل «رأى»، يعني هذا أنه يعترف لا إرادياً أنه لا يفهم تماماً عمّا يتكلّم أو أنه غير متمكن من الموضوع.

«لا أرى ما الذي تريد قوله»

جملة تعرّف الأهل العميان. يفرطون في استخدام هذا الفعل لينيروا ضميرهم لكنّهم ينسون النظر بانتباه إلى ما تراه أعينهم. وهكذا يحرمون أولادهم من المشاركة الفعلية في حياتهم أو من تحمّل مسؤولياتهم، وهي أمور يطالبهم بها أولادهم أنفسهم. وعندما يفرط الولد بدوره في استخدام الفعل «رأى»، فهذا يعني أنه ولد كسول يجعل رفاقه ينجزون عمله عنه. إنه ينتحل ما لغيره ويستغلّ الآخرين. الشخص الذي يرى هو ناسخ ومقلّد بطبيعته، وهو بالتالي استغلالي ينتحل عمل رفيقه لتسهيل حياته.

هل يمكننا رؤية ما يُقال؟ وهل يمكننا سماع ما ندّعي رؤيته؟ هل يشعر الأهل الذين «يرون» بأنهم معنيّون بالكلمات التي يرونها؟

إمّا أنهم يصفون بعينيهم وينظرون بأذنيهم، أو أن ذلك لا يهمّهم لا من قريب ولا من بعيد. أميل شخصياً إلى الخيار الثاني.

اختيار الكلمات

من المهم جداً ترك الفعل «رأى» في علبة النظّارات عندما يوجّه طفلكم إليكم الكلام. وأشدّد: إن ولد الأهل الذين «يرون» يصبح تلميذاً كسولاً ينقل عن رفيقه في الصف أو يستفيد من لطف أصدقائه واستعدادهم لمساعدته كيلا ينكبّ على إنجاز فرضه. الأولاد الذين «يرون» لا «يفعلون». فهذان التصرّفان متناقضان كليّاً.

أراد

«كنت أريد (أو أودّ) أن أحدّد موعداً...»

دفعت شانتال باب المكتب بيد متردّدة. استقبلتها السكرتيرة بابتسامة عريضة وقالت:

– صباح الخير سيّدتي، كيف أستطيع أن أساعدك؟

– صباح الخير، جئت لأنني كنت أريد تحديد موعد مع مستشار التوجيه من أجل ابني.

– إنه يستقبل أيام الأربعاء والجمعة. أي موعد يناسبك أكثر؟

– كنت أريد أن آتي يوم الأربعاء المقبل.

– لدي مكان في الساعة الثالثة إلاّ ربعاً، هل هذا يناسبك؟

– أجل، أجل، ممتاز.

– اسم الولد واسم العائلة من فضلك؟

– لويس لوغران.

– لقد سجلت الموعد سيّدة لوغران. الأربعاء القادم في الثالثة إلاّ ربعاً. تذكّري إحضار ملفّه المدرسي معك.

بعد ظهر يوم الأربعاء، نسيت شانتال لوغران مرافقة ابنها إلى موعده. واعتبرت أن الأمر غير ملحّ إلى هذه الدرجة وأن اقتراحات مرشد التوجيه ستبقى مناسبة في الأسبوع التالي.

اليوم ليس الأمس

إن الذين يصرّفون حياتهم بالماضي يستخدمون هذه الصيغة كيلا يواجهوا حاضرهم. يفضّلون دفن مستقبلهم قبل أن يولد بدلاً من أن يضطرّوا إلى مواجهته.

إذا كنتم، أنتم أيضاً، تعيشون حياتكم في صيغة الماضي، فهذا يعني أنكم تسيرون إلى الوراء لكي تتجنّبوا الاقتراب من

مستقبلكم أكثر من اللازم. وعلى غرار جميع الذين يصرّفون مستقبلهم بصيغة الماضي، تعيشون حاضركم بشكلٍ نظري، وكثيراً ما تكون نواياكم خدّاعة. ففي كل مرّة تصرّفون فعلاً بصيغة الماضي تغذّون حاجتكم، التي لا يمكن كبتها، في عدم الوصول إلى شيء وعدم تحقيق شيء أبداً.

اختيار الكلمات

هل تريدون تحرير إرادتكم؟ راجعوا زمن الأفعال في كلامكم. انسوا الماضي (صيغة «كنت أريد») لا سيّما عند التحدّث عن المستقبل.

استخدموا صيغة الحاضر وتجذّروا في هذا المكان وهذا الزمان الحاضر، وظّفوا كل طاقتكم في أفعالكم، تشرّبوا من كل كلمة تقولونها، فتتطلّعون إلى مستقبلكم براحة بال. وبنتيجة ذلك، تتفادون تحويل ولدكم إلى شخص راشد متطيّر وضعيف الإرادة يقتصر أفقه على ماضيه ويخلّف مستقبله وراءه.

«كنت أريد أن أسألك...»

يعرّف بعض المعاجم هذه الصيغة الشائعة الاستعمال (كنت أريد أن أسألك)، «كصيغة إيجابية للمجاملة». توقفوا، للحظة صغيرة، وفكّروا في هذه العبارة المنافية للعقل والمنطق.

تشير هذه العبارة إلى أنكم كنت تريدون، منذ برهة، التعبير عن مطلبكم وأنكم لم تعودوا تريدون ذلك الآن! لقد بدّلتم رأيكم. هذا حقّكم! ولكن إذا كانت الحال كذلك فلماذا تطرحون السؤال؟ تريدون إخفاء نواياكم وترك انطباع جيّد؟ هل إن الجواب ليس له أي

أهمية عندكم، ولذلك كنتم تريدون تجنّب السؤال؟ إنكم تستخدمون الماضي! هل يجب أن تتوافق المجاملة والتهذيب مع الخبث؟ في هذه الجملة، تترافق المجاملة بشكل أساسي بالحطّ من قدر الذات. باستخدام الماضي، توحون بقلّة أهمية كلامكم وتفرطون في إعلاء قدر الشخص الذي يتوجّه إليه سؤالكم. إنكم تمنحونه الثقة والاعتبار من دون أن تعرفوا مع من تتعاملون. «ما كنت أريد أن أسألك إياه لم يعد له أي أهمية على الإطلاق»، هذا هو معنى هذه الجملة.

إنكار الذات

هل أن التقيّد بمبادئ المجاملة والتهذيب، وهي القواعد التي تسوس المجتمع، يفترض بالضرورة إنكار الذات؟ كثيراً ما تكون عبارات المجاملة غريبة وغير متوقّعة، فلا تفرضوها على أولادكم قبل أن تأخذوا الوقت اللازم للتفكير في المضمون الضمني لهذه الصيغ الجامدة. لن يصبحوا قليلي الأدب لأنكم ستجنّبونهم جملاً مثل «كنت أريد أن أسألك» أو «أودّ لو... من فضلك ماما». ما «كنت» أريد أن أسألك إياه لا علاقة له «بما أريد أن أسألك إياه». صيغة الحاضر صيغة مقوّية ومنعشة، أما الماضي الناقص فصيغة تخطّاها الزمن. لا تصرّفوا أبداً مستقبل أولادكم بصيغة الماضي في كلامكم!

المستقبل في صيغة الماضي

إن طريقة كلام المديونين والمحبطين تؤكّد ذلك، فهؤلاء يصرّفون رغباتهم في صيغة الماضي بالكلام عن المستقبل: «كنت أريد أن أشتري هذا الموديل من السيّارات» أو «كنت أرغب في إلغاء الموعد الذي حدّدته في الخميس القادم» أو «كنت أريد أن أموت»،

وهذه الجملة الأخيرة يقولها شخص ميّال إلى الانتحار لم ينجح مرّة أخرى في مسعاه. ويتزايد عدد الأشخاص الذين يعبّرون عن رغباتهم المستقبلية بالماضي الناقص في بداية هذا القرن الذي تكثر فيه المخاطر... الماضي الناقص هو صيغة الفشل، خصوصاً عندما يعبّر عن مستقبل قريب. والأهل الذين يصرّفون مستقبل أولادهم في صيغة الماضي الناقص (كنت أريد...) يمحون حاضرهم ومستقبلهم. أنّب أحد الآباء بمرارة ابنه الذي يتوقّع الفشل في الامتحانات فقال: «كنت أريد أن تنجح في البكالوريا». أب مهزوم، ابن ضائع! إن الذي «كان يريد» يسير في الحياة عكس التيار. فالحاضر يزعجه والمستقبل يخيفه. والمشكلة في هذه الصيغة في تصريف الأفعال هي أنها تطبع سلوكيات الطفل وتحرمه من اختيار حياة أخرى مختلفة عن الحياة التي لا ترضيكم. إنكم تجبرونه، لا إرادياً، على تكرار سيناريو حياتكم.

اختيار الكلمات

إذا وعيتم مسؤوليتكم التربوية على هذا الصعيد، فما زال باستطاعتكم تغيير المعطيات ومنح وريثكم مستقبلاً مختلفاً عن ماضيكم. وسيثأر لكم من التربية الحمقاء التي فرضها عليكم أهلكم. أب خاسر، لكنّه ربح ابنه!

«تريد ولكن لا تستطيع»

«هل تريد بعض المثلّجات يا حبيبي؟ أوه، لا! لا تستطيع أكل المثلّجات، لقد قال الطبيب إنه يجب مراقبة وزنك». إن بعض الرسائل المتناقضة التي يبعث بها الأهل هي أقرب ما تكون إلى التشوّش التربوي، إذ تنتقل من مكافأة مفرطة إلى حرمان قاس. إن

لهذه الطريقة في التعامل طبيعة فراقية. والطفل ذو الميول الفراقية يعيش في خوف دائم وغير عقلاني من أن يفارقه والداه. ويظهر هذا الشعور في ظروف مختلفة جداً مثل الظرف المذكور في الجملة «تريد لكنك لا تستطيع». أما الجملة «إن لم ترجع في الحال، ذهبت من دونك» فهي صيغة كلاسيكية تعبّر عن ترك الأب (أو الأم) لولده. لقد مررنا جميعاً بهذا الموقف، لأنه في لا وعي الأهل تسود هذه المتلازمة الفراقية ويكفي عادة إدراك هذا الوضع لتجنّب الإفراط في استخدام مثل هذه العبارات.

«كما تريدين يا حبيبتي!»

كلمات الاستقالة

لا تأخذ أبداً موقفاً لئلاّ تتواجه مباشرة مع طفلتها المتقلّبة المزاج. لكنّ هذا التساهل الزائد يؤدّي في النهاية إلى محو الحدود بين الأم وابنتها. ها هي تضرب الأرض بقدميها أمام التلفزيون وترفض الذهاب إلى النوم. وأنت تعرفين جيداً أنها لن تستطيع الاستيقاظ في الصباح للذهاب إلى المدرسة. ولكن، من أجل الحصول على بعض الهدوء، أخيراً، تقولين لها «كما تريدين» وهي جملة تستقيلين فيها كليّاً من مسؤوليتك. بعد مرور سنوات، ستعود ابنتك إلى البيت، وهي لم تتجاوز الـ15 من العمر، في ساعة متأخرة، في حين أنك حدّدت لها موعد رجوعها. ستصابين أنت بالقلق في حين تتعرّض ابنتك لخطر معاشرة رفقة سوء. وشيئاً فشيئاً، ستسمح لنفسها بما لا يُسمح به وتتصرّف كسفينة من دون ربّان.

اختيار الكلمات

هل تبدو لكم الصورة مضخَّمة أكثر من اللازم؟ أكيد! ولكن أليس من الأفضل تضخيم العواقب الممكنة للكلام «الاستقالي» قبل أن يترك أثراً لا يمكن محوه في مستقبل ولدكم ومصيره؟ لديكم الخيار في انتقاء الكلمات. يجب أن تتعلّموا مجدّداً كيف تقولون لا عندما ترغبون بشدة في قول نعم. الغوا هذه الجملة الاستقالية من خطابكم، واستبدلوا «كما تريد» بـ«كما أريد». في بعض الحالات، يشكّل التصرّف السلطوي الدواء الناجع الوحيد ضد التساهل أو الرخاوة. كيف ننتقل من الواحد إلى الآخر مباشرة ومن دون إبطاء؟ بطرح سؤال واحد على أنفسنا: «هل أرغب حقاً في أن تُصاب ابنتي بإعاقة نتيجة حادث سير غبي لأني لم أقل لها يوماً لا؟» الجواب نعرفه جميعنا. تصرّفوا على هذا الأساس! قد يكرهكم ولدكم في حينه لكنّكم ستنقذون مستقبله... ومستقبلكم.

«أودّ لو تنجح هذه السنة»

لقد أصبحتم تعرفون الآن معنى استخدام صيغة التمنّي والشرط. وتفيد هذه الجملة بالتردّد والاحتمال و... بلعنة التمنّيات التي لا تتحقّق أبداً. هذا التمنّي هو جوهرة حقيقية، هو فتوى ولعنة وحكم بالإعدام بحق فرص نجاح ولدكم. «أريد أن أراك تنجح هذه السنة». هل تعني لكم هذه الجملة شيئاً؟ إنها صيغة تنقل رسالة أبوية فعّالة.

«لا تريد أن تأكل؟»

«لا تريد شرب الحليب قبل أن يبرد؟»

الجواب المنطقي عن هذا السؤال هو: «كلا!». الاقتراح الاستفهامي النافي هو عادة كلامية سيّئة، أحد فيروسات الفشل التربوية أصبح عنصراً طبيعياً في خطاب الأهل.

هل هو احتياط خطابي في مواجهة طفل صعب المراس؟ هل هو ضعف في السلطة عند الأب (أو الأم؟). الاستخدام المفرط للاستفهام النافي هو علامة على ضعف الإرادة وهو ينتمي إلى عقليّة الخاسر أو كل شخص يعاني من أعراض الفشل.

إن استخدام النفي كمحفّز لفعل بنّاء هو أمر مناف للعقل، ورفض مستتر لإنجاز هذا الفعل. الصيغة غير منطقية. «لا تريد؟» ليست هي نفسها «أتريد؟». ولكن ما السبب إذن في هذا الاستخدام المفرط للجمل من نوع «لا تريد»؟

كلام المخرّب

هل أن صيغة «لا تريد أن تسكت؟»، أشدّ وأكثر حدّة من «ألاحظ أنك لا تسكت!» أو أنّها صيغة ملطّفة من «ألا يجب أن تسكت؟». ويمكن تفسير ألا تريد أن ترقص»؟ بطريقة أخرى: «أستنتج ضمنيّاً أن الرقص لا يجتذبك». مهما يكن من أمر ومهما يكن المثل، تُفيد صيغة «لا تريد؟» بمفهوم الفشل. «لا تريد أن تنزل للحظة؟» هو اقتراح يجبرنا على الصعود. فشل!

«ألا تودّ أن. . .» هي بالطبع أسوأ فاستخدام معنى التمنّي مع الاقتراح الاستفهامي ـ النافي هو كلام مدمِّر ومخرِّب. وهو الكلام النموذجي الذي ينطق به الشخص الذي ينشر غصن الشجرة الذي يجلس عليه.

التأثير الانفعالي

ماذا يحدث في لا وعي الطفل الذي تنهمر عليه الجمل من نوع «لا تريد»؟ في هذه الحال، يتجاهل الأب (أو الأم) إرادة الطفل باستمرار ولكن من دون أي نية سيّئة. «لا تريد» تعني أيضاً أن الطفل لا يريد ممارسة إرادته أو لا يجب أن يعبّر عن إرادته، بحسب الأهل. وكما يقول المثل: «كلّما قلّ ما نريده، قلّ ما نستطيعه» بمرور الوقت، يفقد طفلكم قدرته على الثبات في رأي أو عمل وتضعف إرادته إلى حد كبير.

اختيار الكلمات

الحل البديل بسيط جداً. يكفي الإحجام كليّاً عن قول «لا تريد» وتحويلها إلى «تريد؟». أما إذا نطقتم بها في البداية من غير قصد (بفعل العادة) فلا تتردّدوا في تصحيحها بصوت عال. وإذا توجَّه إليكم الطفل بنفس هذا الكلام، فلا تتردّدوا في تصحيح كلامه لكي يدرك الأضرار التي تسبّبها صيغة الجمل الاستفهامية النافية.

صدقاً، حقاً، فعلاً، عن جدّ

«أعتقد حقاً أنه يجب عليك أن تفكّر قبل أن تقرّر»
«هل تصدّق ذلك حقاً؟»
«كان ذلك يستاهل حقّاً الجهد المبذول!»

باستخدامكم هذه الكلمة للتأكيد على ما تقولونه، تظهرون بمظهر المنافقين في أعين أولادكم. «حقّاً» هي حقيقة تفضيلية ونسبية جداً. هل تحتاج الحقيقة إلى إضافات وإكسسوارات لكي تبدو حقيقية؟ ما تقولونه لا يمكن تكذيبه أو إنكاره لأنّه صحيح وحقيقي. لكنّ هذه الحقيقة هي ملك لكم. أن نعتقد حقاً هو أن نشكّ بالتأكيد. انتبهوا فالغشّاش يمكن أن يخبّئ غشّاشاً آخر! في أسرة العبارات الظرفية الإضافية غير الضرورية، يجب تفادي الإفراط في استخدام كلمات مثل صدقاً وصراحةً. «بصراحة، لست آسفاً!» «هل أنت صادق حقّاً؟» وهل يمكن للمرء أن يكون صادقاً كَذِباً؟

«لقد وجد الأستاذ مسابقتي رائعة حقاً»، قال الولد متبجّحاً.
- صحيح!؟ فلماذا وضع لك إذن نصف العلامة (10/20) فقط؟»
أجابت أمّه محتارة.

تتناقض ملاحظة الأستاذ الكاذبة مع العلامة التي نالها الولد، لذلك فقد أضاف هذا الأخير كلمة «حقّاً» إلى كلامه. ويظهر هذا المثل البسيط أن الكذب يختبئ دائماً وراء حقيقة مختلقة يعزّزها هذا النوع من العبارات: حقّاً، صراحةً أو بصراحة، صدقاً أو بصدق وما شاكلها.

اختيار الكلمات

على الأهل الامتناع كليّاً عن استخدام العبارات الظرفية التي يُفترض بها دعم الحقيقة وتوكيدها. «سأقول لك حقاً... إني صدقاً متأسّف جداً... أودّ أن أساعدك بصراحة... يجب حقاً أن نفعل شيئاً من أجله...» كفى! لا تزيدوا! فكل هذه العبارات تنتمي إلى اللغة الخشبية. «صحيح حقاً» أنه يجب تفادي إلصاق هذه العبارة بالأكاذيب الكبيرة التي تحاولون حمل أولادكم على تصديقها. لكن المشكلة، مشكلتكم أنتم، هي أنه لا يسهل خداعهم، مهما يكن عمرهم. لدى الأطفال موهبة الإحساس بما يحسّ وما يفكّر به الغير! أما الأهل فموهبتهم الكذب.

خاتمة

أردنا من خلال كتابنا هذا أن نشارك الآخرين في مقاربة مبتكرة للغة. ولقد ابتعدنا عن قصد عن النظريات اللغوية النفسية. فبالرغم من غنى هذه النظريات إلا أنه من الصعب أن تكون أداة عملية لفك الرموز وفهمها، يمكن أن يستخدمها الأهل الراغبون في تأمين أفضل تربية ممكنة لأولادهم.

وإذا كنا قد تعقّبنا دون كلل أو ملل هذه الكلمات العادية ظاهرياً، ولكن السامة في الحقيقة، فذلك لكي يتمكّن كل أب (أو أم) مسؤول من أن يتحكّم مجدّداً بكلامه ويحوّل مهمّته التربوية إلى علاقة رائعة مع ولده. الرسائل الأبوية فيروسات تلوّث نموّ الطفل وتطوّره وتلوّث أيضاً الشخص الراشد في المستقبل. طموحنا هو مساعدة الأهل في إدراك ما تمثّله هذه الفيروسات اللغوية وكذلك ما تسبّبه من اختلال في العلاقة مع أولادهم وفي العاطفة التي تربط بينهم.

تنجم الآفات التي ذكرناها في صفحات هذا الكتاب عن أن معظمنا غير قادر على الإصغاء: نحن لا نسمع جيّداً إلاّ ما نرغب في سماعه. على أنه من الضروري أن يصغي الأهل إلى أنفسهم وهم يتكلّمون في كل مرّة يوجّهون كلامهم إلى أولادهم.

نحن لا نتعلّم في إطار تربيتنا أن نصغي إلى ما نقوله. وهنا يكمن ضعفنا! ليست العبارات التي نستخدمها مجرّد أدوات نعبّر بها، لكنّها تحمل أيضاً انفعالاتنا وتنقلها. ويمكن لهذه الانفعالات التي تنقلها الكلمات أن تكون إيجابية تارة وسلبية تارة أخرى، مشجّعة أو

مُذِلّة، محفِّزة أو مثبِّطة للهمّة. تعتمد صورتكم كأهل بشكل وثيق على هذه الانفعالات، وبالتالي على نوعية كلامكم. وتعتمد مصداقيتكم، وسحر شخصيتكم كأهل Charisma، على الانفعالات التي تنقلونها إلى أولادكم. إن الكلمات والعبارات الملوَّثة التي تبتكرونها أو التي تأخذونها عن غيركم هي التي تغذّي القسم الأعظم من الصعوبات التي تواجهونها خلال أدائكم دوركم كمربّين، مثل الخلافات المتكرّرة وعدم الانضباط والفشل في الدراسة وغيرها.

إذا كانت الكلمات لا تستطيع كل شيء فهي تستطيع الكثير.

كمثال لذلك، أقصّ عليكم طرفة صغيرة من حياتي اليومية كأم. منذ بضعة أشهر، كانت ابنتي، التي ستبلغ قريباً الثالثة من عمرها، تنفر باستمرار من الاستحمام. وكانت تريد دائماً أن تؤجّل الحمّام إلى ما بعد العشاء. وهذا غير مقبول أيام المدرسة (في بحر الأسبوع). وكان عليّ أن «أكافح» كل مساء لكي تقبل أخيراً عندما يحين وقت الحمّام. وكنت أردّد لها بلا كلل أو ملل: **«سوف** تستحمّين أو سأغضب منك». وهي، بالطبع، كانت ترفض أن تطيعني. وأنا، بالطبع، كنت أنزعج وأتشنّج لاضطراري إلى تكرار اللازمة عينها كل يوم. ولكن عندما أدركت أن طريقتي في صياغة كلامي غير مناسبة على الإطلاق، تحرّكت الأمور. «تستحمّين أو أغضب منك» جملة غيّرت وجه حياتنا اليومية. ولم أضطر بعد إزالة هذا التلوّث الكلامي إلى أن أغضب ولو مرّة واحدة. وسرعان ما استعادت عملية الاستحمام مرحها وضحكاتها المدويّة. وكل ما أقوله لها الآن هو «تعالي لتستحمّي، لقد حان الوقت». لقد أصبح موعد الحمّام لحظة تجمعنا بكثير من الفرح والسرور، ولم يلزم الأمر سوى بضع كلمات!

الكلمات تغيّر الحياة. فعندما تتالى فترات النهار على الأم مصحوبة بالتصادمات والمعارضة العنيفة والغضب والدموع، فإن حياتها اليومية تصبح شديدة الوطأة ويبدو دورها كأم بغيضاً مقيتاً. في مثل هذه الحالات، يرتدّ ذلك سلبياً على معنوياتنا كأهل وعلى «الأنا» لدى كل منا. وتصبح صورتنا عن ذواتنا صورة تعيسة محزنة. وكلماتنا هي التي تؤثّر في هذه الصورة التي نكوّنها عن ذواتنا وفي الصورة التي نظهرها لمن حولنا لذلك فمن الأجدى والأنفع لنا أن نراجع كلامنا ونعدّله. وبغض النظر عن تحسين فهمنا لأنفسنا وللآخرين، تساهم الكلمات في جعلنا نشعر بالراحة مع أنفسنا وبالراحة في دورنا كأهل. والأهل الذين يشعرون بالراحة مع أنفسهم يربّون أولاداً طيّبي النفسية. إن نجاح أولادكم رهن بكلماتكم.

المحتويات